SCANNED BY
JAMAL HATMAL

جمال ناجي

مخلفات الزوابع الأخيرة

رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

شركة الفارس

مدونة ابو عبدو

ABU ABDO ALBAGL

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير -
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً : موكيالي ،
بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الأولى
١٩٨٨

شركة الفارس للنشر والتوزيع م.خ.م
الشميساني - بارا ستار - هاتف ٦٠٥٤٣٢ - عمان / الاردن - ص.ب : 9298

جمال ناجي

مخلفات الزوابع الأخيرة

رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

شركة الفارس للنشر والتوزيع م.خ.م

٣ ع ٨

جما جمال ناجي

مخلفات الزوابع الأخيرة / جمال ناجي

عمان : المؤلف ، ١٩٨٨

(٢٨٨) ص

رقم الاجازة المتسلسل ٨٨/٢/٦٣

ر . أ ١٩٨٨/٢/٥٨

١ ـ قصة عربية أ ـ العنوان

مخلفات الزوابع الأخيرة / جمال ناجي

(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

إلى أمي

تنويهات :

* أسماء الشخصيات والأُسر في هذه الرواية غير حقيقية ، وفي حالة وجود تشابه بينها وبين أيّ من الأسماء الحقيقية ، فمردّ ذلك الى مجرّد الصدفة .
* الأحداث أيضاً غير حقيقية .
* اسم الشخصية وكنيتها أينما وردا فهما مرفوعان .

الكتاب الأول

اخر الليلات

(١)

لو تعود المدينة بخوائها إلى الوراء ، فإن الوادي سيعود مثلما كان قبل ارتحال « سبلو الغجري » اليه : مكاناً موحشاً ، ملتقى للصوص الذين تخذوا من كهوفه حصوناً لهم ، ومخابىء تستعصي على الاكتشاف !

ستفهق المدينة ايضاً في فراغ جبالها ووديانها ، ستُشهِر أذرعها العنكبوتية ، وتزحف معلنة حربها الصامتة القاسية على فراغ مساحاتها .

هنا تزدحم الوجوه ، فيطلّ « سبلو الغجري » وزوجته « بهاج » ثم ابنهما « هاجار » ، يطل « عثمان ابو بركة » وزوجته وأولاده لاسيما « حامد » أصغرهم ! يطلّون جميعاً لا لأنهم يريدون بث ما لديهم عبر هذه الرواية ، ولا لأنهم أوّل من أقام في فراغ الوادي ، وإنما لأنهم كانوا مقدمة للحشود التي تخذت من الوادي موطناً لها .

(٢)

في أحد الصباحات ، خرج « سبلو » عن عادات الغجر الذين لا يحسنون الابتعاد عن بعضهم !

لأمرٍ ما ارتحل سبلو عن جماعة الغجر ، فأعلن بذلك سابقة خطيرة تفرّد باحتمال نتائجها ، وحين أقام في الوادي ، سامر لصوص المدينة ذات ليلة

مفزعة ، عزف لطيشهم ولبأسهم ، ولعن الموت مثلهم ، لكنه لم يشاركهم غزواتهم على متاجر المدينة ، وحظائرها .

(٣)

قبل عشرات السنين ، لم يكن هنالك مكان اسمه « وادي الغجر » ، ولم تكن هذه التسمية ممكنة ، لأن حشود الغجر أقامت عند الأطراف الجنوبية للمدينة .

كل ما هنالك أن بيتاً واحداً كان يقبع في سفح الجبل الشمالي ، ويضم فيما يضم : « عثمان أبو بركة » ، وزوجته « رحمة » ، وأولاده الأربعة ، وبناته الثلاث .

كل ما هنالك أن بعض سكان الأرباض ، اعتادوا عبور الوادي بجمالهم ، ليختصروا المسافات التي تفصلهم عن اقاربهم ومعارفهم في المناطق الأخرى ، لكن تلك الجمال بوسيجها المتكرر في الوادي ، أوجدت مسرباً خالياً من الأعشاب في القاع ، وصار بمكنة من ينظر إلى القاع من أي بقعة في الجبال المحاذية ، أن يرى بوضوح ، ذلك المسرب الرفيع المتعرج .

هذا كل ما شاهده « سبلو الغجري » من آثار للحياة في الوادي يوم ارتحاله إليه ! آنئذ ، لم تكن صخور الوادي قد رُوّضت ، ولم تتخذ مساربه أشكالها الحالية المتفرعة من القاع المطمئن ، إلى الأشفار المتأرجحة .

كان الشريطان الضيقان المحاذيان للقاع ، يستقبلان كل عام بذور الحبوب التي تذروها أصابع عثمان أبو بركة وأسرته ، والخضرة تطفر من الأرض ، بعد أن تفض الأمطار بكارة ذينك الشريطين المزروعين :

ما أن تذرف السماء أوجاعها ، حتى يبتل التراب في الوادي ، وترتوي بذور القمح والشعير ، وتغتسل الحجارة والصخور وأشجار السرو غرباً ، والمياه تتدفق من أقاصي الشمال ، حيث التلال الزرقاء البعيدة ، والعشن الكونيّ

الساكن ، ووحشة الفراغ الشاسع .
من أقاصي الشمال تبدأ رحلة الشتاء ، وفي الشمال تبدأ قطرات المياه أولى خطوات الانقياد : فتتجمع وتندفع متخللة الصخور ، جارفة معها الحصى والرمال وهشيم الفصول ، وإذ تصل أجمة السرو غرباً ، تنعطف نحو الشرق ، تبعاً لاستدارات الصخور ، ومسارب السيقان الباسقة .
يتجه السيل شرقاً ، فيخفتُ هديره ، وتتوزع مياهه في انبساطات القاع الذي يتسع كلما ابتعد عن ضيق المنعطف .

(٤)

سبلو الغجري اختار ان يقيم بيته على بعد خطوات قليلة من بيت عثمان ابو بركة لأسباب : منها ابتعاد ذلك المكان عن مهابّ الرياح ، وعن كهوف اللصوص التي أثارت تطيُّره حين شاهدها لأول مرة في الأعالي ! ومنها وجود امتداد صخري شبه منبسط ، أعانه على اختصار الكثير من جهود وتكاليف أساسات بيته ، لكن الأهم ، أنه أراد باختياره ذلك المكان ، أن يرى بيته من أيّ بقعة في الوادي ، وأن يرى أيّ رِجْلٍ غريبة قد تقترب من ذلك البيت ، ولقد أشار « عثمان أبو بركة » على سبلو بأن يعمّق أساسات بيته قبل الشروع بالبناء ، وأن يستخدم الحجارة العريضة المنبسطة ، لكي يزيد من سمك الجدران ، كما أشار عليه بالإكثار من كمّيات الاسمنت التي يريد شراءها من المدينة ، لكي يكون البناء قوياً متيناً .

في البداية جمع الحجارة المنبسطة ، ثم حفر أخدوداً بعمق شبرين ، وامتثل لإرشادات عثمان ابو بركة بأن عالج انحناء الأرض بتعميق الأخدود في الجهة المرتفعة ، وجَلَبَ الرمال البيضاء الناعمة والاسمنت من كسارات المدينة على ظهور الحمير المعفّرة ، ولم يلتفت إلى ما قاله أحد أصحاب تلك الحمير ، بعد أن أفرغ حمولة الإسمنت عن ظهر حماره ، فقد التفت ذلك

الرجل حوله باحثاً عن أثر لحياة الانسان في الوادي ، وحين لم ير سوى بيت عثمان أبو بركة ، قال لسبلو :
« ول ! ضاقت الدنيا حتى تعيش في هذا الواد المنقطع ؟ »

(٥)

كان لمساعدة عثمان أبو بركة وأولاده الأربعة أثر كبير في نفس سبلو ، فقد أحس بأن مساعدتهم له في بناء بيته ، إنما هي دين عليه لا بد له من سداده في يوم ما .
أحس أيضاً بأن في موافقتهم على بقائه في الوادي ، سابقة لم يعهدها خلال سني ارتحاله وقومه ، فقد اعتادوا مشاهدة النظرات المزدرية في عيون « الفلاحين » حال اقترابهم منهم ! لكنه لم يفكر بأن عثمان ابو بركة وأسرته ، إنما كانوا يبحثون عمن يشاركهم وحشة الحياة في الوادي ، وانهم باندفاعهم لمساعدته ، إنما أرادوا توطيد وجوده المفاجىء في الوادي !
عمل سبلو بجبروت وقوة لا تتوافران إلّا لكائنٍ تخلّص من مُشَتِّتاتِ جهوده العضلية والعقلية ، وكان مثل رصاصة انطلقت نحو هدف محدد واضح ، لذا لم يلتفت إلى تنهدات زوجته بهاج ، أو تبرّماتها المتكررة ، أو حتى ملاحظاتها التي أبدتها حول ضرورة أن يريح جسمه ، وأن يأكل جيداً ، كما صمّ أذنيه المنتصبتين ، فلم يعد راغباً في سماع صوتها .
كان يستمع فقط الى صوت واحد ، أو ، هو لم يستمع ، إنما سُيِّر بايحاء غريب ، مبعثه تلك الأصداء ، العميقة الغامضة التي احتلته بعد هزيمته أمام « كياز الغجري » .
لقد تحولت تلك الأصداء إلى محرك لاندفاعة سبلو التي لم تصدر عن قناعة بجدوى ارتحاله عن جماعة الغجر ، وإنما عن تحرُّكٍ شبه مسمريّ أعقب هزيمته فاتّخذَ هيئة : الحل ! .

(٦)

سبلو الغجري ، سبلو الفأر ، سبلو بن قدّاح

ثلاث تسميات لرجل واحد أكهب البشرة ، ضئيل الجسم ، منتصب الأذنين ، كأنما هو في حالة استماع متصلة لأصوات بعيدة .

ينحدر سبلو من أسرة غجرية تنقلت بين بلاد الهند ، وايران ، وشمال العراق ، وبلاد الشام ، وقيل أن أحد أجداده فسخ عن تلك الأسرة ، واتجه إلى بلاد مصر .

الاسم الحقيقي لهذا الرجل الضئيل هو : سبلو بن قدّاح بن جنّاس بن فا بن سونار ، أما كلمة « الفأر » فليست سوى لقبٍ أطلقه عثمان أبو بركة عليه بسبب هيئته ومشيته الغريبتين !

إن لقباً كـ (الفأر) لهو أنسب ما يمكن إطلاقه على رجل مثل سبلو ! وهو يؤكد على تلك العلاقة الغامضة بين لقب الإنسان ، وبين هيئته !

لقب « الفأر » يؤكد أيضاً ذلك التشابه الاسطوري بين شكل الانسان ، وبين أشكال الكائنات الأخرى على هذه الأرض ! فرأس سبلو يشبه إلى حد بعيد رأس الفأر ، سواء من حيث اندفاعة لحيته التي تتقدم وجهه الرفيع ، أم من حيث الانتصاب الدائم لصيوانَيْ أذنيه ! وهو قصير القامة ، ضامر الجسم ، خفيف الحركة ، لكن مشيته تثير الاهتمام ، ذلك أن رأسه يظل غاطساً بين كتفيه أثناء سيره ، كأنما هو قطعة وُضِعَتْ في ذلك المكان لاحقاً !

(٧)

حينما جمع سبلو المواد اللازمة ، شرع وأبناء عثمان أبو بركة ، بخلط الاسمنت بالرمال بالمياه التي أحضروها من النبع الشرقي ، وصبوا خلطتهم في الأخدود ، ثم انتظروا يومين قبل أن يحكموا بناء الحجارة التي لم تذر للريح أو

للمطر أو حتى لأصغر الحشرات فرصة التسرب من تلك الجدران !
كل ما هنالك أنهم تركوا في الجدار الغربي فتحة مربعة ، ثم أغلقوها بشباك خشبي ـ أما الباب والسقف ، فقد اعتنوا بهما جيداً ، حيث صنعوا الباب من الأخشاب السميكة المتصالبة ، وأثبتوا في منتصف حافته ترباساً حديدياً ثقيلاً ، ثم غطوا السقف بقماش « الشادر » السميك ، مما أضفى على تلك الغرفة المستطيلة مظهر الإتقان والاستقامة ، وصار بمكنة من ينظر الى بيت سبلو من أي مكان في الوادي ، أن يرى بوضوح ذلك البيت الذي لا يبعد سوى بضع خطوات عن سلسلة الحجارة المحيطة بدار عثمان أبو بركة .
أما « بهاج » فحسبها أن تصيح بزوجها عبر النافذة أو الباب ، لتسمع اصداء صوتها ، ثم صوت زوجها الذي يستجيب لها حتى ولو ابتعد وراء المنعطف !
لكن لماذا يجازف سبلو بالابتعاد وراء المنعطف حيث أجمة السرو ؟ لماذا تكبر الأشجار في تلك البقعة ، بينما يظل الوادي قاحلاً إلاّ من السنابل والأعشاب والزهور البرية ؟
منذ أن ارتحل سبلو إلى الوادي ، وهو يبحث عن طمأنينته في تساؤلاته الكثيرة ، وفي استفسارات زوجته التي فكرت في الكثير من الأمور ، وتوجست قبل أن تنزل ابنتها « هاجار » من حضنها ، غير أنه لم يدع لها فرصة التعمق في مخاوفها ، وبدلاً من أن ينتظر رأيها ، سارع بإنزال « الشادر » عن ظهر الحمار ذي الشعر الشوكي ، وأنزل أعكام الملابس والصحون والأدوات ، ثم الصندوق البنّي الصغير حيث مساحيق الحنّاء ، والبهارات ، والمسك ، والطيب الذي تلقّته بهاج هدية أخيرة من والدتها العجوز ليلة ارتحالها عن خيام الغجر !
في تلك الليلة قالت العجوز لسبلو بلغتها الغجرية « هل مسّك الجن ؟ » ثم تحسست ودعاتها الخمس في عب ثوبها ، بينما تشاغل هو بعضعضة طفلته المتشبثة بقميصه البني الفضفاض « لكن يا سبلو ، الغجري غريب إلاّ مع قومه » أضافت العجوز ثم طرحت ودعاتها على تراب الخيمة أمامها ، فردّ

مطلقاً سراح ابنته « يا عجوز ، الدنيا ملكنا ، والأرض كلها للغجر ! » ثم أكمل مذكّراً العجوز بالأسباب التي دعته الى اتخاذ قرار الرحيل « أما هنا فلا شيء سوى قتالنا مع بعضنا » وحينما فهمت العجوز ما يرمي اليه ، عادت لِتَلَمُّس ودعاتها بصمت .

(٨)

لم يتمكن سبلو من التحرر من مشهد هزيمته أمام « كيّاز الغجري » حين ضبطه وهو يتلصّص على زوجته بهاج !

في ذلك المساء تلقّى صفعة أطاحت بمكانته العزيزة بين الغجر ، وتمنّى بعدها لو لم يلحق بكيّاز ذي العضلات المفتولة والعظام القاسية ، وساءل نفسه مُتفلّتاً من انكسار خاطره « لماذا لم أتركه طالما أنه اختصرها وهرب ؟ لماذا لحقت به ؟ لماذا أمسكت به ؟ » .

كان لهذا الحادث وقع قاتل في نفس سبلو ، إذ ما أن صفعه كياز على وجهه ، حتى سقط على الأرض ملطخاً بدماء أنفه الدقيق البارز ، ولولا احتشاد الغجر حوله حينئذ ، لظل الأمر سراً ، ولاتخذ في ذهنه ، شكل الانكسار المبرر لرجل نحيل أمام رجل هائل العزيمة ، ثقيل اليد ، عضلي الجسم ، اسمه كياز ! .

لم يكتف كياز بصفع غريمه فحسب ، بل داسه بحذائه الأسود على مرأى من الغجر الذين تلملموا حوله ! داسه بقسوة منعته من النهوض أو حتى الهرب ! وقال الغجر انه أراد الانتقام لنفسه من بهاج التي رفضت زواجه منها ! قيل أيضاً أنه بفعلته تلك ، انما أراد ارغام سبلو على ترك زوجته !

لكن المهم في تلك الحكاية ، أن الغجر لم يرحموه ، وبدلاً من أن يخفّفوا من وقع الهزيمة عليه ، سخروا من السبب الذي دعاه الى اللّحاق بكيّاز ، إذ « ماذا لو نظر كيّاز الى بهاج من ثقب خيمتها ؟ » وصبوا في مسمعيه تعليقاتهم التي لم يجرؤوا يوماً على إطلاقها ، بسبب من غموضه وصمته الذي لم يدع لأحد فرصة التعرف الى مواطن قوته وضعفه .

كان سبلو مقلاً في أحاديثه واحتكاكه بالآخرين ، وحتى حينما يعزف في لَيْلات الغجر على أوتار بزقه ، فإنه يعزف دون الالتفات الى محاولات التودّد التي يبدونها في نهايات سهراتهم ، غير أن عراكه غير المتكافىء مع كياز ، أدى إلى اعتكافه في خيمته ثلاث ليالٍ متعاقبة ، رفض خلالها الاستجابة لمحاولات استرضائه ، كما رفض استقبال كياز الذي دَفَعهُ الغجر إلى الاعتذار له في الليلة الثالثة لاعتكافه ، وفكّر جاداً بالرحيل عن خيام الغجر ، وإذ عرض الفكرة على زوجته بهاج ، تلقّى بغيظٍ صفعة رفضها الذي تضخّم في نفسه ، وتحوّل إلى ظنون حارقة التهمت قلبه وأحشاءه ! هو لم يقتنع لِلَحظة بظنونه تلك ، إنما كان ميالاً إلى صبّ جام غضبه على شخص ما ، غير كياز الذي لا يستطيع مجابهته ، كان يريد تفريغ شحنات غيظه العاجز المكبوت ، تلك الشحنات التي انحشرت في قلبه ، فضاق بها ، وإذ لم تجد بدّاً من الخروج ، بحثت عن أول منفذ لها في جدران ذلك القلب ، لتندفع عبره الى أقرب الناس اليه ، أقرب الناس الى ذلك الفؤاد ، فكانت بهاج ؟! « أعرفك يا خالعة ، تريدين البقاء هنا ؟ عند كياز ؟ » صاح مغيظاً ، فَرَدّت بسؤال مندهش مصعوق « ماذا تقول يا سبلو ؟ » « إبقي هنا ، لا أريدك ، لا أريد أن أراك ، سأرحل وحيداً يا خالعة ! ؟ » لكن بهاج استطاعت فهمه كما لو انها تعيش في مرجل قلبه « طيب ، سأرافقك ، سأرحل معك حتى الى النار » .

حينما تنهد واستدار ، ربما هربا من عينيها اللتين نفذتا الى فؤاده ، وربما ليتمكن من تصريف دموع غيظه التي حدرت بصمت !

(٩)

حينما فرغت العجوز من تلمُّس ودعاتها قالت ، إن الشريرة توسطت بقية الودع ، قالتها بلهجة واثقة عارفة ، وموحية ! ثم هزّت رأسها بأسى « لا ترحلا يا سبلو ، لا ترحلا ! » « ماذا تقولين ؟ » وسبلو لم يتوقف عند نبوءة

العجوز على الرغمْ من توسُّلها الحزين « وتموتان مقتولين ؟ ! » فقد تأفف بضيق في وجهها « أووه يا عجوز ، صدفك كله موت ! » ثم ذكّرها بتوقعاتها التي لم تصب ، ورؤاها التي أخطأت ولم تتحقق . لكنه بمحاولاته تلك ، انما أراد القفز عما أثارته تلك النبوءة في نفسه من توجُّس مُرعب امتدّ إلى ما بعد ارتحاله الحزين عن خيام الغجر .

لم يستطع اقتلاع هاجس تلك النبوءة ، بل لقد رأى طيفها من جديد حينما شاهد في طريقه إلى الوادي ، امرأة عجوزا في ثوب أسود ممزق وهي تقطف أوراق التبغ من حقلٍ مصفرٍ ناشف ! حينها تردد صوت أم بهاج في أذنيه بوحشية « وتموتان مقتولين ؟! »

حينها أيضاً ، تصلّب الجلد في رأسه !

(١٠)

ما أن انتهى من صقل بيته في الوادي حتى نقل أمتعته وزوجته وابنته من موقع الخيمة المؤقتة ، إلى ذلك البيت ، ثم بدأ بفض الأعكام وترتيب الأمتعة دون الالتفات إلى صراخ طفلته هاجار في حضن أمها ، ودار في فناء الغرفة مطرقعاً أصابعه بِحيرَةٍ من غيَّبَهُ الذهول « ما رأيك يا بهاج ، هل أدق مسامير الملابس في هذه الزاوية ؟ » سألها مشيراً إلى إحدى الزوايا ، فأجابت متثائبة « كما تريد » « طيب والسراج يا بهاج ؟ أين أضع السراج ؟ » و« هل نضع الفراش هنا ، تحت الشباك ؟ » .

كثيرة تلك الأسئلة التي قذفها في وجه زوجته ، غير أنه كان يدرك بأنه هو المعني بأسئلته تلك ، وأنه بذلك إنما بوجه أسئلته إلى نفسه بحثاً عن إجاباته الخاصة ، بدليل أنه لم ينتظر اجابات زوجته ، بل ربما أجابت بهاج عن بعض تلك الأسئلة لكنه لم يسمعها في غمرة بحثه عن إجاباته هو ! وإذ انتهى من وضع آخر اللمسات على تلك الغرفة ، تأملها من الداخل والخارج ، ودار

برفقة زوجته حولها ، تفقّدا واجهاتها الأربع ، كوّما حجارة الآرام في زوايا الأرض المحيطة ، تفقدا خنّ الدجاج الطيني وبرج الحمام الخشبي ، وتحادثا عن الحمام والدجاج .

بعد أيام ابتاعا من إحدى بدويات الأسواق ست دجاجات ، وديكاً فحلاً ، وست حمامات بيضاء إللون ، وتبين لهما أن في مراقبة الحمام متعة لا سبيل الى بلوغها إلاّ بالمواظبة على تلك المراقبة ، لذا اعتادا القرفصة على الصخرة المستوية أمام الباب كلما خفت حدة الشمس ، من أجل رؤية الحمام !

أما ذلك الصراع ، الدامي المميت ، الذي نشب بين ديكهما المزركش ذي العظام البارزة ، وبين ديك عثمان أبو بركة ذي العظام البارزة أيضاً ، فقد انتهى بهزيمة نكراء لديكهما ، مما زاد من إحساس سبلو بهزيمته هو ، حتى أن ذلك الإحساس ظل ماثلاً في ذهنه طيلة الأيام التالية التي اعتاد خلالها ديك عثمان ابو بركة غزو دجاجاته الست ، وحينما توالت غزوات ذلك الديك ، تخلص من دجاجاته ، ومن ديكه الهارب المهزوم .

(١١)

حينما انتهى وزوجته من ترتيب بيتهما ، تمنى لو يلتم كل غجر الدنيا حوله ، ليروا انجازه لبيته المختلف عن خيامهم وخرابيشهم ! لأمرٍ ما تمنى أن يزوره الغجر ! وسبلو يعرف « ديونه » جيداً ! ويعرف لمن قدم الذبائح ولفائف المسك والكعكبان في مناسبات الزفاف والختان والشفاء والعودة من أسفار الشمال . لكنه أصيب بنوبة من الفرح ، يوم زاره عثمان ابو بركة وزوجته وبناته اللواتي استطعن اخفاء استصغارهن للغجر ، فداعبن ابنته هاجار ، واستخرجت احداهن من جيب ثوبها عدداً من مكعبات السكر ، وقدمتها لها ! ولقد تركت هذه اللفتة في نفس بهاج أثراً بالغاً أدى إلى تفاؤلها اللَّحْظيّ السريع ! أما هو فاستمع إلى نصائح عثمان أبو بركة حول طريقة العيش في

الوادي ، والحصول على الحاجيات من الحي الشرقي ، وجلب المياه من النبع ، وضرورة الانتباه والحذر من الأفاعي والعقارب واللّصوص الذين يعيشون كالصقور في كهوف الأعالي ! كما استمع الى النصيحة المهمّة التي ذكرها عثمان أبو بركة ، وهي أن لا يترك شيئاً من حاجياته خارج بيته ، وأن يغلق بابه جيداً حين النوم ! واذا انتهت تلك الزيارة ، أحسّ بأن الحياة في عزلة الوادي تتطلب الكثير مما لم يحسب حسابه ، وراعه أن زائره تحدث كثيراً عن اللّصوص وخطرهم ، غير أن إحساساً مريحاً تسرب إلى نفسه القلقة ، فأدخل الطمأنينة الى قلبه ، فقد تذكّر بأنه ليس وحيداً في الوادي ، وأن هنالك من يشاركونه الحياة فيه ، لذا قرر تطوير علاقته بجيرانه ، تماماً مثلما توصلت بهاج إلى ضرورة تعزيز علاقتها « برحمة » زوجة عثمان ، وببناته ، من أجل الخروج من صقيع حياتها في الوادي .

(١٢)

لم يمض سوى بضعة اسابيع على بداية انتظار سبلو ، حتى حضر الغجر على ظهور خيولهم وحميرهم ، مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم وهداياهم .

غجر كثيرون حضروا إلى الوادي ، حاملين في قسمات وجوههم آثار احساس مؤلم بالذنب دفعهم إلى التنادي بالعشرات ، من أجل زيارة « حبيبنا سبلو » ! ويبدو أن غيبة سبلو وزوجته طالت في مخيلات الغجر ، بحيث أحسوا حينما التقوهما ، بأنهم لم يروهما منذ دهر ، لذا تميز لقاؤهم بالعناقات الحارة ، والمفاغمات الحميمة ، وحتى كياز الغجري ، فقد حضر إلى الوادي مصطحباً زوجته « سمار » وطفله الرضيع « عرقي » وثلاثاً من العنز الشامي !

(١٣)

في البداية لف الغجر ذلك التوجس الذي يصيبهم كلما أقاموا أو توقفوا في مكان جديد ، غير أنهم ما لبثوا أن أَنِسُوا جلساتهم ، وأَلِفوا مشهد الأعشاب بتيجانها الصفراء والبنفسجية ، ومسرب الجمال المتعرج الممتد ، ثم الصخور الداكنة في سفح الجبل الجنوبي المقابل ، كما أَلِفُوا مشهد الجرف العظيم المنحدر من الجبل الشمالي نحو القاع .

لقد تفحصوا بعيونهم كل الجهات حال وصولهم الوادي ، ونظروا إلى عثمان أبو بركة وأسرته بحذر مبعثه جهلهم بتفاصيل حياة أولئك « الفلاحين » ! غير أن لغز الكهوف ظل ماثلاً أمامهم ، لاسيما ذلك الكهف الهائل عند استدارة المنعطف !

لقد أفصح الغجر عن تطيّرهم حال رؤيتهم للصخرتين الحادتين عند مدخل الكهف ، وقال أحدهم بأنهما مثل نابين شريرين في فك ذلك الكهف المظلم ! أما أجمة السرو فسلبت اهتمامهم وفضولهم على مدار الساعات الأولى لزيارتهم ، وعندما مرت ليلتهم بسلام ، وأشرقت شمس نيسان على الأعشاب الندية ، انبهر الغجر ، وارتدّت تساؤلاتهم إلى أعماقهم ، ثم اجتاحتهم رغبة عارمة في الركض والغناء والعبث ، فأخذوا يتراكضون ويتصايحون ويتغالبون ويقرصون بعضهم بعضاً، رجالاً ونساء وأطفالاً ، وانقلب حذرهم فرحاً غامراً ، كما أمتطى ثلاثة منهم الخيول ، وتلاحقوا عبر مسرب الجمال ، وإذ وصلوا المنعطف ، بَهَرَتْهُمْ أجمة السرو ، فنزلوا عن ظهور خيولهم ، واقتادوها من لُجُمِهَا مستطلعين تلك الأجمة ، وحينما تعمقوا بين سيقان السرو أبطأوا السير ، ثم توقفوا ، وتوصلوا كلّ على انفراد ، إلى ضرورة العودة الى بيت سبلو ! لم يناقشوا الأمر فيما بينهم ، بل امتطوا خيولهم عائدين من حيث أتوا ، كأنما هم على اتفاق !!

(١٤)

عند الغسق ، أشعل الغجر نيرانهم ، وأقاموا عرساً تهاربت من صخبه كل الحيوانات والزواحف والحشرات التي تدور حول بيت سبلو كل ليلة ، أما عثمان أبو بركة وأسرته ، فقد هزوا رؤوسهم أمام بعضهم معلقين « غجر ! صحيح غجر ! » لكنهم لم يستطيعوا مقاومة رغباتهم في التفرج على ذلك العرس ، وسهروا أمام بيتهم المطل على ساحة العرس ، وحاولوا أن يفهموا ماذا يقول الغجر ؟! ماذا تقول أغنياتهم ؟

كانوا يغنون بلغتهم ذات الزوايا الحادة ، والمخارج الدقيقة ، على الرغم من معرفتهم بلغة العرب التي تعلموها خلال تجوالهم في اسواق المدن وأعراسها وساحات أعيادها .

عثمان أبو بركة وأفراد أسرته استطاعوا فقط أن يفهموا اللغة المشتركة الصامتة ، التي نطقت بها خصور النساء وأكتاف الرجال ، فقد رقص الغجر بوحشية بعد أن احتسوا العرق الذي أحضروه معهم ، كما عزف سبلو ألحانه النشوى بعد أن تجرع كأسه الثالثة ، وتناسى عقدة هزيمته أمام كياز الذي رقص بتهوّر ، وتألّقت بهاج حين شاركت بالرقص مستعيرة الصنوج المعدنية من إحدى الغجريات ، وتثنّت أمام جمع الساهرين والساهرات بوزرتها السوداء المذهّبة ، وقميصها الذهبي الضيّق حيث استدارات النهدين ، كما تألقت « سمار » زوجة كيّاز الملتهبة ، وتبين لكياز أن زوجته أطول من بهاج بقليل ، غير أن هذا لم يثنِهِ عن التهام جسدها بعينيه ، على الرغم من التحذيرات التي أطلقتها عينا زوجته « سمار » وعيون الغجريات اللائي تَلَوَّيْنَ أثناء أدائهن رقصاتهن . ولكي تدلّل سمار على رغبتها في إجراء مصالحة نهائية مع سبلو وزوجته ، تناولت البزق من بين يديه ، ووضعته جانباً ، ثم شدّته من معصمه لتراقصه على وقع طبلٍ منفردٍ لم يصاحبه سوى صفق الأَكُفِّ المتحمسة ، وصيحات الاعجاب بتلك الرقصة الثنائية التي أبرزت رشاقة

سمار ، وأنوثتها الطاغية ، وخفة أصابعها في قرع الصنوج ! وانطلق سبلو عبر نشوة العرق فرقص ببراعة أدهشت بهاج ، فأفرحتها ، فاستجابت الى دعوة كياز لمراقصتها بعد أن أفلتت معصمها من قبضته .

(١٥)

رقص الغجر وغنوا حتى الهزيع الأخير من الليل ، وعندما كلّوا ، فرشوا طراحاتهم وبطانياتهم على الصخرة المستوية أمام الباب ، ثم تناقشوا بصخب وطيش حول فكرة الاستقرار في الوادي ! وعلى الرغم من معرفة سبلو بأن تلك الفكرة ليست سوى مسخ نتيجة أفرزها خواء ما بعد العرق ، إلا أنه خرج عن صمته ، واستمات في اقناعهم بخطورة الوادي ، ولصوصه وكهوفه . غير أن كياز وزوجته سمار استحسنا الفكرة بعد أن جرَّبا الاقامة في ذلك البيت ، وشاهدا كيف توضع الأشياء داخل البيت في أماكن ثابتة ، وكيف لا يطفىء الهواء السراج ، وكيف تظل الأمتعة والأواني نظيفة بمعزل عن التراب والغبار ، وكيف ينام المرء آمناً غير عابىء بمخلوقات الليل ورياحه ، على أنَّ أكثر ما أثار إعجاب سمار ، ما شاهدته في الوادي خلال النهار من أعشاب وزهور ومساحات خالية إلاّ من هواء نيسان النقي ، ومن رفيف الفراشات في فضاء التجمعات المبهرة للزهور البرية البريئة ، لذا تبنّت وزوجها باستبسال ، فكرة استقرار الغجر في الوادي ، لكن كياز اضطر الى وقف اندفاعته حال تنبُّهه إلى ذبول عيون جلسائه وتثاؤبهم ، وتناسُلِ النسوة الى داخل البيت طلباً للنوم ، وإذ استلقى الرجال على فرشات القطن المتدرنة وبطانيات الصوف ، استلقى مثلهم على ظهره متأملاً بعينيه ، نجوم نيسان الحادة البريق في السماء الحالكة ، وأخذ يرسم في خياله فكرة استقرار الغجر في الوادي ، تلك الفكرة التي لم تكتمل ليلتئذ ، بسبب النعاس المفاجىء الذي طواها فأغلق خياله ، وحتى عندما أفاق في الصباح ، فإنه لم يجد الفرصة

لإكمال خيوط فكرته ، بسبب الخواء الذي سكنه بعد صخب ليلته ، وحينما أتم استعداده للرحيل ، ودّع سبلو وبهاج بحرارة وحزن ، ثم قبل ابنتهما هاجار ، وركب حصانه عائداً وركب الغجر ، إلى خرابيشهم وخيامهم .

(١٦)

برحيل الغجر عن الوادي ، أحس سبلو وزوجته وحتى ابنته ، بفراغ كبير لم يعهدوه منذ بدأوا مغامرة الخروج عن بني قومهم ، وتنبهوا أكثر من ذي قبل ، إلى خواء الوادي وخلوه من الحياة ، كما شدّهم الحنين إلى حياة الغجر وطقوسهم وسهراتهم ، وتحادث الزوجان بتحبُّب عن أفعال زائريهم مستذكرين طرائفهم وشقاواتهم ، وأثنت بهاج على الغجريات اللائي ساعدنها في تحضير الطعام والحلوى ، وفي تنظيف الأطباق الفخارية وصحون التوتياء ، ثم تفقدت وزوجها للمرة الثالثة ، رؤوس الماعز الشامي التي احضرها الزائرون معهم ، وفكّرا سوية في كيفية المحافظة على ذلك القطيع المكون من ستة عشر ماعزاً ، وهي ما تبقى من هدايا الغجر بعد أن فرسوا أربع ذبائح خلال زيارتهم ، وقدموا لعثمان ابو بركة وأسرته ذبيحة أخرى عربوناً لعلاقة جيدة معه ومع اسرته .

حينما جن الليل ، ربط سبلو قوائم الماعز بالحبال كي لا تبتعد عن بعضها ، لكنه فوجىء في صبيحة اليوم التالي ، باختفاء ثروته تلك ! وتفحَّصَ غير مصدق ، آثار حوافر الماعز وبقايا بعرها ، ثم نادى زوجته لتساعده على إدراك الكارثة الماثلة أمامه ، وإذ لحظ الرعب في عينيها السوداوين ، دار بجنون حول بيته باحثاً عن قطيعِهِ ، ثم زعق على عثمان وأولاده ، سألهم المساعدة في فهم لغز اختفاء الماعز ، وحين واساه عثمان « أطلب العوض من الله ، ألم أحذرك من اللصوص ؟ » صاح بطيش « سأصعد الى كهوفهم ، سأطالبهم بقطيعي » فكبحه عثمان « لست نداً لهم يا سبلو ، انهم مجرمون ،

يسرقون الدواب ، ويذبحونها ، وفي الصباح يحملونها إلى الأسواق قِطَعاً ، ويبيعونها الى أهالي المدينة ! » ثم سرد أمامه الكثير من الأحداث المشابهة ، وحدثه عن فقدانه لاثني عشر رأساً من الغنم بنفس الطريقة ، وحينما تنبه إلى وجه سبلو المتسفّع ، كرّر مواساته « عوضك على الله يا رجل ، كن حذراً في المرة القادمة » فاستدار بيأس وهزال « هذا إذا كان هنالك مرة قادمة » ثم دخل بيته نادباً بدايته العاثرة في الوادي ،مفكراً في الطريقة التي عليه اتباعها من أجل الحصول على النقـود بعد أن نفدت مدخراته ، وضاعت ثروة الماعز التي كان من الممكن أن تعينه على حياته .

(١٧)

كيف تمكّن سبلو من النفاذ إلى المدينة ؟ كيف عرف بيوتها ؟ كيف داهم أعراسها ومناسباتها ؟

عند الغروب ، يودع سبلو زوجته وابنته ، ثم يركب حماره ذا الشعر الشوكي ويسير على هدي كشافه اليدوي ، وحين يقترب من احد احياء المدينة يبحث بعينيه وبأذنيه المتصببتين عن ضوضاء الأعراس وأضوائها ، ثم يستحث حماره بضربة من عصاه التي رسمت على جلده كدمات داكنة .

امتد لجأ سبلو الى طريقة طريفة في فرض نفسه كعازف في تلك الأعراس ، إذ ما أن يصل مكان العرس ، حتى يقتحم ببزقه حلقة الغناء والرقص متخذاً له مكاناً قريباً من الطبالين أو المغنين ، كـأنما هـو واحد منهم ، ولقـد يتساءل أصحاب العرس عمن دعا هذا الرجل الغريب ، ويتنادون سراً وعلى انفراد ، يهزّون أكتافهم أمام بعضهم بالنفي ، وقبل أن يتوصلوا إلى حل بشأن ذلك الغريب ، يكون قد استحوذ عـلى إعجاب الحـاضرين ، فتـدبّ الحماسـة فيهم ، فيبدأون التصفيق والرقص على أنغام بزقه ! حينها تضيع تسـاؤلات أصحاب العرس ، ويندمجون في بهجة ذلك القادم الغريب « المهم أنه أحيا

السهرة » يقولون مُسوِّغين حرجهم أمام ضرورة توجيه السؤال اليه ، « كانت السهرة ميتة قبل أن يأتي » يقولون و« الحمدلله على أنه جاء » ! وحتى حين يجرؤ أصحاب العرس على توجيه السؤال اليه ، فإنه يدّعي بأن رجلاً جاءه الى بيته ودعاه إلى العزف في العرس ، وحين يسألونه عن الرجل الذي دعاه ، يتظاهر بالبحث عن ذلك الرجل ! وبين حرج السؤال الذي قد يُفسد العرس ، وبين استحالة الجواب ، يُغلب أصحاب العرس ، ويسمحون له بالعزف مقابل « الإكرامية » .

(١٨)

من الممكن أن تستمر حياة سبلو على هذا النحو : نوم ليلي متأخر ، أحلام ورؤى هواجس ، صحو ظُهري موجع ، جلسات شبه يومية مع عثمان أبو بركة ، أحاديث ، مراقبة للحمام أثناء هديله وعشقه ، مداعبات حنونة لطفلة اسمها هاجار ، جلسات هادئة صاخبة وزوجته بهاج ، وحياة قد تتطور نحو الأفضل ، حياة تهبه فرصة السلام والنسيان !

لكن ما حدث في إحدى ليالي آب الوحشية ، تحوَّلَ بسبلو نحو بدايةٍ ما كان لها أن تغزو حياته ، لولا حركة عفوية قامت بها بُهاج ، في لحظة قاتلة .

كان الوقت يَحِنُّ إلى الغروب ، وجنادب الوادي تكف عن التقافز بين الأشواك المتقصفة في سَكونه العميق ، ما أعمق السكون في الوادي ! والرجل الذي طرق باب سبلو ، دعاه إلى العزف في « حفل الأعالي » ! كان الرجل مربوع القامة ، وسيم الملامح ، لكن عباراته الرصاصية محت كل آثار وسامته تلك « أين ستقيمون الحفل ؟ » تساءل سبلو بارتيابٍ سرعان ما تحول الى فزع ! فقد اشار الرجل بإبهامه الى أعالي الجبل الشمالي ، وقال بصوته الرصاصي « هناك ، فوق » وكهوف اللُّصوص هي التي « فوق » سبلو عرف هذا ، لذا لم يجرؤ على الإفصاح عن ارتيابه ، كما لم يستطع اتخاذ قرار حاسم يهدّىء من روعه ، كان أشبه بورقة ترتعش أمام زوبعة نظرات ذلك الرجل ، المربوع

القامة ، القاسي العينين ! في تلك اللحظة من غفلة الحياة ، أطلّت بهاج من الباب مستطلعةً « وسندفع لك ، لأن الحق ، حق ! » قال المربـوع بليونـة مبعثها ذلك الظهور المفـاجىء ، للمرأة المفـاجئة المـطلة من حلق الباب ، « أسمعت ؟ الحق حق » كرر الرجـل ، فاختفت بهـاج في شحوب الغـرفة هرباً ، ربما ، من تينك العينين اللتين سُلّطتا نحو صدرها المندفع « سآتي » قال فاختتم المربوع اللقاء « عظيم ، اتفقنا » ثم استدار صاعداً الجبل ، تتبعـه عواصف الريبة .

(١٩)

من الطبيعي أن يفكر سبلو في أمر تلك الدعوة ، فاللصوص لصوص ! ومن يدري ما الذي يمكن ان يفعلوه به ؟ لكنه أدرك بأنه لن يستطيع التخلف عن موعده ، لأن اللصوص أيضاً ، لصوص ! أما مشاركته فيها ، فأمست أكثر بديهية من حلول الليل « ما رأيك يا عثمان » قال بعد أن سرد التفاصيل الدقيقة للزيارة الغريبة التي قام بها الرجل الى بيته « قل لي يا عثمـان ، ما رأيك ؟ فأنت أعرف بهم ؟ » وعثمان رأى أن يستجيب سبلو لـطلبهم مهما كانت النتائج ، لأن دعوتهم تلك ، هي أول احتكاك مباشر من جانبهم به ، وعليه إن أراد العيش بسلام في الوادي ، أن لا يخرج عن طوعهم !

(٢٠)

امتنعت بهاج عن تناول الطعام في تلك الليلة ، وودّعت زوجهـا في حزنٍ من تودّع مسافراً لن يعود ، وشيعته بنظراتها حتى اختفى وراء الصخور العالية ، وحين عادت الى الغرفة ، حاولت إيجاد تبرير للحزن الذي ملأها حال ابتعاد زوجها ، بل لقد ترافق ذلك الحزن بوشيش خافت متصل خارج

من قلب السكون ، وتساءلت عمّا يمكن ان يحدث ؟ وأجابت نفسها مراراً : سيعزف لهم ، وفي أسوأ الأحوال لن يدفعوا له أجرته ! ثم تشاغلت بتنظيف الأكواب الزجاجية ، والأواني المعدنية والفخارية ، وباحة البيت ، والصندوق البني في الزاوية ، ثم أعدت لنفسها كوباً من الينسون ، شربته دون إحساس بحرارته العالية ، وعادت الى الصندوق ، فتحته ، تفقّدت منديلها الأسود وأساورها المعدنية ، تنشَّقَتْ فُغْمَةَ مساحيق الطيب ، فتذكرت نبوءة والدتها ، فأعادت بفزع كل محتويات الصندوق وأغلقته ، كأنها بذلك تريد خنق مساحيق الفزع ! وحينما دارت في الفناء متأفِّفَة ، بدت لها الغرفة أصغر من ذي قبل ، كما بدا ضوء السراج اكثر شحوباً ، أمّا ابنتها هاجار ذات الأعوام الثلاثة ، فأسهمت بنومها المبكر في تعميق مخاوفها ! وفي محاولة لقهر ذلك الخوف ، فتحت بهاج النافذة على غير عادتها ، فرأت أبواب دار أبو بركة موصدة ، وقناديلهم مطفأة ! استدارت نحو الباب ، جازفت بفتحه أيضاً ، فشاهدت أسرابا من اليراع تتطاير كالشرر في باحة الدار ، وإذ سمعت الصدى البعيد لأوتار البزق ، وللأصوات المترنحة ، والتصفيق غير المنتظم ، تبدَّدَتْ بعض مخاوفها « اذن صحيح ما قاله الرجل ! صحيح انهم يحتفلون ! لماذا الخوف اذن ؟ » قالت بفرح مسموع ، وأحسّت بتعاطُفٍ مفاجىء مع أولئك اللصوص الذين « ظَلَمْتُهُمْ » قالتها بصوت مرتفع أيضاً ، وبدلاً من أن تقفل الباب ، ظلت واقفة على عتبته ، لتسمع اصداء أوتار البزق بين يدي زوجها الذي عزف حتى سال العرق من جبهته الكهباء إلى لحيته ، وجَسَأَتْ يده اليمنى دون أن يتمكن من اختلاس لحظة يريح خلالها تلك اليد !

كان مرح اللصوص مدجَّجاً بالقسوة والإلحاح ، وإذ انتهى حفلهم الشيطاني ، تنهد سبلو بأنفاس من أزاح عن صدره عبئاً قاتلاً ، ومسح العرق عن وجهه بكمّي قميصه البنّي الفضفاض ، ثم نهض مستأذناً ، لكن الرجل المربوع ، يرافقه رجل آخر معتم الوجه ، أصرّا على مرافقته حتى بيته ، ضماناً لسلامته كما قال المربوع ! ولأن الوقت متأخر وظلام الوادي مخيف ، حسبما

قال الرجل الآخر ! وعلى الرغم من رفض سبلو لعرضهما ، وتخلّيه السهل عن أجرته ، إلّا أنهما تأبّطا ذراعيه بصخب وبحميمية غريبة ! وفي أثناء انحدارهم نحو بيته ، مازحاه مستخدمين أيديهما ونكاتهما الخاصة ، وحينما وصلوا ، ودّعاه فتنفس ، ثم طرق الباب تملؤه رغبة غريزية في الانسلال داخل بيته ، حيث السلامة التي لم يظفر بها في ليلته تلك ، إذ ما أن فتحت بهاج الباب ، حتى ظهر الرجلان من وراء إحدى الصخور القريبة ، واندفعا وراءه الى داخل البيت ، وأغلقا الباب وراءهما بعنف . في تلك الليلة قُتِلَتْ بُهاج !!

* * *

أبو سلمان حامد أبو بركة

٣١

(١)

عندما بدأت المدينة زحفها باتجاه الوادي ، بوغت عثمان أبو بركة ، ولم يصح من ذهول الفكرة التي راودته حينئذ ، إلّا بعد أن حطّت الأسر الأربع الجديدة رحالها في الوادي !

تلك كانت المفاجأة التي دعت عثمان إلى التفكُّر ، والتنهد ، وتمسيد لحيته الرصاصية بأصابعه الطويلة ، والتمشي في أرجاء البيت ، والتشاور مع أولاده الأربعة الذين تقاطعت خطوط آرائهم ، ثم التقت عند نقطة واحدة : لا بد من التحرك ! اتفقوا ، ثم اجتازوا الوادي معاً ، كأنما ليقولوا لأفراد الأسر الأربع الجديدة :

نحن هنا : بمسدّساتنا الخمسة ، وخناجرنا المعقوفة الخمسة ، ونسيج هيبتنا الحديدية !

عثمان أبو بركة أصيب حينئذ ، بموجة من الزهو دعته الى استلال مسدّسه من « سلحلكه » المرصّع بالرصاص ، وإطلاق عدد من العيارات النارية في الهواء ، تعبيراً عن حالة لم يستطع احتمالها ! كما توجه وأبناؤه إلى البقعة التي أقام فيها افراد الأسر الأربع ، وكان عددهم خمسة وثلاثين فرداً ، بينهم خمسة شبان ، وأربعة رجال تجاوزوا الأربعين ، ورجل مسن وقور يعتمر حطة وعقالاً ، ويرتدي عباءة سوداء مذهبة الأطراف ، تماماً كعباءة عثمان أبو بركة ! ورائحة البارود لم تكن غادرت أنف عثمان أو أي من أبنائه حينما

خاطبوا أفراد تلك الأسر بلهجة مستمدة من زهو الاعتداد ، ومشحونة برجع اصوات الطلقات .

في ذلك اليوم انتزع عثمان ابو بركة من أفراد الأسر الأربع ، اعترافاً بملكيته لأراضي الوادي على الرغم من تيقنه من أن اليوم الذي سيظهر فيه مالك الأرض الحقيقي ، لا بد آت ! خلال الأيام التالية ، ابتدع نظاماً لبيع الأرض ، حيث حدد للمتر الواحد سعراً ثابتاً قيمته عشرون قرشاً ، واضطر السكان الجدد إلى دفع أثمان الأراضي التي اختاروا إقامة بيوتهم عليها ! غير أن واحداً منهم ، تجرّأ على النطق في حضرة عثمان ، وتساءل عما إذا كان سيتم تسجيل تلك الأراضي بأسماء المشترين ؟ هنا عبث عثمان بأنفه المعقوف ، مسد لحيته الرصاصية ، وضم طرفي عباءته قائلاً ، بأن أرض الوادي غير قابلة للتسجيل بسبب تصنيفها الزراعي ! وقبل أن يتعمق السائل في أسئلته ، أضاف بوقار وحسم « كل شيء في أوانه خير » .

(٢)

هكذا استولى عثمان أبو بركة على أراضي الوادي ، دون ان يعرف شيئاً عن المالك الحقيقي لتلك الأراضي الممتدة من النبع الشرقي ، إلى ما تطاله سطوته من اللانهايات الممتدة وراء الجهات الثلاث الأخرى ، ولقد ترسّخت ملكيته تلك على مر الشهور ، بحيث غدت واحدة من مسلمات الحياة في الوادي ، وصار لزاماً على كل من يريد البقاء هناك ، أن يدفع ثمن الأرض التي يختارها لعثمان الذي عرفه الناس بكنيته ، فخاطبوه قائلين « يا أبو بدر » .

(٣)

لكن « أبو بدر » لم يعمر طويلاً ، فقد اختطفه الموت بعد عام واحد من ارتحال أبنائه الثلاثة الذين انخرطوا في الجندية . أما أصغرهم فلم يفعل مثلهم

لأسباب عديدة ، منها رغبته في البقاء الى جانب والده ، تلك الرغبة التي باركها أبو بدر في حياته . ومنها جبلته النفسية التي تدعوه أبداً ، الى اصدار التعليمات لا تلقيها ! وحتى في علاقته بأخوته الثلاثة « بدر ونايف وجاسر » فقد كان نافذ الكلمة قوي الحجة !

كان أبو بدر يعرف هذه الحقيقة ، ويرقبها بفخرٍ مبعثه ذلك الشبه الغريب بينه وبين ابنه الأصغر « حامد » ، وكان يعزو لنفسه الفضل في تنمية بديهة ابنه هذا ، وحجته ، وحكمته المبكرة ! أما أبناؤه الثلاثة الآخرون ، فكثيراً ما تبرموا بسبب التمييز الذي حظي به شقيقهم حامد ، لكنهم احتملوا قسوة والدهم عليهم ، منطلقين بهذا من مسلماتهم الأسرية التي تستدعي : إطاعة الأب ، واحترامه ، والسكوت على كل أفعاله ، حتى ولو تضمنت تلك الأفعال ، قطع رقابهم !

كان يقول لأبنائه الثلاثة كلما زجرهم أو وبّخهم : أريدكم رجالاً أشداء أقوياء أذكياء ! كان يجد في عبارته هذه خير تبرير لقسوته ، وخير منقذ له من مُشْوِكات ضميره المسائي ، لكن الأخوة الثلاثة توصلوا الى ضرورة البحث عن حيواتهم المستقلة التي ستهبهم فرص امتلاك أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، كما توصلوا الى أن الانخراط في الجندية خير وسيلة لتجنب انفجاراتهم الأسرية المحتملة ، وأقاموا وزوجاتهم وأطفالهم في المناطق التي عينوا فيها ، وبذا نزعوا كل فتائل البارود من حيواتهم ، وحيوات والدهم ووالدتهم وشقيقهم الأصغر ، حامد !

(٤)

حامد هو الذي امتلك سيارة « الفورد » الحمراء العمومي قبل وفاة والده بشهور ، أما أراضي الوادي ، فظلت بحاجة الى المزيد من الهيبة اللازمة لامتلاكها وحمايتها ! هذا ما فعله حامد أبو بركة الذي كرر فعلة والده ، لكن

بطريقة مختلفة ! فعندما توفي أبـو بدر ، حضر أبنـاؤه الثلاثـة الى الوادي ، وأقـاموا فيـه خمسة أسـابيع متصلة ، وقبـل ان يعودوا الى أمـاكن سكناهم وأعمالهم ، أحاط حامد نفسه بثلاثتهم ، وتجول واياهم مراراً في الوادي كأنما ليُذكِّروا السكان بوجودهم المتحد المتماسك على الرغم من اختلاف اماكن سكناهم ! ولقد استمد حامد من وجودهم قوة مكنته من التهيؤ لإكمال شوط والده المتوفى ، تساعده في ذلك طلعته المهيبة الناجمة عن ارتدائه عباءة والده السـوداء ، وحطتـه وعقالـه وسروالـه ، حتى أن زوجته « عـائشة » علقت بامتعاض على هيئته الجديدة قائلة ، بأن هندامه ذاك أضـاف الى عمره عشر سنوات على الأقل ، بحيث بدا وكأنه تجاوز الأربعين من عمره !

والحقيقة أن تلك الملابس ، أعادت الى أذهان المحيطين بحامد ، صورة والده المتوفى ، بل ان ولديه (سلمان وجبر) حملقا به دون ان تسعفهما قدرتاهما على التعبير عن دهشتهما !

كانا صغيرين ، وكان يشتري لهما مكعبات السكر والملابس من متاجر المدينة التي يجوبها بسيـارته « الفـورد » . كانت رحـلاته قبـل وفاة والـده ، ملأى بصخب اكتشافه لما هو موجود أصلاً في المدينة ، لكن هذا الصخب لم يثنه عن تقديم واجباته تجاه طفليه وزوجته وأهله ، فقد اشترى لهم الكثير من الأحذية والملابس الداخلية والقماش والمناديل ولفـائف الحريـر ، وتغلب بهذا عـلى احساسه بارتكابه ذنوب الالتفات الى سيقان فتيات المدينة ، وذنوب اختلاس النظرات عبر مرآة سيارتـه ، الى صدور الـراكبات فيهـا ، وكثيراً مـا تحول احساسه بالذنب تجاه زوجته « عائشة » الى مبالغات غريبة من جانبه ، كتقديم الهـدايا الثمينـة لها ، وكعبـارات الحب التي دخلت قامـوس الفاظـه بفعـل مشاهداته للافلام العربية في دار السينما .

غير ان « حامد » توقف بشكل مفاجىء ، والى الأبد ، عن العمل في مهنة السواقة تلك ! فقد بلغه خبر وفاة والده ، أثناء انتظاره امتلاء سيارته بالركاب في سوق المدينة المكشوف ، مما أدى الى انهمار دموعه التي لم تحدر قط ، منذ ان

شب وغزت جسمه معالم الصبا والرجولة ، وحينما عرض زملاؤه السواقون فكرة ايصاله الى بيته خوفاً من تهوره في القيادة ، رفض منطلقاً بسيارته الى الوادي ، من اجل القاء النظرات الأخيرة على جثة والده الذي أحبه الى حد لم يستطع معه تخيل فكرة موته ، أو انسحابه من حياته ، او من حياة الوادي ! وفكر أثناء قيادته المجنونة سيارته الحمراء بإمكانية التباس الأمر عليه ، أو على من أوصله الخبر ، أو على حتى يقظته ، وقبل أن يتفرع بسيارته من الشارع الشرقي المعبد الى مدخل الوادي ، فوجىء بشاحنة من تلك التي مقدمتها كوجه الجرادة ، تجتاح سرحته وسيارته ، فتهشم جانباً من ساقه اليسرى ، وفخذه اليسرى ، وذراعه اليسرى ، وأنفه المعقوف الذي شُقَّ الى نصفين تم لأُمُهَا خلال فترة غيبوبته في المستشفى ، كما تمت معالجة جروح ساقه وذراعه ، دون استخدام قوالب الجبس او شرائح الاخشاب أو أي من مصحّحات الكسور ، ذلك ان نتائج التصوير الشعاعي أظهرت سلامة عظام ساقه وفخذه وذراعه ، أما صورة جمجمته ، فظهر في جانبها الأيسر صدع صغير أشاع القلق في عيون الأطباء ، خصوصاً حينما قرنوا وجود ذلك الصدع ، بغيبوبته المتصلة على مدار الأيام الثلاثة الأولى لإدخاله المستشفى ، غير أن قلق الأطباء تلاشى عندما صحا حامد من غيبوبته ، وحينما تأكدوا من سلامة نطقه وذاكرته وسمعه وبصره ، نقلوه من غرفة الانعاش الى احدى غرف الطابق الثاني ، لكن الغيبوبة الهذيانية المتقطعة عاودته من جديد ، مشبعة بروائح النشادر والمطهرات واليود ومساحيق السلفا ، وهنا خَمَّنَ أحد اطباء المستشفى ، إمكانية وجود داء في جسم حامد « والا ما سبب عودة الغيبوبة ؟ » تساءل الطبيب بلهجة أكاديمية صرفة ، وبعد اجراء تحليلات الدم والبول والبراز ، تبين للاطباء أن داء « السكري » أخذ طريقه الى جسمه .

لكنهم توصلوا أيضاً الى ان ذلك الداء لم يزل في مرحلة البدايات ، وبعد الاستقصاء تبين لهم انه ورث ذلك الداء عن والدته « رحمة » المنحدرة من أسرة عرف أفرادها بمعاناتهم المزمنة من ذلك الداء ! ولقد أدى وجود السكري في

بدن حامد الى اطالة مدة اقامته في المستشفى ، حيث اتسعت جروحه ، ولولا تدارك الاطباء الأمر ، ومعالجاتهم السريعة المكثفة لتلك القروح ، لحفرت أخاديدها في لحمه ! هذا ما قاله الأطباء حينما اعترفوا دونما حرج ؛ بأن جهودهم تلك ؛ ما كان لها ان تنجح لو ان السكري بلغ مرحلة الاستفحال في بدن حامد .

(٥)

عندما سمح لأقاربه بدخول غرفته ، تدافعوا حول سريره تسبقهم عبارات التمني ، وعبرات الحزن ، أما والدته البيضاء البشرة « رحمة » فَتَلَمَّسَتْ خده الأسمر متوسلة ، وسط الترقب الصامت لزوجته واخوته ، واذ صحا من غيبوبته القصيرة ، استعرض وجوه زائريه عبر شقي جفنيه المسترخيين ، ثم استفسر بصوت خافت رخو عن والده ، مما قلب فرحة أهله بصحوته ؛ الى حزن جديد مثقل بالتأثر والبكاء ، وبدلاً من أن تشرح بهجة صحوته ملامحهم المنهكة ، احمرت اجفانهم ، وحدرت دموعهم ! وشاعت الحكاية بعدها في الوادي ، وتضخمت على السنة السكان ، فامتدحوا حامد الذي لم تسفر صحوته أمام أهله إلا عن عبارة واحدة ، نطقها قبل ان يعود الى غيبوبته : « أصحيح ان والدي ، مات ؟ »

وعلى الرغم من أنه لم يقل سوى تلك العبارة حينئذ ، إلا ان مبالغات عديدة رافقت انتقال الحكاية في الوادي ، وَرُوِيَ الكثير عن هلوسات غيبوبته ، وقيل الكثير على لسان هذا « الابن البار » ، وتحول الحديث في الوادي عن فاجعة وفاة « ابو بدر » ، الى حكاية رقيقة بطلها حامد ابو بركة ! ومما أسهم في انبات تلك الحكاية وإنمائها ، ما عرف عن حامد من تَعَقُّل لم تثنه طفرة بلوغه العشرين من عمره ، وعلى العكس مما عرف عن الشبان في تلك السن من نزق وطيش ، فقد ازداد محبة وطاعة لوالده الذي زوّجه من ابنة عمه « عائشة » عند

بلوغه عامه الثاني والعشرين ، كما خاطبه بـ « أبو سلمان » حال استقباله مولوده الأول « سلمان » ! لكن محبة « أبو بدر » لابنه حامد ، لم تكن السبب الوحيد الذي دعاه الى تزويجه المبكر له ، فبالإضافة الى ذلك ؛ أحس أبو بدر باقتراب نهايته ، وأراد التحرر من آثام آخر عازب في بيته . ولقد أصاب في إحساسه ذاك ، إذ لم يمض سوى ثمانية أعوام على زواج ابنه ، حتى استلّه الموت من قمة مجده ، أما حامد « أبو سلمان » ، فتمكن بتعاونه الطوعي مع أطباء المستشفى ، من استعادة صحته خلال خمسة عشر يوماً قرر على إثرها التوقف عن قيادة السيارات ، إلى الأبد !

(٦)

حينما عاد أبو سلمان من المستشفى محاطاً بإخوته وأقاربه ، اضطر إلى التزام بيته سبعة أيام متتالية من أجل استقبال المهنئين بسلامته ، ثم تشاغل بزيارة قبر والده في أعالي الجبل الشمالي .

كان يمضي الساعات عند قبر والده وحيداً مستغرقاً في رؤى مشبعة بالموت وعذابات القبر والآخرة ! ويتخيل والده ، فيراه بعينيه العسليتين ، وأنفه المعقوف ، ولحيته الرصاصية ، ورقبته الهرمة ، وعباءته السوداء : يتخيله داخل القبر ، يستمع الى ردوده على أسئلة ملائكة ذلك البرزخ ، ثم يمسّد بيده تراب القبر باكياً ليس فقط من أجل والده ، إنما تحسباً لموته هو ، ولِلَحْظَةِ مثوله في برزخ القبر !

لقد تحول انتظار أبو سلمان لتلك اللحظة إلى تَفَكُّرٍ في « أمر هذه الحياة الفانية » و« قيمة الانسان الذي لا يساوي بصقة » و« التكالب الساذج على أمور الحياة الدنيا » كان يرزح تحت تأثير جرعات خفية من قلق اقتراب نهايته التي شاهدها بعينيه لحظة اصطدام سيارته بالشاحنة ! كما رأى أثناء نومه الكثير من أحلام القبور وعذاباتها ، بل كثيراً ما استيقظ من نومه المتقطع صارخاً

« عفوك يا رب » و« الخلاص يا الله » وكثيراً ما أفاقت زوجته « ام سلمان » على هذيان صحوه ونومه المبلل بالعرق ، وشَكَتْ الأمر إلى إخوته وإلى والديها ، فنصحوها بضرورة الصبر والمداراة ، لأن ما رآه الرجل لم يكن بسيطاً ، وأن لكل حادث ذيولاً قد تطول وقد تقصر ، لكنها لا تدوم !

لقد نحل جسم أبو سلمان وشحب أثناء مروره بأزمته تلك ، وطريق المقبرة تحولت الى طيف صراط صاعد عليه اجتيازه كل يوم دون الالتفات الى تفاصيل اليمين أو اليسار ، أو إلى البيوت المتفرقة على جانبي الوادي ، كما أوصلته حالته تلك ، إلى التفكير بحل يخلصه من كابوس حياته : فكر بالانتحار ! لكنه عدل عن هذه الفكرة حال تَذَكُّره للنصوص الدينية التي تساوي بين آخرة الكافر وبين آخرة المنتحر ، والتي ستكون بلا شك : نار جهنّم . وتوصل في النهاية إلى أن التعبّد الزائد ، هو خير وسيلة للخلاص والاطمئنان إلى الآخرة ، وكان من الممكن أن يطول شوطه هذا ، إلّا أنَّ اخوته وزوجاتهم وأطفالهم ، أعادوه إلى تفاصيل حيواتهم الزاخرة بأحاديث العمل ، والجندية ، وشقاوات الأطفال ، والمأكولات ، وأنواع المواشي ، وخلافات الزوجات ، والطقس ، وأطماع السكان الجدد في الوادي . . .

على ان أكثر ما أعاده الى صوابه ، تلك الغربة التي أحسها في اثناء تعامله مع طفليه (سلمان وجبر) ، فقد قرأ في عيونهما الكثير من معاني الحذر والارتياب ، كما تحوّل تَعَلُّقهما اليومي برقبته وبذراعيه ، إلى نفور منه ، وكلما احتضن واحداً منهما ، تملّص منه مثلما يتملّص العصفور من قبضة صياده ! وحتى زوجته « ام سلمان » ذات العينين الواسعتين ، والشفة اللمياء ، فقد ابتعدت على الرغم من التصاقها الجسمي به !

أبو سلمان أدرك كل هذه التغيرات ، فقد تَيقَّظَتْ أحاسيسه وانشحذت إلى حد الرهافة ؛ وإدراك الأشياء دون تلمُّسها أو حتى رؤيتها ، لذا أفاق من ذهول صدمته حينما أمعن التفكير بطفليه ، وبزوجته ، وبمستقبل وجوده في الوادي ، وبهذه الحياة التي تتطلب الانتباه واليقظة ! وحين كف عن زيارة

المقبرة ، اقترب ببطء من والدته ، وزوجته ، وطفليه ، وإخوته ، وتوصل ببطء أيضاً ، إلى أنَّ ما فات ، مات ! وأن عليه الاستعداد للاضطلاع بمركز والده الذي شغر بعد وفاته ، كما فكر في أمر أراضي الوادي ، وفي المنعة اللازمة لحمايتها ، فحلق شعر ذقنه ، وارتدى ثياب والده ، فأثار دهشة طفليه وزوجته ، ثم بدأ بالتخطيط لأيامه المقبلة في الوادي .

(٧)

لا صحة لما قاله أبو بدر في نهايات حياته ، من أن ابنه أبو سلمان يشبهه في كل شيء ! لا صحة ايضاً لما أكدته أرملته « ام بدر » حين رأت ابنها بملابس والده ، فقد قالت بلهجة قاطعة ، مسحوبة من تمسكها الغامض بآثار زوجها : حامد مثل أبوه ، مخلق منطق !

أم بدر ، الضئيلة الجسم ، البيضاء البشرة ، السوداء الثوب ، الهزيلة الجركة ، قالت كل هذا ! هل أرادت بعث زوجها من جديد ؟ لِمَ لَمْ تقل هذه العبارة قبل وفاته ؟ ثم لماذا شَكَّكَتْ « أم سلمان » بوجود ذلك الشبه بين زوجها وبين والده ؟

الحقيقة تقول ، ان هنالك تشابهاً خَلْقِيّاً بين أبو بدر وبين نجله ! فأبو سلمان رجل مديد القامة ، غير نحيف ولا سمين ، كوالده الذي احتفظ بهذه الصفات طوال عمره ، وهو أيضاً أسمر البشرة أسود الشعر كوالده في شبابه ! الاختلاف بين الرجلين وليد الاحداث ، فأنف أبو سلمان مشقوق قليلاً بسبب حادثة اصطدام سيارته بالشاحنة ، وهذا بالطبع ، لم يدخل في حسابات المرأتين أثناء صراعهما الخفي ، غير المفهوم ، حول الحياة !

اختلف أبو سلمان عن والده في طباعه وفي علاقته بسكان الوادي ، فقد قام بزيارات عديدة إلى بيوتهم ، واستضافهم ، وفض نزاعاتهم حول الحدود غير الواضحة بين بيوتهم ، كما طرق أبواباً جديدة أسهمت في ترسيخ مكانته بين

السكان ، فاستضاف رئيس مخفر الحي الشرقي ، وأقام على قاع الوادي بمساعدة عدد من السكان ، جسرين حديديين صغيرين ليتم عبورهما في أيام الشتاء ؛ حيث يقطع السيل سبل المرور بين الجانبين الشمالي والجنوبي . هل أراد ابو سلمان باختلافه عن والده ، الهرب من هاجس التشابه والموت ؟ هل أراد النجاة كزوجته أم سلمان ، ببحثه عن الاختلاف ؟

(٨)

ربما استمد أبو سلمان من الموت ، اندفاعة مكَّنتْهُ من اجتياز شواسع المسافات في أزمان قياسية ! فإضافةً إلى انجازاته السابقة ، قام بعد عامين من وفاة والده ، بتخصيص البقعة الواسعة المحيطة بقبره من اجل دفن أموات الوادي ، وكان لهذا السخاء أثر كبير في نفوس السكان ، خصوصاً عندما تزامنت تلك الخطوة ، ودعوة العشاء التي وجهها إلى السكان .

لقد اشترك كل رجال الوادي في تناول طعام العشاء في منزل « أبو سلمان » ، وبلغ عددهم حينئذ واحداً وستين رجلاً ، توزعوا وأبناؤهم داخل أسوار ذلك المنزل : في الديوان الواسع المضلع ، وفي الغرفتين المتجاورتين . اما النسوة فتجمعن في المطبخ المستطيل ، وفي المساحة المربعة وراء الغرفتين ، حيث ساعدن « أم سلمان » في طهو اللحوم على نيران المواقد الحجرية ، وبالَغْنَ في غلي حساء اللبن المجمد تنفيذاً لتعليمات أبو سلمان الذي أمر بذبح خمسٍ من قطيع أغنامه منذ الصباح ، وأوعز الى زوجته بتنظيف ديوانه المضلع ، والدرجات الخمس المؤدية اليه ، والمدخل الواسع على بعد ثلاثين خطوة من الديوان ، غير أنه لم يجد مبرراً لتذكير زوجته بضرورة وضع رؤوس الذبائح على نقفات الأرز في الأطباق المستديرة ، ذلك أنها تدرك بديهيات التقاليد والعادات السائدة ، كما تفهم مغزى إبراز تلك الرؤوس في الولائم والمناسبات ، وحتى في اللحظة التي حارت خلالها « ام سلمان » في شيٍّ تلك الرؤوس أم الاكتفاء بسلقها ، فقد كان الدافع وراء تلك الحيرة خوفها من

حدوث خطأ ما ، قد يؤدي إلى حرق تلك الرؤوس أثناء شيّها ، لكن أبو سلمان حسم تلك الحيرة حينما دخل باحة الطهو مستطلعاً سير الأمور ، فقد قال بعد استنشاقه رائحة اللحوم في أبخرة الحساء ، بأنه يفضل الطريق الأسلم المتمثل في الاكتفاء بسلق تلك الرؤوس دون شيّها .

(٩)

تصدّر ابو سلمان جلسة العشاء بمسبحته السوداء الطويلة ، وعباءته السوداء المذهبة الأطراف ، وحطته البيضاء ، « وسلحلكه » المرصع بالرصاص ، ومسدسه المحشو الذي اعتاد السكان رؤيته مثلما اعتادوا رؤية الأسوار العالية المُقامة حول بيته ! يدرك السكان صلابة تلك الأسوار وصلابة ساكنها الذي لا يظهر أمامهم إلا ومسدسه « الطاحونة » على جنبه ، كأنما هو جزء من هيئته المهيبة ! لكن ذلك المسدس لم يكن مجرد رمز ساكن لوجود « أبو سلمان » ، إنما كان محشواً بالحركة والحياة والموت ، وكثيراً ما عمد إلى إطلاق الرصاص في مناسباته الأسرية والخاصة ، مثل زفاف أخته الأولى الى ابن عمها ، ثم أخته الثانية ، فالثالثة ، ومثل ختان ولديه سلمان وجبر ! لا بد من إطلاق الرصاص في مناسبات كهذه ، فالرصاص جزء من تقاليد أفراحه ومسرات روحه ! كان يجد في الضغط على زناد مسدسه متعة خاصة ، وكان يرى المردود الفوري لدوي رصاصاته ، يراه في تعابير الجزع التي تملأ وجوه الحاضرين من السكان ، وفي الانكماش الذي يصيب أجسامهم وربما أرواحهم !

(١٠)

أبو سلمان ، على الرغم من صغر سنه الذي لم يتجاوز الثانية والثلاثين حينئذ ، إلّا أنه بدا أمام المدعوين هادىء الملامح ، عميق العبارة ، مقنعاً !

لكن ما أزعجه في تلك الجلسة ، أنه اضطر الى بذل المزيد من الجهد ، من أجل المحافظة على استقامة صوته الذي أصابه الانثناء بسبب ارتفاع السكر في جسمه ، كما اضطر للسبب ذاته ، إلى إفساح المجال للكثيرين من رجال الوادي للتحدث في تلك الجلسة ، ويبدو أن أولئك الرجال لم يتنبهوا إلى تهالكه الجسمي حينئذ ، لذا استرسلوا في أحاديثهم عن مستقبل الوادي ، وتوقعاتهم لازدياد عدد سكانه ، وإذ استعاد صوته ونفسه ، فجر قذيفتيه اللتين أعدهما بإمعان ، إذْ فاجأ الحضور بتبرعه بقطعة الأرض المحيطة بقبر والده وقبر بهاج الغجرية ، من أجل دفن أموات الوادي ، وقدر مساحة تلك القطعة ـ المقبرة ـ الواقعة في أعالي الجبل الشمالي بثلاثة دونمات ، أما قذيفته الثانية فتمثلت في تبرعه بقطعة أخرى من أرض الوادي من أجل اقامة مسجد عليها ! وكان لكلماته الراسخة أثر كبير في نفوس الحاضرين الذين أبدوا استعدادهم للمساهمة في إنجاح فكرة بناء المسجد ، وقالوا ان أبو سلمان أصاب في فكرته تلك ، ذلك أنهم يذهبون إلى مساجد الحي الشرقي والأحياء الأخرى من أجل أداء بعض الصلوات ، ويتكبدون مشقة السير على أقدامهم في وعر الطرقات ، فلماذا لا يكون في الوادي مسجد يُصلّون فيه جميعاً ؟ هذا ما فكر به الرجال والفتية وحتى الصبية الذين رافقوا آباءهم في تلك الليلة .

لقيت دعوة أبو سلمان أصداء واستجابات جارفة خلال اليومين التاليين ، وعلى الرغم من بساطة المبالغ التي تبرع السكان بها من أجل بناء المسجد ، إلاّ أنهم جميعاً ساهموا في الاستجابة إلى تلك الدعوة المفاجئة ، كما شاركوا أيضاً في استقبال الموظفين الذين انتُدبوا للكشف على موقع المسجد ، وطريقة بنائه ، والامكانات المالية المتاحة ، غير أن المبلغ الذي تسلمه ابو سلمان من الجهات الرسمية مساهمة منها في بناء المسجد ، لم يكن كافياً ، ولولا تطوع عدد من الموسرين في الوادي وخارجه ، لما أمكن صقل جدرانه بالإسمنت ، ولما أمكن صبغه بالجير الأبيض ، أو فرشه بالحصر ، أو تزويده بالأباريق المعدنية ، والصنابير النحاسية ، والخزان الاسمنتي .

(١١)

تمكن أبو سلمان بحنكته من فصل الأمور عن بعضها « هذا لي ، وذاك لك » كان يقول ، ويستمر في تقاضي أثمان الاراضي من القادمين الجدد الى الوادي ، لكن واحداً من أولئك السكان ، طالبه بالتوقيع على ورقة بيع فيما بينهما ، لكي لا يعتدي أحد على الأرض التي دفع ثمنها له ، ولكي تثبت ملكيته المعنوية للأرض بعد أن اقتنع بتعذُّر إمكانية تسجيلها باسمه ، وبعد نقاش طويل استخدم الرجل خلاله كل ما أوتي من حنكة وقدرة على الاقناع ، وافق أبو سلمان على منحه تلك الورقة التي سميت (حجة البيع) ، لكن توقيعه المتعرّج على تلك الورقة ، أوقعه في مأزق مواجهة السكان الاخرين الذين طلبوا أوراقاً مماثلة ، وحينما رفض ، لجأوا إلى تنبيه كل القادمين الجدد ، إلى ضرورة الحصول على تلك الأوراق حين الدفع ، والصحيح أن سكان الوادي ، كانوا توصلوا منذ زمن ، إلى أنه لا يملك الأرض التي يبيعها لهم ، وكانوا يدفعون له فقط من أجل إسكاته ، والحصول على مباركته وموافقته على إقامتهم في الوادي ، وقد بلغ عدد البيوت المقامة في الوادي حتى لحظة إتمام بناء المسجد ، اثنين وخمسين بيتاً ، توزعت على جانبي الوادي كتجمعات يضم كل واحد منها ثلاثة بيوت أو أكثر ، وعلى الرغم من صغر المساحات التي اشتراها اولئك السكان من أبو سلمان ؛ إلا أنهم تمكنوا من اقامة بيوت متكاملة عليها !

في البداية كانوا يختارون الأماكن التي تعجبهم ، ثم يحيطونها بسلاسل من الحجارة المتقاربة كدليل على امتلاكهم لها ، ثم يسترون ممارساتهم اليومية الليلية للحياة بالبطانيات السوداء ، وقطع « الشادر » التي يربطون أطرافها بالصخور وسيقان الاشجار المقطوعة ! لكن استيلاء السكان على سيقان السرو ، أدى الى تضاؤل الأجمة عند المنعطف الغربي ، ثم تلاشيها ، ثم خلوّها وانكشاف اسرارها المتمثلة في وجود بقايا جرار فخارية فارغة في سبع من الثقوب الصخرية ، وينبوع صغير يسرب المياه من كعب الجبل ، ثم بقايا

عظام حيوانية كشفت لأبو سلمان ؛ أسرار اختفاء تسع من قطيع أغنامه عقب وفاة والده !

(١٢)

كان السكان الجدد يتوافدون إلى الوادي من كل الجهات ، وكلما أقامت في الوادي أسرة جديدة ، ازدادت ثروة أبو سلمان لتتعاظم قدرته ولتمتد ، كل السكان دفعوا له واستراحوا ، حتى أقاربه الذين استنكروا حين حضورهم الى الوادي مطالبته لهم بأثمان الأراضي ، حتى اولئك ، اضطروا في النهاية الى الدفع تحت وطأة المطالبة الصارمة ، والحضور الكثيف لأبو سلمان الذي أكثر من استضافاته لرئيس المخفر وزملائه في تلك الأيام ، وحقق الكثير من الإنجازات للوادي ، كبناء المسجد ، والجسرين الحديديين ، والحصول على موافقات الجهات الرسمية من أجل تمديد شبكات المياه إلى البيوت ، ثم تمديد تلك الشبكات خلال فترة قياسية ، ثم مساعدة السكان في الحصول على رخص افتتاح الدكاكين والمحلات التجارية على الرغم من عدم وجود شهادات تسجيل للأراضي التي اقيمت عليها تلك المتاجر .

(١٣)

ما ان دفع السكان الجدد أثمان الأراضي ، حتى بدأوا ببناء بيوتهم : حفروا الأرض ، وقلبوها ، وفتتوا الصخور ، واشتروا قوالب اللبن ، والاسمنت ، والرمل الأبيض ، وفي النهاية أقاموا بيوتهم الجديدة !
سبلو الفأر ، أصيب بالذهول حينما رأى أولئك « الفلاحين » وهم يحتالون على صخور الصوان ، ويفتتونها بأساليبهم الشيطانية ! كانوا يشعلون اطارات الكاوتشوك فوق تلك الصخور ، ثم يجلسون بعيداً عنها ، يدخنون

السجائر ، يشربون الشاي ، يتحادثون حتى تتصدع الصخور بفعل حرارة النار ، تماماً كالزجاج ! تلك كانت واحدة من غرائب « الفلاحين » !

(١٤)

منذ ان بدأ الناس بالتدفق على الوادي ، والذهول لا يفارق وجه سبلو الفأر : كيف فعلوا هذا ؟ كيف حطّموا تلك الصخور ؟ كيف بنوا ذلك الجدار العجيب ؟ كيف دحرجوا تلك الصخرة الهائلة ، لماذا قضوا على أجمة السرو ؟ من أين أتوا ؟

* * *

الفجـــر

(١)

لحضور الغجر الى الوادي وقع الشتاء ، وطقوس الغمام .
جاؤوا على ظهور خيولهم وحميرهم ، وحطّوا في مساحة من الأرض ملاصقة لبيت سبلو الفأر . لكن تفكيرهم الجماعي المتشابك ، اتخذ شكلاً آخر حينما طالبهم أبو سلمان بأثمان الأراضي التي يريدون ! فبدلاً من الاكتفاء ـ كعادتهم ـ بالتفحّص الجماعي للمنطقة دون تحديد للملكية الخاصة ، أخذوا يفكرون باستقلالهم عن بعضهم ، وتوصلوا إلى ضرورة تطليق حياة الارتحال المستمر ! كما اختاروا خلال اجتماع كبارهم في بيت سبلو الفأر ، البقعة الشرقية الشمالية الملاصقة لبيته ، بحيث تكون تلك البقعة خاصة بالغجر دون غيرهم ، وبذا توصلوا إلى حل وسط بين طبيعة تفكيرهم ، وبين متطلبات الاستقرار والعيش في الوادي . في اليوم التالي ، استطاعوا التغلب على آلام فراقهم لخيولهم ، فباعوها في أسواق الحلال ، لأنها لم تعد لازمة لهم بعد قرار الاستقرار ، وحينما حددوا القطع التي يريدونها من الأرض دفعوا أثمانها لأبو سلمان ، فاستغرب صغر تلك القطع ، وفكر فيما يمكن بناؤه من الغرف في تلك الامتار القليلة من الأرض ، إلا أنه أخيراً هز كتفيه غير عابىء بالكيفية التي سيتم فيها بناء بيوت الغجر وخرابيشهم .

(٢)

أقام الغجر خرابيشهم وبيوتهم المتلاصقة في البقعة المحيطة ببيت

سبلو ، وسقفوها بألواح الخشب والزنك والشادر ، أما « كياز » فتمكن من سقف بيته بالاسمنت المسلح بعد اتفاقه وزوجته « سمار » على بيع أساورها الذهبية ، وعقدها ذي الخرزة الفيروزية ، وخواتمها الفضية ، وكل ما تبقى لديها من المصاغ الذي اشتراه لها يوم قرر الابتراد بها من لهيب فشله مع بهاج ! كان كياز في صباه قد طلب يد بهاج بإلحاح ، وحينما رفضته عاود المحاولة ثانية وثالثة . . . حتى تحولت محاولاته الى إصرار غريب على الظفر بهـا ، وصار يرقبها عبر خيمة والدتها ، ويعترضها أثناء ذهابها لانتشال المياه من البئر خلف خيام الرحيل ، غير أن والدتها الدّناء شَكَتْهُ إلى والده وأقاربه مبيّنة لهم بأن ابنتها تحب سبلو عازف البزق ! ثم قربت بالاتفاق مع سبلو موعد الزفاف ، مما زاد من كآبة كياز وغيظه .

(٣)

كان كياز شاباً وفارساً قوي البنية قاسي العظام والعضلات . يعرف الغجر هذه الحقيقة التي تظل ماثلة في أذهانهم حتى لحظة نشوب القتال فيما بينهم ، ففي تلك اللحظة تختفي كل الاعتبارات أمام اندفاعتهم وتحطيمهم لكل ما هو حولهم !

لقد أحب بهاج إلى حد لم يستطع معه تخيل فكرة رفضها له ، أو زفافها الى رجل غيره ، لكنها لم تبادله ذلك الاحساس الحارق ، كما لم تجد مبرراً لإبداء أسباب رفضها له كلما وجه الغجر السؤال ، كانت تكتفي بعنادها الصامت القاطع ، وكـانت أمها تشيـع الأسباب ! وعنـدما عجـز عن احتمـال نيـران صـدره وأعماقه ، قرر الابتراد بالزواج من « سمار » ، أو ربما قرر الانتقام لنفسـه بالاقدام على تلك الخطوة التي أعانته ، بشكل ما ، على تناسي بهاج ! ولكي يؤكد للغجر قدرته على النسيان ، بالغ في شراء الأساور والخـواتم والعقود الذهبية لعروسه البديلة « سمار » كما بالغ في إظهار ابتهاجه الى حد تمديد أيام

عرسه لتصبح عشرة أيام بلياليها ، بدلاً من الأيام السبعة المعتادة ، غير أن هذا لم ينتزع من خياله صورة بهاج ، بل ان مبالغاته تلك ، أسهمت في ترسيخ احتلالها لارتعاشات روحه ، وخلجات فؤاده ! كيف استطاع تعطيل تيار محبته لبهاج ؟ كيف استطاع احتمال الأعوام الطويلة التي انقضت على رحيلها الأبدي عن خيام الغجر ؟

(٤)

كانت سمار مستعدة لفعل أي شيء في سبيل إيجاد بيت تستقر فيه ، لذا ألحّت على زوجها باقناع الغجر من جديد ، بفكرة الرحيل الى الوادي ، كما اغتنمت فرصة اقتلاع الرياح لخيامهم وخرابيشهم في إحدى الليالي الممطرة ، وأعلدت إلى أذهانهم مزايا البيوت الراسخة المختلفة عن خيامهم الممزقة ، وخرابيشهم المحطمة ، وساندها الكثيرون والكثيرات فيما ذهبت اليه ، مما اضطر كياز الى تبني الفكرة ، قبل أن يسبقه قطار القرار الذي أخذت معالمه تتضح في أذهان الغجر وعباراتهم « لا بد من الرحيل اذن » قال ثم تبنّى من جديد فكرة الرحيل ، لكن تلك الفكرة أوقعته في مأزق لملمة آراء الغجر ، ومأزق الوصول الى الوادي ! وحتى بعد أن تمكن من الوصول بالغجر الى نقطة الاتفاق على موعد الرحيل ، فإنه لم يستطع تجنب المتاعب والأمراض المصاحبة لرحلتهم المتعبة الى الوادي ، وكان كلما تذكر أن لزوجته دوراً كبيراً في ذلك الرحيل ، نظر اليها بسخط مبعثه الارهاق الشديد الذي أصاب أجسام الغجر ووجوههم في طريقهم الى الوادي ، وحتى حصانه الأشهب ، فقد ناء بأحماله ، مما اضطره الى تخفيف تلك الأحمال بأن علق على كتفيه وساعديه المكشوفين ، عدداً من أدواته الحديدية التي يستخدمها في عمله ، فازداد إرهاقه ، وامتد سخطه ليشمل ابنه الفتى « عرقي » ، وحينما توقف الغجر في آخر استراحة لهم قبيل الوصول الى الوادي ، خلع حزامه العريض وانهال

به ضرباً على ظهر ابنه « عرقي » ! فجأة خلع حزامه ، وفجأة صاح عرقي ! واذ حاولت سمار الدفاع عن ابنها السمين ، لطمها بقسوة ، وشتمها بالغجرية « أهكذا تربين ابنك يا خالعة ؟ لماذا لا يساعدني في حمل العدة ؟ أهو صغير ؟ » ولولا تدخل الغجر الآخرين ، لاستمر في صفع زوجته وابنه الفتى .

ربما أراد كياز بنوبته تلك مناكفة ذاكرته التي استيقظت باقترابه من الوادي ، وربما أراد ترجمة احساسه الساخط ، بالدور الذي لعبته سمار في إبعاد صورة بهاج من مخيلته ، لاسيما وأنه اقترب من الوادي الذي يضم رفاتها ، وربما أراد معاقبة ابنه البكر « عرقي » على دوره في إقصاء ما تبقى من بريق بهاج التي ، تباعدت وامّحت في غمرة الهطول المتصل ، لتفاصيل الحياة الجديدة حينئذ : حياة الزواج .

(٥)

حينما توقف الغجر بخيولهم وحميرهم للارتواء من النبع شرقي الوادي ، بدا مشهدهم لسكان الحي الشمالي والحي الشرقي ، مثل قطيع هائل من الماعز الأسود المتقارب ، وإذ تبينوهم ، تقوّلوا فيما بينهم « الغجر يريدون احتلال الوادي ! »

سكان الوادي كلهم ، يعرفون بأن أهالي الحي الشمالي والحي الشرقي ، هم الذين أطلقوا على الوادي منذ ذلك الحين اسم « وادي الغجر » ، وهم حتى في أثناء امتعاضهم من هذه التسمية ، فإنهم لا ينسون ما « جَنَتْهُ » عليهم سخرية أولئك الناس !

(٦)

بحضور الغجر إلى الوادي ، ظهرت أمور كثيرة لم يكن للوادي عهد

بها ، فقد أطلق الغجر تسمية « الفلاحين » على كل السكان من غير الغجر ، وبهذا انقسم سكان الوادي الى فريقين : فلّاحون وغجر ! وكثيراً ما اقتتل أبناء الغجر وأبناء الفلاحين ، كأنما ليذكّروا بوجود ذلك الانقسام العرقي ، بل أنزوى الغجر في بداية اقامتهم في الوادي ، وقصروا تعاملهم فيما بينهم ، ونطقوا بلغتهم الغجرية ! وعلى الرغم من أن عدد الغجر حينئذ اقترب من عدد الفلاحين ، إلا أنهم أحسوا بأقليتهم في وسط كله من غير الغجر ! كما أحسوا بنوع من العجز والضيق تجاه اولئك الفلاحين الذين يمتلكون الأرض والدكاكين وكل شيء ! أكثر من هذا أن بعضهم لم يطيقوا الحياة كالفلاحين ، فغادروا الوادي عائدين من حيث أتوا ، أما الذين بقوا في الوادي ، ففكّروا في مغادرته والعودة الى حياة الارتحال التي تنأى بهم عن هذا الاحساس الشنيع ، غير أن كبارهم أشاروا عليهم بالبقاء مستشهدين بطيبة الفلاحين ، سائلين سبلو عما إذا ضايقه الفلاحون خلال سنوات إقامته الطويلة في الوادي ، وحينما نفى ، قال أحد المسنين الذين أتعبهم الرحيل « العيب فينا نحن الغجر ، نحن الذين لا نحب الفلاحين ، وإلّا لماذا لا نتحدث معهم ؟ لماذا لا نجلس وإياهم ؟ لماذا لا نزورهم ونتعرف اليهم ؟ » وتدخل مسنّ آخر ليعالج الموضوع من زاوية اخرى ، فقال « ثم اننا بعنا خيولنا وحميرنا ، فكيف سنعيش بدونها اذا رحلنا عن الوادي ؟ »

(٧)

كانت نقاشات الغجر الصاخبة ، تتم بلغة لا يفهمها سواهم ، لذا لم يتحرجوا من التحدث في أدق أسرارهم ، بل أحسوا بعد أشهر من اقامتهم في الوادي ، بتميزهم عن غيرهم ، ورددوا مراراً تلك العبارة التي طالما رددها الفلاحون باعتداد « الفلاح فلاح ، والغجري غجري » ! كلهم نطقوا بهذه العبارة ولحنوها حسب أهوائهم إلا سبلو المختلف . .

(٨)

سبلو الفأر أحس باختلافه دون ان يتساءل عما اذا كان هذا الاحساس جزءاً من جبلته ، أم أن لكل كائن عالمه المختلف الخاص ؟! كان يحس بتباعده عن الوادي على الرغم من التصاقه به ! منذ ان قتلت بهاج ، وهو يتناءى ويندّ في عالم مسكون بالمخاوف والتساؤلات ، ويستمع إلى الأحاديث الغريبة التي تبثها روحه عبر دهاليز ذاكرته ، فيحاول وقف نبض الأيام ، يحاول الرجوع بها إلى لحظة واحدة متماسكة ! يحاول الإمساك بنغمات بزقه الهاربة ، لكنه لا يستطيع ، لا يستطيع الخروج من حصار حاضره ، وربما ماضيه ! وحتى ابنته هاجار ، لم يعد قادراً على الإمساك بخيوط علاقته بها ، ذلك انها كبرت ، واكتشفت صباها في عيون الآخرين ، فبزّت عمرها ، وودّعت طفولتها ! لكن أحزان هاجار تجبّلت بالألم وتكاثفت ، « فالفلاحات » نبذنها بسبب من غجريتها ، وشبان الفلاحين تحرشوا بها مراراً ، وأسمعوها تعليقاتهم والفاظهم غير الودودة ، والوقت أضحى ثقيلاً ، فضاق الوادي حتى غدا مجرد رجل ساهم شارد الذهن ملفّع بالعبوس غائب ، وغرفة مسقوفة بالشادر ، تحمل راية بيضاء أثبتها سبلو بعد مقتل زوجته ، إقصاءً لشرور الحياة !

هو ذا سبلو الفأر . وغلاف الحزن الذي خلّفته بهاج ، كان متيناً إلى حد الصمود على امتداد السنين ، لكنه وجد في أحزانه وفي عزلته حياته الخاصة ، ونظرته المختلفة الى الوادي ، ففي حين كان الوادي في حسابات أبو سلمان ، مصدر وجود وثراء تكدّس عبر السنين ، فإنه رأى فيه مكاناً يضم رفات زوجته التي لو لم تدفن فيه لهجره منذ أعوام !

كان الوادي ممراً للرياح المحملة بالحروف المبهمة ، وبالصفير الكوني الذي يذكّره أبداً بنبوءة العجوز ! سبلو الفأر رأى بأن الوادي يخوض غمار حرب خفية ضارية مع الرياح بإرغامه لها على السير الصارم في مجراه العميق ، ثم الانعطاف عبر الصخور المشرئبة نحو الشرق ! وسبلو يسمع نداءات الريح

واستغاثاتها ! يفهم حروفها التي تبثّها حال وقوعها في مصيدة الفراغ الهائل في الوادي ، فتزداد كآبته ، لاسيما حين تصطدم الريح بجدران بيته ، محدثة باصطدامها صوتاً أشبه بلفظ حرفين متكررين : ششرررر ! هنا يتذكر نبوءة العجوز ، يتخيل نهايته ، فيعود إلى ذاته المنطوية على سنان ذلك الاحتمال المؤدي إلى امتداد حزنه ، ونحول جسمه .

لا تسمع الآذان ما يجول في النفس ! لذا يعتقد السكان بأن موت بهاج هو السبب الوحيد في أحزان سبلو الممتدة ! ويعزّزون اعتقادهم هذا ، برؤيتهم شبه اليومية له ، أثناء توجهه إلى قبر زوجته ! وهم حتى في تعاطفهم معه ، فإنما يتعاطفون وحالة الوحدة التي يعيشها ذلك الرجل !

كان سبلو يعيش وفقاً لما تمليه ذاكرته العميقة ، وخياله الشاسع ، أما ما يقوله الآخرون ، فهذا ما لا مبرر للتفكير به ، ولقد قام ببناء أربعة جدران حجرية ببوابة حديدية حول قبر بهاج ، وزرع ثلاثاً من أشجار الكرمة التي كبرت بسرعة ، فأورفت ظلالها فوق ذلك الجدث ، وأثمرت دون أن يجرؤ أيّ من صبية الوادي ، أو فتيته ، على قطف عنقود واحد من تلك الأشجار ! ذلك ان الجذور ممتدة في الأرض ، والأرض قبر ، والثّمار مستمدة من رفات بهاج الميتة ! من يأكل من تلك الثمار تحل عليه لعنة الموتى ! تلك حكاية الصغار ، وحتى الكبار فقد آثروا الامتناع عن أكل ذلك العنب ! سبلو هو الوحيد الذي يجرؤ على ذلك الفعل ، أما ابنته هاجار فأخذت بتلك الحكاية ، ويوم تذوّقت ـ بإلحاح من والدها ـ حبة واحدة من ذلك العنب ، أحست بغرابة طعمها ، وبصقتها على الفور ، بل ظلت بعدها تبصق على الأرض الى أن فاءت كل ما في أحشائها !

(٩)

لم يعد سبلو قادراً على بث الفرحة في الأعراس ! ورنة الفرح المصاحبة

لعزفه ، تحولت إلى مسحة حزينة يائسة كَدَّرَتْ محاولاته المستميتة لإضفاء شيء من المرح على نغمات بزقه ، وعلى تقاطيع وجهه المتقلصة ! حزن سبلو امتد إلى نغمات بزقه وقسمات وجهه ، وتنبه أصحاب الأعراس إلى الكآبة التي يُضْفيها وجوده على أفراحهم ، كما تطورت أعراس المدينة ، وبرز العديدون من العازفين ونافخي القربة والناي والمجوز ، فتراجع سبلو ، تَلَبَّكَ في معيشته بعد أن فقد قدرته على تمرير اقتحاماته للاعراس ، وحينما ارتحل الغجر الى الوادي ، ضاقت الحياة في وجهه وأعتمت ، فالتفت الى ابنته الصبية هاجار ، فرأى في عينيها كوىً من الفرج ، وردّاً صامتاً على حصار الحياة ، أو حصار الموت !

اختلافات

(١)

حينما استعرض أبو سلمان قامة ابنه الأكبر ، قال له بأن ازدياد عدد السكان في الوادي ، يدعو الى التفكير في انشاء مقهى تضم الشبان والرجال ، وتكون ملتقى لهم . قال له ، بأن أنسب الأماكن لإقامة تلك المقهى ، هي منطقة الشارع الشرقي حيث حركة السيارات الدائبة ، وتجمّع عربات الخضار ، قال له أيضاً « أنت الوحيد القادر على تسلم هذه المقهى » ثم استدرك قبل أن يستمع إلى إجابته « سأسلّمك ادارة المقهى ، أنت ستكون المشرف ، وسيعمل تحت إمرتك نادل أو اثنان ، مهمتك هي القبض والاشراف ، فما رأيك ؟ » وسلمان لا يرفض لوالده طلباً ، إنه مختلف عن شقيقه « جبر » الذي « لا يعجبه العجب ، ولا حتى الصيام في رجب » حسبما يقول والده . والحقيقة ان جبر اختلف عن شقيقه سلمان وعن والده أيضاً ، ففي حين غرق سلمان حتى أذنيه في تفاصيل حياته وحياة والده ، فإن جبر ظل متمسكاً بدروسه وبعالمه ، غير عابىء بأحلام شقيقه بالغنى ، أو أحلام والده بالجاه الذي استهلك أوقاته على الرغم من معضلته الصحية .

كان جبر يفسر ازدياد اهتمام والده بالوادي وبسكانه على أنها محاولات متأخرة لامتلاك قوة اخرى ، عوضاً عن قوته البدنية التي اخذت تنسحب من جسمه ، بعد أن استوطنه السكري . . . فشتان ما بين جبر وسلمان !

(٢)

عند حافة الشارع الشرقي ، وعلى مساحة من الأرض تزيد عن الأمتار

المئة المربعة ، أقيمت « مقهى أبو بركة » ذات البابين الجرارين والواجهة الزجاجية المقابلة لشمس الصباح . وهناك ، عند حافة الشارع الشرقي ، بدأ التحول الكبير في حياة الوادي ، وتنبه السكان الى أهمية ذلك الموقع ، وأخذوا يتنافسون على امتلاك الأراضي القريبة من « مقهى أبو بركة » حيث « المستقبل التجاري » حسبما رددوا في جلساتهم ، واغتبط ابو سلمان لا لموافقة المتنافسين على الأسعار الباهظة التي حددها لتلك الأراضي ، وإنما لذكائه ولقدرته على تسيير دفّة الحياة في الوادي ، بالطريقة التي يريد !

(٣)

في « مقهى ابو بركة » ، وجد شبان الوادي ورجاله متنفساً لهم ، ومكاناً يقضون فيه الساعات المعلّقة التي غالباً ما تؤدي الى ضيق أمهاتهم ونسائهم بهم ، لذا أخذوا يترددون على تلك المقهى بعد عودتهم من أعمالهم . الأصح أن اقدامهم اعتادت أن تقودهم إلى ذلك المكان المليء بالكراسي الخشبية المجدولة بحبال القش ، والطاولات المربعة الواطئة ، وورق اللعب المزركش ، وفناجين القهوة وأكواب الشاي ، و« النراجيل » المذهبة ، والدخان المتصاعد من السجائر ومن الرؤوس المعتمة !

أما المسنون ، فقد وجدوا أنفسهم بمرور الأيام ، أمام الحاح صباحي يدعوهم الى ضرورة التوجه الى المقهى ، والجلوس وراء الحاجز الزجاجي العريض في مواجهة شمس الصباح . والنادل اعتاد أيضاً ان يعد لهؤلاء المسنين فناجين القهوة دون ان يضطروا إلى طلبها !

ها إن المسنين يجلسون كل صباح في مواجهة الشمس ، يشربون قهوتهم ، يكررون احاديثهم ، يرقبون المارة والسيارات في الشارع الشرقي . المسنون لم يبتكروا نظام جلساتهم ، ولا وَضَعَهُ سلمان حينما باشر الإشراف على المقهى ، لكنهم وجدوا أنفسهم أسرى ذلك النظام ، وحتى الشبان فقد اعتادوا أيضاً

طلب ورق اللعب حال دخولهم المقهى ، ثم الجلوس حول طاولات محددة ، وترديد بعض الألفاظ التي ولدت في المقهى ، لتتحول الى جزء من ألعابهم ! هنالك وقت زائد ، يجب الإجهاز على هذا الوقت ، كيف ؟ لا أحد يسأل ، وهنا يكمن الاختلاف والتشابه : ففي حين يلجأ الشبان والرجال متوسطو الأعمار الى لعب الورق ، فإن معظم المسنين يبدأون جلساتهم بالأحاديث التي لا تنضب ! لعلهم يجترون أيامهم وأعوامهم الماضية ، ثم يبتلعونها تمسكاً بشبابهم الآفل ، أو هرباً من النهايات المبهمة التي تنتظرهم ؟! لكن احساساً واحداً يظل يجمعهم على الرغم من أنهم لا يصرّحون به أمام بعضهم ، انه ذلك الزهو الغامض الذي يملأ الرأس كلما تذكر الانسان إنجازات حياته الماضية ، او كلما تذكر بأنه واحد من الرواد الأوائل ، المؤسسين لفكرة أو لشيء مهم بدأ صغيراً ، ثم كبر ! هكذا الوادي ، كان صغيراً خالياً ، وهو الآن كبير مزدحم ، غير ان سلمان لا يلتفت الى حكايات أولئك المسنين ، ما لسلمان وخرافاتهم ؟ فهو دائم الاهتمام بالشبان الذين يلعبون الورق ويثيرون المشاكل أثناء لعبهم ، أولئك هم الذين يستحقون الاهتمام ، أما الشيوخ المسالمون ، فهم ليسوا بحاجة الى من يفض بينهم ، او يسكتهم !

لقد اقتصر دور سلمان في المقهى على الإشراف ، والمراقبة ، ومحاسبة الزبائن ، وفض اشكالاتهم ، أما بقية الأعمال فقد اضطلع بها النادل الأسمر النحيل ، الذي تعلم أن يخاطب سلمان قائلاً « يا معلم » .

(٤)

لم تزد تسمية « المعلم » من اعتداد سلمان بنفسه ، كما لم يكن لها دور في تملكه ذلك الأسلوب الكاسح الذي ميّز تعامله والآخرين ، فقد تعود خلال عمله في المقهى أن يكون قاسي العينين جامد القلب صلباً ، وأن لا يدع لأحد فرصة العثور على ثغرة في جدران بنيته التي تصلبت عبر سني اعتداده

الصارم بأرومته وبقدرته !
كان ممتلىء الجسم ذا قامة مديدة ، أما عيناه فمفتوحتان بشكل يدعو الى أخذ الحيطة أو ربما الحذر ، كان يرتدي القمصان والبنطالات الضيقة التي تبرز تجمعات جسمه العضلية ، وصدره الصلب المكسو بلفائف الشعر الكستنائي الغزير ، على أن هذه الصفات لا تضعه في مصاف أولئك الذين تتباعد أذرعهم عن أجسامهم أثناء وقوفهم أو مشيهم المختال ، ذلك أن يديه أبداً منشغلتان في عمل شيء ما ، كفتح أدراج طاولته البنية في ركن المقهى ، أو عد النقود ، أو تسجيل طلبات زبائنه في دفتر الديون ، أو إعطاء التعليمات للنادل بالإشارة اليدوية ، وحتى في أثناء سيره داخل المقهى ، فإنه يشبك يديه خلف ظهره ، بينما تعبث أصابعه بسلسلة مفاتيح سيارته التي اشتراها له والده .

(٥)

استطاع سلمان خلال اعوام من تسلمه المقهى ، أن يكوّن في أذهان رجال الوادي وشبانه ، صورة لشخصه تميزت بالقوة والمنعة ! غير أنه لم يستند في قوته تلك أو سطوته الى عضلاته ، وإنما الى جرأته وصموده الغريب في جولات العيون الضارية مع الآخرين ! ولقد وجد أبو سلمان في ابنه هذا ما لم يجده في ابنه الآخر جبر الذي لم يعجبه في يوم من الأيام ، أو قل منذ ان بدأ دراسته الثانوية التي أَقْصَتْهُ عن كل اهتمامات والده وشقيقه ، غير أن ما ساء سلمان أن استفحال مرض السكري في جسم والده ، أدى الى استماتته في تزويجه ، وحينما رفض تلك الفكرة مبيناً أنه لن يتزوج قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، اغتم أبو سلمان إلى حد ارتفع معه ضغط السكر في جسمه الى درجة عالية ، ولولا أن تدارك سلمان الأمر بتقديم وعد لوالده بالبحث عن فتاة تلائمه ، لازدادت صحته سوءاً ، ولربما حدث ما لم يكن بالحسبان ! « لا بد من الزواج اذن » قال في نفسه ، بينما أسهمت والدته وأخواته المتزوجات في

تجميل صورة الزواج امام عينيه ، كما لعبن دوراً في دفعه الى القيام بزيارات لبيوت أقاربه ، حيث بحث في وجوه قريباته ، بحث في أصواتهن التي ترددت في سرحاته الطويلة ، بحث في اخلاق امهاتهن التي لا بد وان تنعكس عليهن ، وفي النهاية اختار واحدة منهن اسمها (سارة) .

تميزت سارة بهدوئها وببياض بشرتها وطول قامتها ، لكن صفة واحدة وحيدة فيها ، نغصت عليه وكادت تثنيه عن اختياره لها ، فقد كانت نحيلة إلى حدٍ مثير للشفقة ! وحينما فاتح والدته بالأمر ، قالت له بأن الزواج كفيل بحل المشكلة ، لأن النساء ـ قالت ـ يزددن سمنة بعد الزواج ، وضربت له العديد من الأمثلة عن قريباته اللواتي امتلأت أجسادهن بعد الزواج ، حتى أنا ـ قالت له ـ فقد كنت مثل العود قبل أن يتزوجني أبوك ! ثم شجعته على الزواج من سارة ، وامتدحت خصالها وخصال والدتها المعروفة بأدبها وحشمتها ونظافتها وكتمها للأسرار ، وعندما توصل الى قرار نهائي بالزواج من (سارة) توجه الى بيت والدها برفقة والديه وأعمامه وعدد غير قليل من أقاربهم في الوادي ، وإذ وافق والدها على تلك الخطوبة ، أطلق ابو سلمان سبع رصاصات في هدوء ذلك البيت ، ولكي يكمل ما بدأه ، حدد موعداً لزفاف ابنه من عروسه ، بعد أسبوع واحد من تلك الخطوبة .

(٦)

لم تكتمل فرحة سلمان يوم زفافه ، فقد نُقل والده الى المستشفى بسبب الغيبوبة المفاجئة التي دهمته ، فأوقعته على الأرض وجها شاحباً خالياً من أي تعبير ، وجسماً ممدداً عاجزاً حتى عن الانثناء ! كان السكري مثل أخطبوط لا مرئي يسكن جسم ابو سلمان ، فيخطف لونه ، ويمتص من جسمه عصارات الحياة ونسغ النشاط ، كان يكابر ، ويحاول إخفاء ما يعانيه ، لكن مرضاً كالسكري لا بد وأن يظهر ، إنه داء متجذر ، طويل النفس ، وهو

بالاضافة الى هذا ، داء يحب الظهور ! لا يظهر السكري إلا بعد أن يمد جذوره ويحكم سيطرته على أجزاء البدن ! والسكري يفكر ، ويزن الأمور ، ويتقهقر ليعيد تنظيم نفسه ، تماماً كالانسان !
ها إن السكري يظهر في جسم أبو سلمان على شكل نحول ، ثم شحوب ، ثم غيبوبة مُهينة خطيرة ! ومتى ؟ في ذلك الوقت الحرج ، أمام ذلك العدد من رجال الوادي وشبانه وصبيته ، كأنما ليقول دون أن يقول : هأنذا ، موجود ، أنظروا كيف أوقعت كبيركم الذي تخافون !

(٧)

حينما وقع أبو سلمان ، تلملم اخوته حوله ، ثم دلقوا على وجهه الماء الذي أعاده إلى وعيه من جديد ، ولكي لا يفسد عرس ابنه ، رفض الذهاب الى المستشفى ، غير أن ابنه جبر أصر على ذلك موضحاً لأعمامه أن الغيبوبة ليست سوى دليل على ارتفاع السكر في دمه ، وأن حالته خطيرة لذا « يجب أن لا نترك له الخيار ، هذا إذا كان شفاؤه يهمكم » هكذا حسم جبر تردد أعمامه الذين أجمعوا بعدها على ضرورة إدخاله أقرب مستشفى .
وجبر يحب والده على الرغم من ملامح النفور التي تخالط علاقتهما ، بل ربما كان أكثر محبة لوالده من شقيقه ، لكن أبو سلمان لا يعترف بهذا ، فقد اعتاد أن يحاكم الآخرين بما يقدمون من براهين ودلائل ، أمّا النوايا ، فتظل رهينة في نفوس اصحابها الى حين خروجها على شكل تصرفات او براهين ! هنا يكمن ضعف جبر ، وهنا تبرز قوة سلمان ، ففي حين يقدم الأخير كل يوم ، المزيد من البراهين الدالة على طاعته لوالده ، وتنفيذه جميع تعليماته ابتداء من الاشراف الصارم على « مقهى ابو بركة » وانتهاء بالزواج ، فإن جبر يكتفي بما يضمره لوالديه من محبة خالصة .
جبر لا يتحدث كثيراً ، وهو إن قال شيئاً ، فإنما يقوله بهدوء تام ، وبعد تفكير

طويل ! كان هذا مبعث ضيق دائم لوالده الذي أنكر على ابنه كل هذا الهدوء ، وكل تلك الرويّة التي لا تليق بشاب مثله ! كان يقول له ، ان الحياة تحتاج الى الحركة الدائبة ، على الانسان أن يستفيد من كل دقيقة في حياته من اجل بناء نفسه ومستقبله . وعلى الرغم من نجاحه في الثانوية العامة ، ودخوله الجامعة إلّا أن والده لم يقتنع يوماً بأن ذلك النجاح ، سيكون مقدمة لنجاح مماثل في الحياة العملية ، كانت أمنية أبو سلمان هي أن يعيش حتى يحصل جبر على شهادته الجامعية ! كثيراً ما ذكر هذه الأمنية أمام ولديه وزوجته وبناته ، لكن امنيته تلك لم تكن من أجل الشهادة الجامعية ، وإنما « لكي أرى بعيني ، كيف سيتدبر جبر أموره في هذه الحياة ؟! »

أما شقيقه سلمان ، فكثيراً ما سخر منه ، ومن الكتب والمجلات التي يحضرها معه أثناء عودته من الجامعة ، كان يقول لشقيقه « ماذا تقرأ ؟ » و« هل ظل في هذه الدنيا من يقرأ ؟ » و« الحق على الذي أدخلك الجامعة ! » أما أم سلمان ، فتنظر اليه بشكل مختلف ، كانت تحسُّ بأن سكون ذلك الشاب إنما هو إخفاء لمعنى ما ! لا يمكن أن يكون كل هذا السكون والوقار بلا معنى ! هكذا كانت تقول في غيابه ، فيضج سلمان ووالده بالضحك « سيصبح نبياً ! » ويضحكان « بل فيلسوفاً ! » ويكركران ، غير أن عاطفة الأب سرعان ما تعاود أبو سلمان فيصمت ، يحسّ بأنه قسا على ابنه في غيابه فيرقّ ليقول « لكن أتريدان الصحيح ، جبر شاب متزن ! » هنا يحس سلمان بأن والده تركه في خضم المعركة وانسحب ، لاسيما أن والدته تبادره بالقول « أنتَ تغير منه ، لأنه ناجح في دروسه ، ولأنك تركت المدرسة وما افلحت فيها ! » ويرد قائلاً « مالي وما للمدرسة ، أي والله لو كانت الجنة في المدرسة لما ذهبت اليها » يقولها ليس دفاعاً عن نفسه في ذلك الموقف ، وانما استناداً الى رأيه النهائي الذي حدده منذ زمن في قضية الدراسة .

(٨)

لا بد لصفة كالهدوء من أن تنعكس بشكل ما على صاحبها ،

هذا ما تقوله ملامح جبر أبو بركة ، فقامته طويلة لكنها متسقة ، وجهه أسمر لكن سمرته غير صاخبة ، أنفه معقوف بشكل يوحي بالانسياب ، أما عيناه فسوداوان أو هكذا تبدوان ! لا بد لمن يجالس جبر من ان يحاول ولو لمرة في حياته ، أن يقلده ! فهو لا يتحدث إلا إذا لزم الأمر ، وهو يفكر قبل أن يقول كلمته . انك لو نظرت اليه ، لو دَقَّقْتَ النظر في ملامح عينيه ووجهه أثناء استماعه اليك ، لأحسست بوجود حركة خفية دائمة وراء تلك الملامح ! غير أن الهدوء الذي يطبع تصرفاته لا يروق لزملائه وزميلاته في الجامعة ، بل كثيراً ما وصفوا سلوكه قائلين « كل شيء عنده محسوب بالمليمتر ! » وعلى الرغم من انهم يقولونها بشكل عابر، إلّا أنهم يلخّصون بعبارتهم تلك ، سلوكه اليومي .

ولعل في علاقة الاعجاب التي نمت دونما لقاء بين جبر وبين هاجار التي تكبره بستة أعوام ، لعل في تلك العلاقة خير دليل على صحة ما ذهبوا اليه ! فقد نشأت في المسافة الفاصلة بين بيت أبو سلمان ، وبين بيت سبلو الفأر ، علاقة غريبة بدأت حينما شب جبر وتلاشت بدخوله الجامعة ! كان يراقب هاجار من نافذة غرفته ، فتبتسم له ، فلا يبتسم لها ! لماذا إذن يرقبها ؟ لماذا يزعزع سكينتها ؟

كان يمتنع عن النظر اليها لأيام طويلة ، لكن شيئاً ما يجذبه اليها ، فيقف من جديد وراء نافذة غرفته ، ومن جديد تراه فتتبسم له ، فلا يبتسم ! ومن جديد أيضاً ، يتوقف ثم يرتد الى كتبه ودفاتره ، فيتصفحها محاولا التفلّت من شِباك هاجار ! لقد تمكن جبر من وقف تلك العلاقة عند ذلك الحد لسنوات ! وتلك كانت معجزة من معجزاته ، ومبعث فخار خفي يحسّه ولا يصرح به ، ذلك أن هاجار فتحت له ذراعيها ، ومهدت له طرق اللقاء بها ، بل انها لجأت إلى الكثير من الأساليب الكفيلة بارغام كل الشبان على الاستجابة لها ! كانت ترتدي فستاناً مثيراً لماعاً يبرز نهديها اللذين اندفعا قبل اوانهما ، ترتديه خصيصا وتتجول في باحة دارها ليراها، لكنه لم يتحرك ، مما زادها اصراراً على إكمال

شوطها ! لو عرف أبو سلمان بكل هذه التفاصيل ، لاكتفى بهذا البرهان الذي قدمه جبر كدليل على نوع غريب من الاتزان ! لكن في اعماق جبر بئر عميقة ، لو سقط السر في قرارها لضاع في ظلماتها !

(٩)

لم يكن لجبر أصدقاء في وادي الغجر ، وكان السكان يرون فيه كياناً غامضاً مُغَلَّفا بالكتب والمجلات التي يتأبطها حين عودته الى بيته ! وحتى والدته ، فكانت تتمنى لو يشارك والده وشقيقه سلمان في أعمالهما واهتماماتها ، غير أن أم سلمان كانت تدرك كم هو عنيد ابنها جبر ! وكم هو مصر على التسرب من يدي والده الصارم !

أم سلمان لم تعط لأبنائها سوى حنانها ومحبتها ، ما دون ذلك ، لم يكن لها أثر يذكر ، على الأقل في حياة ولديها سلمان وجبر ! كان هذا مبعث ارتياح أبو سلمان الذي أراد لأبنائه تربية الرجال لا تربية النساء ، وكان مصراً على ان لا تخرج ام سلمان عن حدودها كامرأة في بيته !

هذا ما نفذه أيضاً سلمان أثناء تعامله مع زوجته ساره ! فقد أصبحت منذ أن زُفت اليه ، مجرد منفّذة لتعليماته الصارمة « يا سارة قومي اعملي شاي » وتقوم ساره ، « يا سارة الملح قليل في الطعام » وتعتذر سارة « هات الحذاء الأسود » وتنط باحثة عن الحذاء « بسرعة » وتسرع « سارة لا تقعدي مع العجائز ! العجائز مفسدات ! » وتبتعد عن مجالس العجائز « يا سارة قلت لك ألف مرة ، نامي باكراً » وتنام سارة ! وحتى حينما رزقت بطفلها الأول « عثمان » الذي سمي تيمُّناً بجده ، فقد استبق سلمان الزمن ، وقال لها بعد شهر من ولادته « اسمعي يا سارة ، عندما يكبر عثمان لا تتدخلي في تربيته ! مفهوم ؟ ! » « مفهوم يا سلمان ! » وكان والده يغتبط كلما رأى آثار تربيته في علاقة ابنه بزوجته « سلمان رجل ! » كان يقول أمام جبر من أجل تحضيره

لذلك اليوم الذي سيصبح فيه زوجا كشقيقه ، لكن هذا كان يسخر في قرارته من أساليب شقيقه في تعامله وزوجته ، وكان يصف تلك الأساليب امام شقيقه ووالدته قائلاً « هذا تخلف ! » أما سارة فرأت في بدايات حياتها الزوجية ، أن جبر هو خير مدافع عنها أمامَ غضب زوجها الذي يضربها ويوبخها ! غير أن تدخل جبر هذا ، أدى الى إمعان سلمان في زجر سارة ، مما دعاه الى فهم الرسالة الغامضة المتوعدة التي أراد سلمان ابلاغها له بعدم التدخل في شؤونه الخاصة ! .

(١٠)

جبر هو نقيض والده الذي يعنيه كثيراً أن يعرف الآخرون بإنجازاته لأن هذا سيدعم مركزه الذي أراده لنفسه ، وحتى حينما قامت الشركة الانجليزية بشق شارع الوادي قبل التحاق جبر بالجامعة . فقد أعاد أبو سلمان إلى نفسه الفضل في إتمام ذلك الانجاز ، كما اشاع بين سكان الوادي فهماً مفاده ، ان الشركة الانجليزية لم تكمل تنفيذ ذلك الشارع إلا بعد وساطته ! وانتشرت الإشاعة بين السكان وقيل بأنه قابل المسؤولين وطالبهم بإجبار الشركة على إكمال ما بدأته ، ولهذا اضطرَّتْ الشركة إلى تعبيد الشارع المنشأ في قاع الوادي ! ومما عزز انتشار ذلك الاعتقاد ، أن أبو سلمان وقف طويلاً مع المسؤولين عند حضورهم إلى الوادي من أجل استطلاع انجازات الشركة ، وحينما سُئل عن صحة ما ورد في تلك الاشاعة ، أجاب ممسداً لحيته متجنباً الوقوع في زلة الكذب الصريح « الله وحده يعلم كم أحبّ سكان هذا الوادي » ، ثم أردف موحياً لسائليه بصحة ذلك الاعتقاد « على كل حال ، الإنسان يجب أن لا يتحدث عن افعاله ، وأعوذ بالله من كلمة انا ! » .

ولكن الحقيقة لم تشهد أي أثر لوجود ما يمكن تسميته بالوسيط ! لأن شارع الوادي كان مثبتاً في بنود عطاء الشركة الانجليزية باعتباره حلقة وصل مختصرة بين الحي الشرقي من جهة ، وبين أحياء ما وراء المنعطف من جهة اخرى ،

وكل ما حصل هو أن الشركة تسلسلت في تنفيذ ذلك المشروع ، وقسمته إلى ثلاث مراحل هي : وصل الحي الشرقي ببدايات الوادي عبر شارع جديد يمر من وسط ذلك الحي ليتقاطع والشارع الشرقي ، وإذ انتهت الشركة من تنفيذ هذه المرحلة قامت بردم قاع الوادي بالأتربة والحجارة التي جلبتها القلابات ، كما قامت الجرافات العملاقة بتسوية تلك الحجارة والأتربة ، تساعدها المداحل وصهاريج المياه . أما المرحلة الثالثة من المشروع ، فتمثلت في شق الامتداد الجبلي عند المنعطف تَقْدِمَةً لوصل الوادي بأحياء ما وراء المنعطف ، وهنا برزت معضلة الشركة الانجليزية ، فقد عجزت معداتها عن شق ذلك الجبل على الرغم من محاولاتها المستميتة للنجاح في تلك المهمة ، وقال الخبير الانجليزي المشرف على خطوات المشروع ، قال بعد ان شاهد أسنَّة معداته وحرابها وهي تصطك بالصخور الجبلية الصلبة دون ان تنال منها «You Stub-born Rocks» وسمع الكثيرون من رجال الوادي وشبانه تلك العبارة أثناء ترقبهم لعمليات شق الجبل ، ورددوا كلمة Stubborn مراراً على مسامع فنيي الشركة وخبيرها ذي الخوذة الحمراء المميزة والملابس الصفراء الملأى بالجيوب ، غير ان انتظار السكان تحول الى تهكّم وسخرية من ذلك الخبير الذي أصدر تعليماته الى مهندسيه وعماله وفنّييه ذوي الخوذ البرتقالية بالتوقف عن محاولاتهم تلك ، حينها أطفئت المحركات فتوقف الهدير فجأة ، وتلفتت الوجوه الى الخبير الأشقر الذي اقترب من إحدى الصخور ، وقام بتفحصها بواسطة مقدح يدوي تم إيصال أسلاكه ببطارية إحدى الجرافات ، ثم تناول أنبوباً صغيراً من جيبه، وسكب ما فيه من سائل على تلك الصخرة ، وتفحصها عبر عدسة ذات إطار جلدي استلها من جيب قميصه ، وإذ انتهى من اختباره هز رأسه ، وهمس في أذن مرافقه بتعليماته الجديدة التي انسحبت على إثرها كل معدات الشركة ، وتجمعت في مخيمها المقام وراء الشارع الشرقي .

ما ساء ذلك الخبير ، أن عدداً من مسني الوادي الذين يعرفون الإنجليزية منذ

أيام الاستعمار ، سخروا منه ومن فنّييه بالانجليزية ، وحينما عاد الى خيمته ، أعد تقريراً مفصلاً عن نوع الصخور في ذلك الامتداد الجبلي ، مبيناً استحالة تحطيمها بغير استعمال ملح البارود ! وحيث ان اللجوء إلى هـذه الطريقـة يتـطلب شهوراً طـويلة من العمل المتصـل ، اضافـة الى محـاذيـر الإضـرار بالسكان ، فقد بين الخبير في تقريـره استحالـة قبول الشـركة بهـذا الحل ، وبالتالي ـ اوضح ـ استحالة إتمام الشارع ! غير أنه أدرج في تقريره مجموعة من البدائل التي ارتآها ، بعد أن قام ومساعده وفنيوه ، بالمسح الميداني للمنطقة برمّتها ، وحينما تقدم بتقريره إلى الجهات المختصة ، تمّت الموافقة على اقتراحه المتعلق بإنشاء شارع بديل ، يبدأ من التقاطع الشرقي الجديد ، صعوداً نحو الجبـل الجنوبي ، مـروراً بامتـدادانه الغـربية ، حيث الانحـدار الحاد وراء المنعطف ! وعلى الرغم من أن تكاليف ذلك الشارع تزيد عن سابقه الذي يمر من الوادي ، إلّا أن الشركة اضطرت إلى تنفيذه بدافع من أهمية الوقت في سياساتها التنفيذية أولاً ، وبدافع من حرصها على سمعتها العالميـة ثانيـاً ، وتحت تهديد الجهات المختصة بإلزامها بدفع كامل الكفالة البنكية المقدمة من قبلها ثالثاً ! ولقد لجأت الشركة إلى إشراك سفير بلادها في مفاوضات التعويض الذي طالبت به ، لقاء اضطرارها الى تعبيد الشارع الممتد من بدايات الوادي الشرقية ، الى بداية المنعطف ، حيث اعتبر ذلك الشارع اضافياً بالنظر الى التغيرات الطارئة على المشروع برمّته !

سكان الوادي لم يعرفوا شيئاً من هذه التفاصيل التي جرت ـ بالطبع ـ دون علمهم ، لذا عزا بعضهم اضطرار الشركة لإكمال تعبيد شارع الوادي ، إلى تدخل أبو سلمان الذي أبدى اهتماماً حقيقياً بالشارع ، والتقى على مرأى من السكان ، عدداً من المشرفين المحليين على المشروع ، ودعاهم الى بيته لتناول القهوة وتحدث واياهم في شؤون مشروعهم .

* * *

هجوم الحياة

(١)

بحث غجر الوادي عن وسائل عيشهم في أحياء المدينة ، بعضهم سجلوا أسماءهم عمال تنظيفات ، بعضهم عملوا في مهن يدوية كالحدادة وتبييض الأواني والنقش ، وبعضهم تخصصوا في تسليك المجاري ونضح الحفر الامتصاصية في البيوت ، وصار الناس يأتونهم من أحياء المدينة ليزيلوا عن بيوتهم كوابيس الروائح القذرة كلما فاضت تلك الحفر بما فيها ، بعض النسوة عملن في كشف الطالع ، والرقص في الأعراس والمناسبات ، وقراءة الكف والفنجان والودع ، وكن يستخدمن ذكاءهن وفراستهن وحيلهن الشيطانية من أجل الإيحاء بصحة توقعاتهن ، أما الذين أنِفوا هذه الأعمال وتلك ، فقد بحثوا عن أرزاقهم في الوادي ، ونافسوا الفلاحين في بيع الخضار والأواني والملابس القديمة عند التقاطع الشرقي ، كما عمل واحد منهم عند سلمان ابو بركة نادلاً للمقهى ، وعمل آخر في تنظيف المسجد وري أشجار باحته الخارجية .

كياز الغجري لم يضطر الى البحث عن عمل آخر ، ذلك أنه أحضر معه عدته وأدواته ، وأقام مرجله الإسمنتي في باحة داره ، ثم بدأ بصنع السكاكين والمبارد والقطّاعات وكوانين النار والمقاور والمقاشر، كثيرة هي الأدوات التي يتقن كياز صنعها بعد أن يُلينّ الحديد في مرجله الحجري ، ومطارق كياز كثيرة ، منها المحدودبة والمسنونة والمقعرة ، ولكل مطرقة عملها الخاص

ومكانها الخاص الذي لا يجوز العبث به ، فهو لا ينظر الى المطرقة التي يريدها ، إنما يمد يده بحركة آلية نحو مكانها المعتاد ، فإذا لم يجدها ، فإن القيامة نفسها ستقوم حينئذ ، وسيملأ البيت صراخاً وشتائم !

كان عرقي هو المسوّق الوحيد لمصنوعات والده ، هو الذي يحملها ويتجول بها في سوق المدينة من اجل بيعها ، غير أن بدانته اضطرته الى الاكتفاء بالجلوس في السوق تجنباً للسير بتلك الأحمال الحديدية الثقيلة ! وحينما لاحظ كياز انخفاض مبيعات ابنه حضّه على الكدّ والجد ، وعلى الرغم من أن عرقي بلغ من العمر ما يؤهله حتى للزواج ، إلا أنّ والده لجأ إلى جلده مراراً بحزامه العريض من أجل حثه على الانتباه إلى عمله ، وكثيراً ما جلد زوجته سمار أيضاً بسبب تدخلها في الأمر ، وحمايتها لأبنها البكر عرقي ، لكن كياز ذات ليلة صيفية ، أبدى رغبة في مساعدة سبلو الذي ضاقت عليه منافذ الحياة ، فعرض عليه أن تقوم ابنته هاجار ببيع أدواته المعدنية في السوق ، ودون أن يفكر في الأمر ، قال سبلو : موافق ! ثم أدار وجهه ناحية ابنته التي ابتسمت بامتنان حينئذ !

(٢)

منذ أن حط كياز رحاله في الوادي ، وهو يحس بخيوط علاقة غريبة تنسج نفسها بنفسها بينه وبين سبلو الفأر ! كان سبلو يستقبله بحرارة بدّدت من ذهنه ذكريات خصامهما العتيق ، كانا يسهران معاً ، يحتسيان العرق من زجاجة واحدة ، ويتحدثان في أمور الوادي وسكانه الغجر ، والفلاحين ، وينبشان ذكرياتهما . وليلة سرد سبلو على مسمعي جليسه حكاية مقتل بهاج ، استمع إليه باهتمام مبعثه ذلك الاحساس ، المفاجىء الحارق ، الذي بث أمام عينيه صورة جلية مشرقة لبهاج التي أحبها ، واذ انتبه سبلو الى ملامح كياز المتغيرة ، دقق النظر في عينيه الغائرتين بحثاً عن تأكيد لما ساوره أثناء سرده

الرقيق لحكاية مقتل زوجته !

بدَّدَ سبلو حلقات التحفظ التي عبثت بعيني جليسه حينما أكّد على دعواته الليلية له من أجل زيارته ، والسهر معه ، ومجالسته ، كما وجد في مجالساته التالية له ، نتائج أوصلته إلى أن كياز هو الوحيد القادر على فهمه ، ومشاركته أحزانه ، على الرغم من تيقنه من أن تلك المشاركة لم تكن سوى بحث متأخر في التفاصيل الخفية لحياة بهاج ! كياز أيضاً ، هو القادر على تبديد المخاوف التي خلّفتها نبوءة العجوز قبل أن تموت ، فهو الذي يزوّده بالعرق الذي يستخرج ابتساماته من أعماقه المظلمة ! أما كياز فوجد في سبلو شريكاً له في ذكرى عزيزة لامرأة أحبها في صباه ، كما وجد في أحاديثه نكهة خاصة ، وفنوناً لم يكتشفها إلاّ بعد أن جالسه مرات عديدة ، لكن ما بهره أن سبلو لم يحاول إيقاف تيار ذكريات حبه العتيق لبهاج ، كما لم يعلق على أحاديثه الكثيرة عن بهاج أثناء مرور العرق من حلقه ، بل ان اسلوب سبلو في تقبل أحاديثه تلك أزال كل تحفظاته ، ودعاه إلى الافصاح عن مشاعره تجاه بهاج التي احبها !

(٣)

تمكنت هاجار عبر المرور البطيء للأيام والشهور ، من التفوق على عرقي في بيع أدوات والده المعدنية ، وصارت تنقد والدها دخلاً يومياً يكفيه لشراء زجاجة من العرق ، هوذا مطلب سبلو الوحيد ، ونظام بقائه اليومي الصارم الذي لو تضعضع ، لاسودّت الدنيا في عينيه ، أو لعاد الزمان الى الوراء ، إلى الزمان الرمادي حيث اللحظة القاتلة ، والعنق اللجينية النازفة في صمت الوادي وحلكة ليلته ! لو نفد العرق من هذه الدنيا ، اذن لعاد كابوس نبوءة العجوز إلى ذاكرته الزاخرة ، ولدكّته الهواجس دكا !

سبلو لم يفكر يوماً بما يواجه ابنته أثناء بيعها للأدوات المعدنية ! لا يعرف ما الذي يجري في الأسواق المكتظة بالنساء والرجال والشبان الذين يلتصقون

بابنته ، أو يقرصونها بأصابعهم ، او يعرضون عليها بسماجة ، إمكانات الذهاب معهم الى حيث (يبسطونها) ! لقد تعلمت هاجار بمرور الأيام كيف تميز بين الرجال ، وكيف تعرف ما إذا كان الرجل راغباً في الشراء ، أم في المداعبة ، ام في عرض امكانية (الانبساط) ، وأصبح بمقدورها أن تحدد من خلال صوت الرجل ، أو منطقه ، أو مشيته ، أو حركات عينيه ، أو يديه ، ما إذا كان وقوراً أو سافلاً أو حتى عتلاً ! فالرجال ذوو الأصوات الدهنية المتقطعة ، الرجال الذين لا ينزعون أيديهم من جيوبهم أثناء تحدثهم اليها ، الرجال ذوو العيون المتحركة بسرعة البرق ، هؤلاء هم سفلة الرجال ! غير أن معرفتها بأنواع الرجال لم توصلها الى قرار حاسم بالابتعاد عنهم ، ذلك انها تقبّلت مراراً وبصمت متواطىء ، لمسات الرجال لكتفها أو ذراعها أثناء تحدثهم اليها أو مساومتهم لها على أسعار الأدوات التي تبيعها ! هي لم ترغب في مناقشة ما اذا كان هذا النوع من الرجال سافلاً أم غير سافل ، لم ترغب في مناقشة هذا الأمر مع نفسها ، كانت تكتفي بما تبثه لمساتهم في بدنها من أحاسيس غامرة بالمتعة المتفرعة إلى كل انحاء جسدها وحتى شعر رأسها ! كثيراً ما تنبهت هاجار إلى استسلامها اللذيذ لتلك اللمسات التي تعزلها عما حولها ، ولجأت غير مرة ، إلى استعادة رعشات تلك اللمسات أثناء تقلّبها الليلي على فراشها المتدرّن ! كانت تتساءل كلما رأت أولئك الشبان والرجال المتهافتين في الأسواق ، تتساءل عما إذا كان جبر ابو بركة ، الهادىء العنيد ، شاباً مختلفاً أم كائناً آخر ! إذ لماذا لا يستجيب لها ؟ لماذا لا يؤججه مشهد الجسد المتفلت من فساتينها اللماعة التي ترتديها في بيتها ، والتي لا تستر جسدها ، بقدر ما تسهم في استحضار الذكورة والعواء من أعماق أعماق الرجال ؟

كان من الممكن أن يؤدي هدوء جبر الى توقف هاجار عن محاولات فخّ الشهوة عبر المسافة الفاصلة بين باحة دارها وبين غرفته ، غير أن ملامحه الأكثر هدوءاً من ليالي الصيف ، شفت عن اشتعالات جسدية لم تستطع الصمود أمام المنطق الواحد الذي تعنيه وقفته اليومية على شباك غرفته ! لماذا إذن لا يبدأ

اقتحامه ؟ لماذا يتمنّع ؟ بل لماذا لا يكف عن النظر إليها كلما استند بكوعيه على نافذة غرفته المطلة على باحة جسدها ودارها ؟

كان هذا مبعث فضولها ، لكنه في الوقت ذاته ، أنساها الكثير الكثير من عوائق الاستمرار في المحاولة ، كانت تريد جبر ، وهاجار غجرية ! لذا بالغت في إبراز مفاتن جسدها الذي لم تجرؤ يوماً على إشهاره امام الآخرين ، خوفاً من هجوم رجولتهم التي لا تعرف الحدود ! من ذا الذي يوقف الرجال ، كل الرجال ، لو رأوا يوماً نهدي هاجار ، وكتفيها وإبطيها الغاويين ؟ لكن جبر أبو بركة بهدوئه الصخري العنيد لوى اعناق الخيول الراكضة في سهوب خيالاتها ، وأطفأ ببروده شهواتها المتأججة التي ، تراجعت وترسبت في أعماقها الباحثة عن تبرير واحد لذلك التمثال النصفي المتحجر على الحافة السفلى للنافذة .

(٤)

تلك كانت التجربة المهينة في حياتها ، لكنها في الوقت ذاته اعانتها على ادراك المسافة التي تفصلها عن جبر ، الفلاح ، الذي يريد ولا يريد ! هاجار أدركت بأن جبر أبو بركة لا يمكن أن يكون كالشبان الآخرين ، لكنها بتوصلها إلى هذه النتيجة ، لم تصارح نفسها بذلك الوميض السريع ، للفكرة السريعة التي راودتها ذات صباح حمي ! فقد رأت عرقي بن كياز ، وهو خارج من بيته ، ببنطاله الأسود وقميصه البرتقالي ، وشعره المصفّف المبلول . هاجار لم تتساءل حتى ذلك الصباح الحمي ، لماذا لم تلتفت الى عرقي من قبل ؟ لماذا لم تلتقط من تفاصيل علاقتها به ، تلك العلاقة الأسرية المدجنة الخالية من أحاسيس الجنسين ، الزاخرة بالتناهد والتناكد والشتائم، لماذا لم تلتقط من تفاصيل تلك العلاقة ، وميض إحساس واحد بالحب !

لا بد من الرجل ! هذا ما أفرزه خيال هاجار ، رجل قادر على الاقتحام دونما

تردد ، ! هذا ما توصلت اليه في ليلة صيفية حارة لم تستطع حيالها غير التقلب في فراشها ، ومراقبة والدها النائم على ظهره ، بفمه المفتوح ، وأذنيه المتباعدتين ، وساقيه العصويَّيْنْ الملتمعين في الضوء الشاحب ، لا بد من الرجل ! هوذا قرار آخر الليل ! لكن الصباح مختلف ، ففي الصباح ينحسر الخيال ، وتختفي افكار القلق مثل كائنات الليل ، لكنها لا تموت ! أين تذهب افكار الليل، الجامحة، المتمردة، الغريبة؟ في الصباح تستهجن هاجار أفكار ليلها ، تهز رأسها كأنما لتنفض عنه ما علق به من أوهام ، لكن تلك الأوهام نمت في فراغ المسافة الفاصلة بينها وبين جبر ابو بركة ، وغدت جديرة بالتفكير النهاري ، ثم اتخذت شكل الممكن ، ثم المقبول ، وأخيراً الحل !

(٥)

كانت تفكر بمعزل عن والدها الذي ضاقت علاقته بها ، وتحولت الى علاقة محايدة تجمع بين اثنين من عالمين مختلفين ، « لتفعل هاجار ما يحلو لها » سبلو لم يتوصل الى هذا التسليم الا بعد اضطلاع ابنته بمهام اعالته وتزويده بأسباب انسياب ايامه ولياليه ، ايامه المتفلتة من ذكرياته ، ومن آلام المشهد الأخير لِلَّحظة الأخيرة في حياة بهاج ، لياليه الخالصة من كآبات انتظار لحظة الموت في نبوءة العجوز !

لو صحا سبلو لأصيب بالذعر كلما تسارع النبض في فؤاده ، ولتجمع الدم في رأسه حال احساسه بتلك الوخزة المتكررة في الجانب الأيسر من صدره ، حيث القلب ! لو صحا لانتبه الى التغيرات اليومية التي تعصف بالوادي فتغير هيئته ، وتلتهم كل ما تبقى من آثاره التي تربطه ببهاج ، وتذكّره بها ! كان الوادي يكبر ، ويتغير ، أما سبلو ، فيصرّ على تثبيت الزمان عند نقطة محددة هي الغياب ! الغياب عن البيوت الجديدة في الوادي ، والدكاكين الجديدة ، والناس الجدد ، وحتى انشاء شارع الوادي والتقاطع الشرقي ، لم يكونا مثار

اهتمام سبلو لولا اضطراره الى عبورهما كل يوم ، حين الـذهاب الى الحي الشرقي لشراء العرق من بقالة « أبو جريس » ، وحين الوقوف عند التقاطع الشرقي ! لأمرٍ ما كان سبلو يصر على الوقوف الصباحي عند التقاطع ! ولأمر ما كانت هاجار تطالبه بالكف عن الوقوف في ذلك المكان ! « لتفعل ما يحلو لها » قال سبلو لكياز الذي وصف هاجار بالطمع ! ذلك انها اعادت النظر في الأجرة التي تتقاضاها لقاء بيعها مصنوعاته ، وطالبته بزيـادة تلك الأجرة ! وكيّاز اضطر الى الاستجابة لها انطلاقاً من معرفته بأن ما يبيعه ابنه عرقي لا يساوي شيئا اذا ما قورن بما تبيعه هي ! يـومها تنبـه كياز الى امتـلاء جسد هاجار ، وانتبار صدرها ، وابتلال شفتيهـا ، وحينما استـدارت عائـدة الى بيتهـا ، لمح مشيتهـا من الخلف ، فتمثلت أمامـه طريقـة والدتهـا في المشي البطيء ، الذي يدعو المرء الى حصر اهتمامه بمؤخرتها دون سائر جسدها ! وأطال الوقوف حتى اختفت داخل بيت والدها ، ثم حك شعره الذي وخطه الشيب، وتوجه الى بيته ليتأمل وجهه في المرآة المثبتة بالحائط : تأمل أخاديد جبهته ، وخديه ، ورقبته ، تأمل حاجبيه ، وشاربيه الكثيفـين ، فأزعجـه امتداد سلطان الشيب اليهما ! هاجار هي صورة عن والدتها ، هذا ما فكر به كياز قبل ان يتلقى صفعة التراكم المريع للسنين في مرآة وجهه .

(٦)

ان فتاة مثل هاجار ، لا بد وان تكون مثـار اهتمام خفي أو علني ، فالغجريات في الوادي ، يتحدثن عن هاجار التي لا تشاركهن جلساتهن امام البيوت ، يتحدثن عنها بشيء من الغيرة ، لكن غيرتهن أخفت اعجاباً بتلك الفتاة التي تمكنت من تحسين وضعها بين الغجر ، فاستبدلت بالشادر الذي يغطي بيت والدها سقفاً اسمنتياً مسلّحاً ، واستبدلت بالشباك العتيق نافذة جديدة صنعها النجار الوحيد في الوادي ، كذلك استبدلت بالباب الخشبي

العتيـق آخر جديداً ، واشترت فراشا جديدا لها ولوالدها ، وخـزانة بنيـة اللون، وحينما استعادت أنفاسها بعد عامين ، اتفقت وأحد البنائين على اقامة غرفة اخرى ملاصقة لغرفة والدها ، ومطبخ صغير ، ومرحاض ! ولقد أحس سبلو بأن ابنته بأفعالها هذه ، انما تساهم كغيرها في اخفاء ما تبقى من آثار بهاج « وأنت أيضاً يا هاجار ! ؟ » قال لها بألم ، لكنه أحس بأن عجلات الحيـاة قاسية في تقدمها الغريب !

لقد أدى نشاط هاجار المتزايد في تسويق مصنوعات كياز الى توقف ابنه عن مزاولة هذا العمل ، ذلك انها كانت تنتقل بين الأسواق والأرصفة وأحيـاء المدينة ، أما عرقي فمل ذلك العمل ، وأضجرته رائحة الحـديد المحـروق ورنين الأدوات بين يديه ، ورأى بأن ذلك العمل لم يعد لائقاً بشاب مثله ، وأن من الأفضل له ان يبيع الصحف في تقاطعـات المدينـة ، حيث تتوقف السيارات والحافلات ، وحيث يطحن الوقت تحت اللهيب الساقط من سماء الصيف .

(٧)

قاتم وجه كياز الغجري ، على الرغم من الإطلالة الناصعة البياض في قرنيتي عينيه ، وعلى الرغم أيضاً ، من سنه الذهبية التي لا تميـزه عن غجر الوادي ، لأن معظمهم يعمدون الى تلبيس بعض اسنانهم بالذهب !

ما يميز كياز هو عصبيته المدمرة وتوتره السريع ، فإذا اغضب ، اذا استفزّ ، فقل على ما في بيته السلام ، لا صحن يبقى ولا طنجرة ولا كرسي ولا ابتسامة ولا ولا ولا . . . ، لا شيء يبقى على حاله غير المرجل الذي يحرق في أتونه الحديد ! والدماء تدفق من يده حين يواصل اعصاره وتدميره ، لكن زوجته سمار تعلمت بمرور السنين ، كيف وأين تذهب بشحنات غضبـه وسموم غيظه ، فهي تشعل له سيجارة عـلى الفور ، ثم تشمـر ثوبهـا الى ما فـوق ركبتيها ، وتبدأ بكنس ما أتلفه اعصار زوجها متعمدة الانحناء امامه ، ليرى

وركيها اللذين يشعلان فحولته ، فيفجّ من كيانه الفهدي الوثّاب، ويقفز الى البوابة الخارجية ، لابد من اغلاق البوابة بالمزلاج ، ثم العودة السريعة الى الزوجة المنتظرة على الفرشة القطنية ، لا بد من سماع أنينها الانثوي الذي يزيد ذكورته اشتعالاً ، ويحيلها الى هدير حيواني مسحوب ، ربما ، من نزعة افتراسية دفينة ، سرعان ما تتجمع في اصابعه وفي اظافره التي ينشبها في لحم زوجته السمراء ، سمار ! غير ان كياز ، بعد ان غزت جسمه دلائل الكبر ، قلّل من مواقعاته لزوجته ! الأصح انه لم يقم بفعل التقليل هذا بمحض ارادته ، وانما صارت ايام الاسبوع تنزلق من حياته دون ان يعترضها بمواقعة واحدة مع زوجته ، وحينما استحكم اللهاث في صدره ، ولأنَ جسمه بعد ان كان مشدوداً، ازدادت عناته ، وتباعدت فترات شهواته ، وأخذ يتحدث عن سمار أثناء سهراته في بيت سبلو « هذه المرأة تريد ان تقتلني ! من يوم تزوجنا وهي تغويني ! يا الله من جنس حواء ! تغويني ! وانا من لحم ودم ! »

كان يبحث عن مبررات لتراجعاته الجنسية ، ويخفي خيبته وراء أقواله التي لم تبعث في نفسه سوى مزيد من التراجع والخيبة ! هل أدرك كياز أنه بأقواله تلك ، انما يختلق لنفسه ذرائع الاكتفاء ؟ « لازم الانسان يظل قوي ، والجماع يهدّ الحيل ، ويفرغ العظام ، ويخطف العقل » كان يقول أمام سبلو الصامت ، لكن قلقه دعاه الى البحث سراً عن أساليب لتقوية قدراته الجنسية ، فصار يتبع الكثير من الوصفات السائدة ، كشرب زيت الزيتون والعسل وحليب الابقار ، كما امتنع عن تعاطي المشروب في ليلات شهواته ، غير أن محاولاته تلك لم تسهم في زيادة مواقعاته المتعبة لزوجته سمار ، وبخلاف ما اعتاد من زوجته ، فقد بدأت تسمعه عبارات التذمر ، وأوصاف العث والهرم والعجز وأخيراً ، الخراب ! كانت تحاول استفزازه من أجل استدعاء قدرات شبابه الآفل ، وحينما تأكد لها بروده وبطؤه تجرأت على مخالفة الكثير من تعليماته الصارمة ، بل انها وجدت أن كل شيء في الحياة ممكن ، بما في ذلك ، التمرد على كياز الذي ، كان !

(٨)

تمرد عرقي على والده اتخذ شكلاً آخر ، فعرقي يحب الغناء والطرب ، ويسمع الكثير من الأغنيات الشائعة عبر سماعه مسجلته التي تعمل بالبطارية ، لكن هذا لم يرق لوالده الذي حاول قتل هوايته باغلاق المسجلة تارة ، وبتكسير الأشرطة تارة اخرى ، على ان ما أثار غيظ كياز وبعث في بطنه آلام المغص ، هو غناء عرقي وتقليده للأغنيات التي يسمعها ، كان هذا مبعث احساس حقيقي بالمغص عنده، فصار ينادي ابنه قائلاً « يا خالع » و« خالع ، خالع ، لكن دعني أغني كما يحلو لي » كان عرقي يرد على محاولات والده للنيل من احلامه ، لكن تلك الأحلام اخذت تكبر بعد استماعه الى العديد من عبارات التشجيع ، وبعد ان تطوع باظهار موهبته في العديد من أعراس الغجر وغير الغجر ، ونال الكثير من التصفيق وعبارات الاستحسان ، بل لقد بدأ اسمه بالظهور في الوادي ، خصوصاً في اوساط الغجر الذين كشف حماسهم الغريب له ، عن أنهم كانوا ينتظرون ظهور مطرب من بينهم ، لكن هذا الحماس لم يمنع والده من توبيخه وتهديده بالطرد من البيت تمشياً وتقاليده الخاصة التي لا تقبل بتحويل بيته الى مجمع لكورس عرقي ، ثم ان كياز صار يغير على زوجته سمار حتى من الهواء ! فكيف بأولئك المراهقين الذين يجمعهم عرقي في بيته ؟ وحينما توالت تدخلاته في شؤون ابنه ، حاول هذا الأخير الرد من خلال انقاص المبلغ الذي ينقده اياه كل يوم ، مما زاد من حنقه ، فهدده من جديد بالطرد من البيت ، واتّهمه بتضييع نقوده على اصحابه « الخالعين مثله » ولقد أدى هذا الى بعث نوع من الكبرياء في نفس عرقي ، فأمسك بيدي والده حينما أراد ضربه ، وكان جسمه قد امتلأ وفاض بطنه عن حزامه بخلاف الشبان في سنه ، أما خداه فلم يتخذ امتلاؤهما شكل الورم او البروز المنفر، وانما شكل الانسياب الذي اضفى على وجهه مسحة من البراءة .

تلك كانت المرة الأولى التي يقبض خلالها على معصمي والده لتفادي لطماته ، غير ان محاولته تلك ، أدّت الى انهيارات كثيرة في نفس كياز ، حيث أحس ولأول مرة ، بأنه امام رجل قادر على مكاسحته ، وعلى الصمود أمام غضبه المدمر ، كما قرأ في عيني ابنه ومضات تمرد طارىء لا يمكن السكوت عنه ، لذا حاول أن يفلت معصميه من أجل مواصلة اعصاره الذي تحول الى نوبة مفاجئة من الغيظ المنبعث من تسرب أحاسيس العجز إلى نفسه المكابرة ، وإذ أخفق في إفلات معصميه من قبضتي ابنه القاسيتين ، شتمه ، وبصق في وجهه العريض ، بينما تلوّت أمعاؤه غيظاً وعجزاً ، وحينما جَسَأت يداه ، وأخفق في تخليصهما من قبضتي ابنه الذي ظل واقفا مثل صخرة عنيدة صامتة ، راودته فكرة تأجيل انتقامه لعجزه ، فهدأ فجأة ، وقال بصوت لاهث متوعد « طيب ، اترك يدي الآن ، سأريك فيما بعد يا ابن الخالعة » قالها لابنه فأفلته على مرأى من والدته واخواته اللائي لم يتدخلن في تلك الجولة ، وحينما اراد عرقي الخروج ، بادره كياز بوهن « كبرت يا ابن سمار » ثم انفجر في بكاء مفاجيء !

* * *

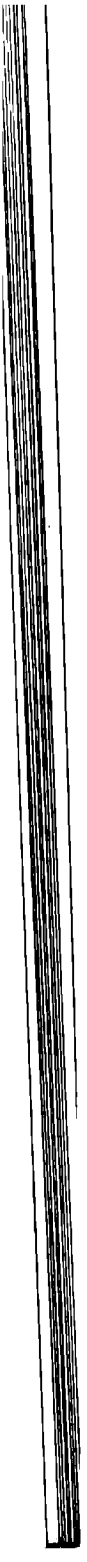

سلمان حامد ابو بركة

(١)

اذا كان سكان الوادي قد تنبهوا الى أهمية التقاطع الشرقي قبل ان تنير الكهرباء بيوتهم ، اذا كان بعضهم قد ابتسموا لحظوظهم التي أتاحت لهم فرص شراء الاراضي عند ذلك التقاطع ، فإن « أبو سلمان » ابتسم من جديد لذكائه الذي أوصله الى توقع ما سيتطلبه دخول الكهرباء الى الوادي من احتياجات منزلية جديدة كتلك التي انتشرت في الاحياء الأخرى التي دخلها التيار الكهربائي قبل الوادي بسنوات !

سبق أبو سلمان السكان في توقّعه هذا ، فأقام معرضاً لبيع الأدوات والأجهزة الكهربائية والاثاث بجانب المقهى ، وملأه بكل المتطلبات التي سترافق ذلك التطور الهائل في حياة الوادي ، كما أغلق على السكان منافذ التفكير في منافسته على بيع تلك الأجهزة والأدوات ، وذلك عن طريق استجلاب العديد من أصنافها ، بحيث يتعذر على أي من طموحي الوادي مجاراته سواء من حيث القدرة المالية ، او من حيث اسلوب البيع البارع المستند الى التقسيط المريح ، والعلاقات الممتدة ، والشخصية الكاسحة التي اعانته على تثبيت وجوده الماحق !

لقد اضطلع سلمان ابو بركة بمهمتي الاشراف على المقهى والمعرض الملاصق لها ، واستخدم اثنين من الشبان لمساعدته ، ولتحميل الأثاث والأجهزة في البكب الأبيض الذي اقتناه لهذه الغاية . لكن « معرض أبو بركة » ما كان له

ان ينجح لو لم يتم ايصال التيار الكهربائي الى الوادي ، وربما يفسّر هذا ، تلك الجهود التي بذلها ابو سلمان ، من اجل الحصول على اوامر نصب الأعمدة ، ووصلها ببعضها عن طريق الاسلاك المجدولة ، ثم تركيب العدادات والساعات في البيوت التي تمكن اصحابها من دفع الرسوم والتأمينات المطلوبة! ولقد ترافقت هذه الاجراءات بحركة دائبة في الوادي ، ذلك ان السكان لم يتمكنوا من كبت علقات الفضول التي دعتهم الى التجمع حول العمال والفنيين ، ومراقبتهم ، والاحتكاك بهم ، وتوجيه الأسئلة اليهم جول موعد وصول التيار الكهربائي الى الوادي وحول دوامهم ، ورواتبهم ، وأصولهم ، وأعداد أولادهم ! وحينما انتهى اولئك الفنيون من اعمالهم ، انتظر السكان بفارغ الصبر ، لحظة وصول التيار الكهربائي ليتخلصوا من مصابيح وفوانيس الكيروسين التي دغّمت جدران بيوتهم وأنوفهم ، انتظروا ليلة ، ليلتين ، ثلاثا . . . وفي الليلة الثامنة لانتظارهم ، وبينما يعيشون لحظاتهم بعيداً عن إلحاحات الانتظار، اذ بمصابيح الأعمدة الكهربائية تضاء دفعة واحدة على امتداد شارع الوادي ! واذ بالبيوت والباحات تشتعل بالضوء !

هكذا فجأة تغير الليل في الوادي ، وتحول السكون الى ضجيج وصفير وزعيق ! فجأة أخذ الشبان والصبية يتراكضون ويتصايحون بانفعال في الطريق وفي الأزقة المضاءة ، كأنما بثت الكهرباء في أجسامهم وحناجرهم ، طاقة لم يستطيعوا حيالها غير القفز ، والصياح ، والركض ، ودخول البيوت من أجل مشاهدة نعمة الكهرباء ، ونكهة التغير الجديد في حياتهم !

في تلك الليلة تردد اسم أبو سلمان وابنه على ألسنة السكان ، وقالوا « لولاهما لما صار الوادي ، ولما تصور » ولكي يؤكد ابو سلمان على دوره الحاسم في ايصال الكهرباء الى الوادي ، اصطحب ابنه في جولة الى الكثير من البيوت المضاءة فاستقبلا كما لو انهما مصدر تلك الطاقة المذهلة !

غير ان ذلك التطور الكبير ، ادى الى كشف العديد من الحقائق الأسرية

المستورة ، فالكهرباء لم تطأ عتبات البيوت التي لم يتمكن اصحابها من دفع تكاليف التمديدات والرسوم والتأمينات اللازمة ، لذا بقيت تلك البيوت مطفأة ، او هكذا بدت وسط البيوت التي تفاخر اصحابها بالإعلان عن اقتدارهم ويسرهم ، باشعال كل المصابيح في بيوتهم ! أما البيوت المطفأة فظلت كذلك اياماً وشهوراً ، كأنما هي شاهد على فقر اصحابها وعوزهم !
تلك كانت مدعاة حرج للعديد من السكان الذين تمنوا لو بقي الوادي كما كان في السابق . . !
سبلو الفأر ايضاً تمنى لو لم تدخل الكهرباء بيته ! تمنى لو تقتنع ابنته هاجار بأن الكهرباء التي اضاءت الوادي قد اعتمت ذاكرته ، فمحت منها الكثير الكثير من مخزوناتها الغريبة !

(٢)

كثير من الأشياء في الوادي تغيرت بدخول الكهرباء ، وصار الناس يسهرون اكثر ، ويتمشون في الطريق ، ويتجمعون تحت اعمدة الكهرباء ، وتم تركيب سماعتين للمسجد من التبرعات الاسبوعية المخصصة لصيانته ، وكف المؤذن عن الآذان على سطحه بعد ان تعلم كيف ومتى يفتح الميكرفون ويغلقه ، واعتاد السكان سماع صوت المؤذن في كل بقاع الوادي عبر السماعتين ، على ان المظهر الصارخ الذي رافق الكهرباء ، هو دخول بعض الأجهزة الكهربائية الى بيوت الوادي !
ابو سلمان هو اول من أدخل التلفاز الى الوادي ، إذ اقتنى تلفازين واحداً لبيته ، والثاني للمقهى التي استقطبت الكثيرين من الرواد الجدد ! كما وضع سلمان تسعيرة ثابتة لمشاهدة التلفاز قيمتها قرش واحد لكل متفرج ، وتمكن بهذا من جمع ثمن التلفاز خلال شهور ، ثم فكر بعدها بتوسيع تجارة معرضه ، بحيث تشمل التلفازات والثلاجات ، وحينما عرض على السكان فكرة تقسيط

اثمان التلفازات ، فكر الكثيرون منهم باقتناء تلك الأجهزة ، ثم تشاوروا وزوجاتهم وأنفسهم ، ثم فكروا ، ثم تشاوروا ، ثم اتفقوا ، فقرروا الشراء ، فاحتل التلفاز بيوتهم ، وارتفعت المواسير الغليظة فوق سطوحها حاملة الشبكات الهوائية والاسلاك ! لم يمض سوى بضع سنين على دخول الكهرباء الى الوادي ، حتى امتلأت السطوح بالمواسير والشبكات التي اضفت على الوادي مظهراً لم يكن مألوفاً من قبل ، وأخذت الأفلام والمسلسلات تحتل جزءاً كبيراً من أحاديث الأطفال والشبان والرجال والنساء ! كانوا يبدون دهشتهم من أفعال محمود المليجي وفريد شوقي وتوفيق الدقن ، يتعاطفون ويحقدون ويضحكون ويحزنون ! وعلى الرغم من تيقّنهم بأن ما يرونه على الشاشة مجرد تمثيل، إلا أنهم كانوا يميلون الى تصديق ما يشاهدون من أفعال يقوم بها الممثلون الذين ، يحققون في النهاية رغباتهم وميولهم !

بعض سكان الوادي ، لاسيما الموسرين منهم ، نقلوا الى بيوتهم العديد من مظاهر الأفلام والتمثيليات ، كالستائر والكنبات والمراوح والثلاجات والتلفازات وأفران الغاز ، وحتى الملابس التي يرتديها الممثلون والممثلات ، فقد قام بعض شبان الوادي بتقليدها !

(٣)

تعامل سلمان ابو بركة في تجارته بطريقة القسط المريح ، لكن الناس في الوادي ، خصوصاً الغجر ، اهتدوا الى طريقة عجيبةللحصول على النقود ! فكلما ضاقت الحياة بهم ، ذهبوا الى معرض سلمان ، واشتروا مسجلاً او تلفازاً بالأقساط ، ثم باعوه بخسارة لا تقل عن ثلث ثمنه على ان يقبضوا ذلك الثمن من المشتري نقدا وعلى الفور ! كانوا يبذلون جهداً قبل ان يهتدوا الى مشترٍ لتلك الأجهزة ، وحينما علم سلمان بهذا ، قرر إراحتهم من ذلك الجهد ، بأن صار يشتري منهم تلك الأجهزة في نفس اللحظة بما يقارب ثلثي

الثمن او اقل ، حسب المساومة ! ثم يعيد بيعها لغيرهم ! ولقد وجد في هذه التجارة المستورة ربحاً خيالياً بلا تكلفة ، وكان يشتري ويبيع دون ان تدخل هذه العمليات في سجلات معرضه !

في الشتاء يزداد الربح ، لأن حاجة الغجر للنقود تزداد ، يا الله كم يضايق الشتاء الغجر ! كم يمتص من اعصابهم ! فهو بالإضافة الى كبته رغباتهم في الرقص والغناء في افنية البيوت المكشوفة ، وبالإضافة الى أنه قطيعة رزق حقيقية ، فهو يحتاج الى مصاريف اضافية من الكيروسين والملابس الثقيلة والأغطية والمدافىء « المهم هو الدفء » يقول الغجر متفلّتين من كوابح ضيقهم ، ويتوجهون الى سلمان ، يشترون الأجهزة الكهربائية بالقسط ليبيعوها له في نفس اللحظة نقداً ، بخسارة قد تبلغ نصف ثمنها الاصلي! الشتاء هو موسم الضغط على الغجر وعلى بعض الفلاحين! أما كيف يسدد الغجر أقساطهم ، فهذا لا يهمهم ، اذ مهما بلغت الأقساط الشهرية ، فسيظل جزء من دخلهم لهم ، جزء مطّاطيّ يتم شدُّه على مسافة قدرها ثلاثون يوماً بلياليها ومناسباتها ولهاث الحاجة فيها !

(٤)

الغجر يحبون سلمان ابو بركة ، فهو المصلح الذي يفضّ اشتباكاتهم مع بعضهم ، واليه يلجأ ضعفاؤهم ويجيرهم ، ويستمد من تاريخ والده المريض ، ومن وجوده ، نفوذاً يؤهله الى التفاهم مع رجال الشرطة الذين يأخذون جماعات الغجر في سياراتهم ، ويحبسونهم في المخافر لكي يكفوا عن الاقتتال ! والغجر أبداً ، يحسون بالامتنان تجاه سلمان بل انهم اقاموا عرساً أمام بيته يوم رزق بابنه الثاني « أحمد » وغنوا له ورقصوا حتى الهزيع الأخير من الليل ، حيث تناوب سلمان ووالده اطلاق رصاصات الفرح في الهواء ، أما أم سلمان فقد زغردت أمام النسوة اللائي تجمعن في بيتها ابتهاجاً بالمولود الجديد « أحمد » !

لا يحب الغجر السجن ولا يطيقونه ! أبداً لا يطيق الغجر تلك السجون التي تكتم أنفاسهم ، وكثيراً ما يصيحون اثناء وجودهم المؤقت وراء القضبان الحديدية ! ولقد تمكن كل من « عرقي بن كيّاز » و« نشاب المبيّض » و« ناصي عامل التنظيفات » ذات مساء غارق في السهو ، من فتح باب غرفة الحجز في المخفر ، والهرب منها على الرغم من معرفتهم بأنهم لم يكونوا سجناء ، وانما مجرد محتجزين لساعات معدودة ! غير ان ما أثار رئيس المخفر ان ذويهم حمّلوه مسؤولية اختفائهم ! وتظاهرت نساؤهم وأمهاتهم بندبهم على الرغم من معرفتهن بمكان وجودهم ، ومن انهن كن يوصلن اليهم الطعام وأباريق الشاي والسجائر في مخبئهم ! حينها اضطر رئيس المخفر تحت وطأة المسؤولية المترتبة على اختفائهم ، الى استنفار رجاله الذين اهتدوا الى مكان وجودهم بفضل الموال المتألم الطويل الذي أطلقه عرقي فجأة في ذلك المخبأ الأثري في ارباض المدينة ، ولولا وساطة سلمان لمَثُلَ الثلاثة أمام المحكمة بتهمة الفرار من وجه العدالة ! « سلمان هو واسطتنا » تلك هي النغمة التي تَصَعَّدَتْ بين الغجر بعد أن تضاءلت فرص التقائهم بأبو سلمان المريض ! وسلمان هو الذي تبنّى « قضية الكنافة » الشهيرة في الوادي ، فقد اشترى الغجر في صبيحة اليوم التالي لزفاف « ناصي الكنّاس » ستين كيلو غراماً من الكنافة ليأكلوها في صباحية ناصي وعروسه المنحرفة العينين ، في ذلك الصباح توارد الغجر الى بيت ناصي ، هنّأوه وملأوا بطونهم بالكنافة ، ثم خرجوا دون ان يغسلوا افواههم ، لكي تظل الحلاوة فيها مدة أطول ، وليجدوا في زوايا افواههم وعلى مجسّات السنتهم ، مبررات قوية لتدخين السجائر التي « ما ألذّها بعد الكنافة » !

لم تمض ساعة واحدة على انتهاء الغجر من حشوهم لبطونهم حتى بدأوا يتأوهون ويتألمون ! كانوا يحسون بتمزقات والتواءات فظيعة في احشائهم ، ويتكورون حول بطونهم المطاطية بينما يقطر العرق من جباههم ورقابهم ، يومها تدخل سلمان في الأمر ، وذهب الى صاحب المطعم الذي باع الكنافة

للغجر ، واجهه بعينيه القاسيتين ، وبصوته الصلب ، وإذ لان ، واصل اقتحامه الشرس له ، فهدّده برفع (قضية تسمم) سيكون من نتائجها إغلاق مطعمه وسجنه « انا قلت لك حقيقة الوضع ، وأنت حر » قال ممعناً في ترهيب صاحب المطعم الذي اضطر الى التفاهم معه ، ودفع الدنانير اللازمة لإسكاته ولإسكات الغجر الذين عالجوا بطونهم بالأعشاب البرية ، وحينما عاد سلمان الى الوادي اعاد الى « ناصي » المبلغ الذي دفعه ثمناً للكنافة ، ودفع لكل متسمم ديناراً ، الصغير والكبير والمرأة والرجل والعجوز ، وكان كياز الغجري اكثر المنتفعين من تلك التعويضات لأن كلّ أفراد اسرته تسمموا ، وقبض بالمقابل ثمانية دنانير دفعة واحدة ! وتمنى عدد من الغجر الذين فاتتهم حيلة التظاهر بالتسمّم ، لو انهم تنبهوا منذ البداية الى الفكرة ، بينما تمنى عدد آخر من الغجر لو انهم تسمموا فعلاً لكي يحصلوا على تعويضات اكثر ، غير أن ما ازعج سلمان ، تلك الاشاعة التي ترددت في الوادي وانتشرت بسرعة بين الفلاحين ، حيث قيل بأنه وزّع على المتسمّمين نصف المبلغ الذي حصل عليه و« حِط الباقي في جيوبه » واذ علم بتلك الاشاعة ، زفر بمرارة وقال « هذي آخرتها ، خير تفعل ، شر تلقى » !

* * *

نزار أبو خنجر

٩٧

(١)

لم يكن للمدعو « نزار الزّقي » دور في حياة السكان من قبل ، فقد جاء الوادي قبل وصول التيار الكهربائي بعامين فقط ، واشترى بيتاً من أحد الغجر الذين ملوا الحياة مع الفلاحين ! كثير من الغجر ملّوا تلك الحياة الطارئة ، فباعوا بيوتهم بأثمان بخسة ، وعادوا الى حياة الخيام ، حياة الفلاء !

نزار الزقي رجل أسفع البشرة ، غليظ الهيئة ، وربما القلب ايضاً ! لنزار الزقي وجه حرذوني ورقبة غليظة ، وجسم ممتلىء ضخم لا يتناسب ورأسه الحليق الذي يبدو للوهلة ، صغيرا !

ما يدعو المرء الى تذكر نزار ، هو تلك السن الشاغية الرمادية في فمه ، ان تلك السن ، لفرط تميزها عن غيرها ، لتكاد تدعو المرء الى حصر اهتمامه في ذلك الموضع من جسمه وكيانه : فمه ! لذا فإن أحاديثه مسموعة ، وكلماته واضحة لا لبس فيها . بيت نزار ، ملاصق تماماً لبيت سبلو الفأر من الناحية الشرقية ، غير ان ذلك الجوار لم يسفر عن أي نوع من الصلة بين الرجلين ! لماذا ؟ لا مكان لهذه الـ « لماذا » في تفكير أي منهما ، فسبلو الغجري يعيش في عالم مختلف عن ذاك الذي يعيشه ذلك « الفلاح » ! ونزار فكر جاداً في فترة من حياته الصاخبة في الوادي ، بأن يبيع بيته ويرحل ، فقد اكتشف أنه من المستحيل ايجاد حل لمشكلة الضجيج الذي يسببه اولاد الحارة له أثناء لعبهم

بجانب بيته ! هو لم يفطن الى ذلك الضجيج الا بعد ان « وقعت الفأس في الرأس » واشترى البيت !

لكن حادثة « الحمار » أفادته ومكنته من تخفيف حدة الصخب الذي أقضّ مضجعه ! وحكاية « الحمار » تتلخّص في أن حماراً توقف امام دار نزار ليلاً ، وبدأ ينهق في الوقت الذي كان الرجل فيه مستلقياً على فراشه بعد جولة متعبة من العمل في سوق الخضار الرئيسي ، واذ ازداد النهيق فزَّ من فراشه حانقاً ، وخرج ليطرد ذلك الحمار ، وحينما اقترب منه ، رفسه بحافره ، فتمزق بنطال منامته عند منطقة الركبة التي احمرت وانتفخت على الفور ! هنا عاد نزار الى بيته ، واستل خنجره من تحت فرشته ، ثم خرج راكضاً وسط دهشة زوجته الهادئة (هادية) ! كان الحمار قد توقف عن النهيق حينما خرج بخنجره ، غير ان آلام رفسته ظلت تنقر دماغ نزار ، وتبثّ في نفسه رغبة عجيبة في الانتقام من ذلك الكائن الذي آذاه على الرغم من أنه : حمار ! ما أن غرز خنجره في بطن الحمار ، حتى جعل يركض ويقفز متمسكاً بذيول روحه الهاربة ، بينما لم تتوقف الدماء عن التدفق من بطنه المشقوق ، ومن امعائه التي اندلقت على الحصى ، قبل ان يرتمي على الأرض ميتاً .

كل سكان الوادي عرفوا حكاية الحمار المطعون ، لكن الاولاد بعدها صاروا يلعبون بعيداً عن بيت نزار ، حيث حذرهم أهلوهم من الاقتراب من هذا « النزار » لأن عقله « تريلّي » هكذا وصف السكان عقل نزار ! أما هو فقد حقق بعض راحته ، واستقبل بعدها ، بشيء من الارتياح لقب (نزار أبو خنجر) الذي اطلقه السكان عليه بعد تلك الحادثة .

(٢)

هل طعن نزار الحمار بدافع مع انفعاله حينئذ ؟ أم أنه أراد ابراز صورته غير الواضحة في الوادي ؟

وقيل في الوادي ، ان من يطعن الحمار لا يتورع عن طعن الانسان ، قيل ان في عقل نزار مسّاً ، والا « كيف يطعن الحمار ؟ » قال السكان اشياء كثيرة عنه وعن الحمار ، وضحكوا كثيراً ، وسخروا كثيراً ، لكنهم ايضاً ، تخوفوا من وجود نزار أبو خنجر في الوادي .

(٣)

لا يعثر نزار على نفسه إلا في سوق الخضار الرئيسي ، حيث الرائحة التي لا تفارق أنفه ، رائحة الخضار والفاكهة والشمام والبطيخ ! ما ان يدخل ذلك السوق ، حتى يمتلىء صدره بأحاسيس التميز التي تدفعه الى ارتكاب تسلياته اليومية : يمازح الحمالين والسواقين مستخدماً يديه القاسيتين ، وذراعيه الغليظتين ! يضربهم ، يلوي أياديهم وأذرعهم ، لكنهم يحتملون ! ربما يجدون أنفسهم أمام ضرورة احتمال ذلك النوع القاسي من المزاح الذي يلجأ إليه كلما وجد نفسه بينهم . أكثر من هذا انهم يطيعونه ! ويملأون له سيارته البكب الكحلية بصناديق الخضار والفواكه : « خلينا نخلص من شره » يقولون فيما بينهم ، ويعقدون المصالحات بين الرايات المسالمة لضعفهم ، وبين السنان الحادة لقوة نزار ابو خنجر ، ولذلك الفم الفاغر الهائل : الحياة !

(٤)

ما يزيد من خوف اولئك الحمالين والسواقين أن نزار يجلس وموظفي المحلات والشركات في السوق ! يجلس ايضاً مع اصحابها وحتى مديريها ! ويتحدث واياهم في شؤون الحياة والخضار والسيارات ، ويفاضل مثلهم بين أنواع السيارات ويقرر مثلهم بأن المرسيدس هو سيد السيارات ، وبأن الأبيض هو سيد الألوان ! ويوافقهم في أحاديثهم المتعلقة بنقص أمطار

المواسم ، او ازديادها واحتمالات غلاء أسعار الخضار ، وكساد السوق ، وبطر المستهلكين ! ويحترمونه ! كل موظفي السوق يحترمون نزار أبو خنجر ، ويطلبون له الشاي والقهوة من مقصف السوق ، فيحس بتميزه عن السواقين ! لأمر ما ، يتميز ذلك الرجل عن غيره ، ويمسك بسهام حظه الهارب ، وانتكاسات أيامه المسحوقة تحت مداحل الساعات في « ورشة الشرق الاوسط لتصليح السيارات » .

لقد عمل في تلك الورشة لسنوات انتهت بقتال مع احد اصحاب السيارات ، ولولا تدخل عمال الورشة في ذلك القتال، لأنقضّ على صاحب السيارة الأصلع ! غير ان ذلك الأصلع ، صار صديقاً حميماً له ! بل اشترى له « البكب » الكحلي ليشتغل عليه مناصفة ، ثم سجله باسميهما مناصفة ايضاً ! وكان من الممكن ان تتطور علاقتهما ، لكن نزار أحس بعد أشهر من استلامه « للبكب » ، بأنه هو المالك الوحيد له ، فزيّنه بالأضواء الحمراء والخضراء والزرقاء من الامام والخلف ، وألصق عليه الكثير من القطع الفوسفورية والبلاستيكية التي تحمل عبارات « محروسة » و« سارحة والرب راعيها » و« حبيبي سلامتك » و« كايدهم وحياتك » و« عين الحسود فيها عود » أمّا صاحب « البكب » ، فاكتفى اخيراً بالفتات الفائض عن حاجة نزار المتبرّم من « قلة الأحمال » و« التصليحات الكثيرة المكلفة للبكب » و« تكاليف الكاوتشوك الجديد » و« ارتفاع اسعار الديزل » حتى أنه اضطر في النهاية الى القبول بدخل شهري قدره عشرة دنانير من ذلك البكب .

(٥)

في السوق ينسى نزار كل هذا ويتذكر لحظته المشحونة بالقوة والتميز ، وبامتلاكه الصارم لنفسه التي لم تحقق سطوتها وتميزها ، إلا بعد صراعات مريرة مع السواقين والحمالين ، بل ان العاملين في السوق يعتقدون بأنه هو

الذي ارتكب جريمة قتل « مسعود البشر » لأن الصراع بينهما كان مكشوفاً قبل مقتل « مسعود » الذي مات ميتة لا يتمناها المرء حتى لألدّ اعدائه ! فقد وجدت احدى دوريات الشرطة في أحد الأصباح رأساً مقطوعة بجانب سيارة « بكب » بيضاء اللون ، وإذ اطلوا من نافذتها مستطلعين ، شاهدوا بذعر جثة مسعود البشر متكئة على المقود بلا رأس ! وبعد التشريح تبين بأن الجريمة ارتُكبت ليلاً ، وقالوا بأن كل سائقي السيارات التي عبرت طريق الجريمة المؤدية الى التقاطع الشرقي ، لا بد وان شاهدوا تلك الرأس المتدحرجة بجانب العجلات الأمامية للبكب ، غير ان الناس لا يحبون التبليغ عن الجرائم ، رجال الشرطة يدركون هذا ، ويدركون ان التبليغ عن أية جريمة ، سيضع المبلغين في دوامة س. جـ. وسيتم استدعاؤهم كثيراً ، وسيجلدهم رجال الشرطة اذا لم يعثروا على مرتكب الجريمة ، لأن شخصاً ما يجب أن يُجْلَدَ طالما أن هنالك جريمة قتل ! في اليوم التالي للجريمة استدعت الشرطة نزار ، بعد أن تنامى الى أسماع رجالها خبر صراعه الطويل مع«مسعود البشر»،وتم جلده ، ثم احتجازه لثلاثة ايام بلياليها ، حيث تمكنت زوجته هادية من زيارته بعد ان ضيَّعَتْها شوارع المدينة ، ولما شاهدته وراء القضبان حدرت الدموع من عينيها ، فشاركها البكاء متجاهلاً النظرات الفضولية للشرطي الذي كان يذرع الممرّ جيئة وذهاباً، وتساءل بعد أن غادرته زوجته، عن السبب الذي دعاه الى البكاء المكتوم وراء القضبان الباردة ! غير أن صرير المفتاح في قفل الباب ، قطع عليه فلسفاته تلك ، إذ قال له الشرطي « افراج على ذمة التحقيق ، وسنطلبك اذا احتجناك » والتحقيق امتد شهوراً وشهوراً في المحكمة ، دون أن يتم اثبات التهمة على أحد !

(٦)

لنزار زبائن دائمون ، انهم بائعو الخضار في الوادي ، فهم يحمّلون الصناديق التي يشترونها من السوق المركزي في بكب نزار بآلية غريبة ، أما

السائقون الآخرون ، فلا يجرؤون على الاقتراب من أولئك الزبائن !
كيف يُحقّق كل هذا !؟ للعمل أحكامه مثلما لذلك الاعتقاد السائد في السوق بأن نزار هو الذي قتل (مسعود البشر) أحكامه أيضاً ! ولعل خير ما يفعله السواقون الآخرون ، انهم لا يقتربون من زبائنه أثناء جولات التنافس المرّ فيما بينهم .

(٧)

الخطوة الهامة في رحلة نزار الطويلة مع الحياة ، لم تتحقق الا بعد افتتاحه محل « النوفوتيه » بالقرب من معرض سلمان أبو بركة ، لكن الفضل في هذه الخطوة الهامة ، انما يعود الى زوجته الهادئة (هادية) ، فذات ليلة هادئة ، صفا خلالها الليل له ، فصفا هو لزوجته ، قال لها بأن مهنة السواقة أتعبته ، فلم يعد راغباً فيها !
تلك كانت المرة الأولى التي يشرك خلالها زوجته فيما يفكر ، فقد عوّدها منذ ليلة زفافه منها ، على احتمال فظاظته وحِدَّة طبعه ، عوّدها أيضاً على الارتجاف هلعاً لمجرد اشتمام رائحة غضبه ، نزار عوّد زوجته على الكثير من الأمور التي لم تكن تعرفها في بيت والدها ، وهادية احتملت ، وتعودت ! ففي ليلة زفافه منها ، أغلق باب الغرفة خلفه بقوة ، ثم خلع بدلته البنية متجاهلاً دموع عروسه التي حدرت على خديها ، واذ رأت لفائف الشعر الأسود على ساقيه وصدره ، جفت دموعها ، وانقلب حزنها جزعاً ورهبة ، أما هو فَفَدَّ في وجهها بفظاظة جزار « ماذا تنتظرين ؟ إخلعي ثيابك ! » واذ تلكأ الوجل في صدرها « خلّصيني يا مخلوقه ! » فَدَّ في وجهها ثانية ، فانكمشت ، تراجعت الى زاوية الغرفة ، ارتجفت ، لحقها ، امسك بذراعها الرفيعة ، شدها اليه ، آلَمَها ، اشتمت في انفاسه رائحة التبغ ، وفي بدنه رائحة الذكورة ، عرّاها ، لملمت اطرافها ، احتضنت نفسها ، وحين القى بها على السرير ، اطبق على كل ما تبقى من أنفاسها التي انكتمت منذ تلك الليلة .

(٨)

بعد أن رزق نزار بابنه الأول « ضرار » ذكّر زوجته بحضور سطوته ! هو لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، انما بدافع من فحوى الحكاية التي سردها أمامه احد موظفي سوق الخضار ، عن خيانات زوجية ترتكبها احدى نساء حارته في غياب زوجها ! لقد احس بأن تلك الحكاية تعنيه بشكل ما ، وبذل المزيد من جهود السيطرة على دمائه التي غلت واضطرمت أثناء سماعه تلك الحكاية ، وحينما انتهى الموظف من سرد التفاصيل ، اطرق ثم قال للموظف « بإذنك ، انا متعب ، سأعود الى بيتي » والحقيقة أنه لم يكن متعباً ، وانما اتجه الى بيته هرباً من حريق مفاجيء شب في صدره ، إثر إخفاقه في احتمال الخاطر الذي دهمه فهز رجولته من قيعانها العميقة « لا يؤتمن للنساء » ! قال في نفسه ، وفي الطريق ردد « وما أدراني بالذي تفعله زوجتي هادية في غيابي ؟ » واذ وصل بيته ، دفع بابه الحديدي بقوة ليفاجيء زوجته التي كانت تلقم ابنها زجاجة من الحليب الجاف المذاب « لماذا لا تسترين صدرك » صاح بها حال رؤيته ذلك الخط الصغير الفاصل بين نهديها من الأعلى ، بينما دهمه احساس غزير بالكراهية تجاه زوجته التي جف حليبها بعد أسبوع واحد من ولادتها لإبنها ! وحينما لاحظ بنفور ، ضمور صدرها تحت ثوبها الأزرق الشفاف ازدادت كراهيته المفاجئة لها « لكن دارنا غير مكشوفة » قالت له بجزع . وعلى الرغم من معرفته وتيقنه من اخلاصها الأكيد له ، إلا أنه بادر الى صفعها على وجهها بعد استحكام ذلك الاحساس في أعماقه الساخطة !

لأمر ما ظل يصفع زوجته هادية التي خرجت عن هدوئها ، فصاحت مستنجدة ، وحين لم يستطع اخماد انفجارات صوتها ، لوى ذراعها بقوة ، فأحس بطقطقة عظام زندها الأيمن الذي ظل بعدها ملوياً ، على الرغم من المحاولات التي بُذلت لتصحيحه في اثنين من مستشفيات المدينة ، وعلى يدي المجبر العربي ! ونزار بحث عن تبرير لما فعله بزوجته ، فقال في نفسه « يجب

أن تحسب حسابي ، يجب أن أُذكِّرها دائماً بأنني نار ، نار ، لكي لا تفكر ولو مجرد التفكير باللعب من ورائي » ثم فكر من جديد ، متسللاً من لعنة الاشفاق المفاجىء الذي دهمه حينما شاهد الإغفاءة البريئة في جفني زوجته المستلقية على السرير الأبيض : « سأُرضيها » ! ويوم أعادها الى البيت قرر : « سأشتري لها إسوارة » وابتسم لقراره دون أن يفصح لزوجته عن الأسباب التي دعته الى اتخاذ ذلك القرار .

(٩)

نزار أبو خنجر مسؤول عن الالتواء الدائم في ذراع زوجته هادية ، هذا ما يقوله ابو سلمان الذي فاتته فرصة إصلاح الأمور ، بسبب وصوله المتأخر الى بيت نزار ، هذا ما يقوله ايضا كل من : كياز الغجري وزوجته سمار ، وهاجار ابنة سبلو ، وخليل الشايب ، وعزو وزوجته وأولاده ، وعرقي ، وخلدون ، ونشاب المبيِّض ، وحسان صَبَّاب الجبس ، وناصي الكناس ، وموزة زوجة عزو الأولى ، والشيخ تركي زوج موزة الثاني ، ونظما زوجة الشيخ تركي الثانية ، كلهم يقولون بأن نزار أبو خنجر هو السبب ، كلهم سمعوا صيحات هادية واستغاثاتها في اللحظات المزهقة ، وكلهم شاهدوا الدماء التي ثَرَّت من فمها عندما حملها الى سيارته البكب ، ثم الى الطبيب في عز الظهيرة « هكذا ! » سأله الطبيب يومها بتأثر فأجاب « هكذا يا دكتور » « بدون سبب يا أخي » « يا دكتور ، المرأة وقعت على الدرج فحملتها وجئت بها اليك ، هذا كل ما حصل ! » لكن نبرات صوته ، ونظراته المفاجئة المسلطة نحو زوجته هادية ، اغلقت منافذ الهواء في أنفها الدقيق وفمها الصغير للحظات ، وانستها في تلك الظهيرة الحارة بأن الكلام ممكن ، وأن الاحتجاج ممكن ، كل الامكانات غابت عن هادية حينئذ ، ودارت الاشياء امام عينيها ، دار نزار بسنه الرمادية ، دار الطبيب والجدران والمقصات ولفائف الشاش

وزجاجات الأدوية ، وإذ أفاقت من غيبوبتها ، وجدت نفسها ملقاة على سرير أبيض في احدى غرف المستشفى ، حيث تمت معالجة الكسر الفظيع في عظمة زندها الأيمن بالجبس ، وبعد الفحص ، تبين بأن الجبس لُفَّ بطريقة خاطئة حول زندها المكسور ، مما ادى الى التوائه ! واذا اكتشف نزار ذلك الخطأ ، نقلها الى مستشفى آخر ، حيث اعيد كسر وتجبير زندها الرفيع ثانية ، إلا ان الممرضين والممرضات أخطأوا ايضاً في إعادة اللحمة الى العظم ، بدليل ان زند هادية عثم دون ان يستقيم ، مما زاد من تصدعات نزار النفسية ، وفي محاولة منه لرأب تلك التصدعات ، اصطحبها الى بيت المجبر العربي ، فكسر زندها من جديد وأعاد تجبيره باستخدام البيض والدقيق وشرائح الأخشاب التي ساهمت في تعديل الالتواء دون أن تعيد الزند الى حالته الطبيعية !

(١٠)

كان نزار يعتقد بأن جمال وجه هادية ، لا يكفي لاستمرار عطائها الجسدي له ، فنهداها الصغيران وخصرها النحيل وفخذاها الرفيعتان ، هذه كلها لا تثير فيه ذلك الاحساس الراجف المبهم بالرغبة ! كثيراً ما عدل عن مضاجعتها بسبب انتباهه الى بروز عظمتي حوضها ، وبذل جهدا كبيراً من أجل إثراء جسدها لأن « المرأة يجب ان تكون ممتلئة الجسد وخصوصا الصدر ! » كان يقول لها ، ويواصل مشيراً باصبعه الى صدرها المائي الضامر « ما هذا ؟ » وكان يحضر لها العسل البلدي ، والسمن البلدي ، واللبنة والجبنة البلديتين من قرى الشمال ، ويوصي المزارعين الذين يلتقيهم في سوق الخضار ، يوصيهم بأن يحضروا له من قراهم ، الزغاليل والبيض والزبدة واللبن الطازج ، وكانوا يستجيبون له آملين الاستفادة من تأثيره على موظفي الدِّلالة الذين يستطيعون رفع اسعار منتوجاتهم الزراعية « يجب ان تأكلي جيداً يا هادية ، لكي يصير لي نفس فيك » يقول لزوجته ، ويفكر « ستصبح هادية

امرأة حقيقية في الفراش اذا استجابت واهتمت بأكلها ! » غير ان شهيتها استعصت على الخروج من بئر البدايات المرعبة لليلات الزفاف الأولى .
كان الزواج في خيالها ، بداية مؤهلة لحذف سنين القحط في جسدها ! لم تتوقع بأنها ستتحول الى مجرد منفذة لتعليمات رجل تجمّدت رغباته بعد عامين من زواجه منها « أهذا هو عالم الرجال ؟ » « أصحيح ان كل الرجال مثل نزار » ؟ تتساءل هادية كلما تذكرت اللهاث الخلّب لزوجها الذي لم يعد يحسن إذ يضاجعها ، غير اللهاث والبحص والاندلاق ! ولهذا نقل غرفة نومه وزوجته ، الى الغرفة المخصصة للضيوف، وحينما بنى الطابق الثاني، انتقل بزوجته وكل متاعه بعد ان أجّر الطابق الأول لأحد الغجر الذين تزوجوا حديثاً . هو لم يذكر امام هادية سبب اختياره للغرفة المعزولة في الزاوية الغربية كمكان خاص لنومهما ، غير انها ادركت بأنه ما فعل هذا إلا لكي يصنع فضاء مغلقاً للهاثه كلما فشل في استحضار ذكورته السلحفائية ! تلك الذكورة التي لا تأتيه إلا بعد محاولات وانسحاقات جسدية مهلكة !

(١١)

نزار لم يجرؤ على بناء الطابق الثاني فوق بيته الا بعد ان قام أبو سلمان ببناء طابقين جديدين لولديه سلمان وجبر ، فوق بيته الأساس ! فقد ارتفعت جدران ذينك الطابقين الى حد تعذر معه وصول الشمس الى بيتي سبلو ونزار أبو خنجر من الظهيرة الى الغروب ، واحتج نزار مستخدما كل دهائه وسطوة صوته الخشن المرتفع ، وحينما زجره ابو سلمان تقدم بشكوى الى المخفر ، لكن المخفر لم يحرك ساكناً بسبب من انعدام التنظيم في الوادي من الأساس ، ونزار لم يستطع السكوت حينما رأى اصرار ابو سلمان على إتمام ما بدأه ، وتوصل في النهاية الى قرار ببناء طابق جديد بحثاً عن الشمس ! لم يمض اسبوعان على ذلك القرار حتى بدأت فوق بيته ورشة جديدة وأعمدة اسمنتية

تحمل بشموخ قضبان الحديد الغليظة ، وبعد أربعة أسابيع انتهى البناؤون من اتمام الطابق الجديد المكون من غرفتي نوم وصالة ومرحاض ومطبخ ، كما قام بتزويد ذلك المطبخ بخزائن خشبية بنية ، ابتاعها بثمن رخيص من مزاد علني أجري في قاعة الجمرك ، على بضاعة لم يتمكن مستوردها من دفع رسوم جماركها ، ولقد احس نزار بشيء من الندم ، لأنه لم يقدم على خطوة البناء منذ زمن ، حيث عرف كغيره من السكان ، بأن بناء طابق آخر ممنوع في الوادي حسب القوانين السائدة ، لأن الناس لا يملكون اوراق « طابو » واذ بدأ أبو سلمان بالبناء لم يعترض مراقبو الأبنية « اذن فالبناء غير ممنوع ! » قال في نفسه ، ثم التقى وأبو سلمان ، وأيده في أحاديثه مع أولئك المعترضين على البناء ، ثم قام بتمتين علاقته الحذرة مع ابو سلمان وابنه سلمان ، بأن زارهما كثيراً في بيتهما ، وتجاهل مراراً النظرات المزدرية التي سلطتها عينا جبر ابو بركة اليه .

(١٢)

مثلما منعت بناية ابو سلمان الشمس من دخول بيت سبلو من الظهيرة الى الغروب ، فإن الطابق الذي شاده نزار ابو خنجر ، منع الشمس ايضاً من دخول بيت سبلو من الفجر الى ما قبل الظهيرة بقليل ، واحتجت هاجار على ذلك ، لكن « هيهات ، فالجدران اقيمت ولا سبيل الى هدمها » قال لها ابو سلمان و« هذا بيتي وأنا حر فيه » قال نزار ! حينها قررت اقامة طابق جديد ايضاً ، مثلهما تماما « اسمع يا سبلو ، طالما انهما منعا الشمس عن دخول بيتنا ، فسنبني طابقاً جديداً » قالت له فاستنكر « طابق جديد ؟ لماذا ؟ » « لكي تدخل الشمس بيتنا ! » « وما لنا وما للشمس يا هاجار ! » .

(١٣)

حينما باشر البناؤون برفع جدران الطابق الجديد فوق بيت سبلو :

اكتشف كياز الغجري وعدد آخر من الغجر ، بأن هاجار بفعلتها تلك ، ستحجب ما تبقى من بصيص الشمس عن بيوتهم ، لكن الغجر كانوا يدركون بأنه أُسقط في يد سبلو ، وأنها هي صاحبة القرار لاسيما وأنها تموّل البناء ، قالوا لها « يا هاجار عيب ، نحن ابناء ملّة واحدة ، لا تسرقي الشمس منا » « ولماذا لم تعترضوا على بناء ابو سلمان او نزار ، ألم يسرقا منا الشمس ؟ » « أنت تعرفين أبو سلمان ونزار » غير ان احتجاج كيّاز ، أخذ طابع العتاب اللين الذي دلّل على ما يكنّه من محبة غامضة لها ، أما الغجر الآخرون فلم يبقوا باباً الا وطرقوه من اجل منعها من مواصلة البناء ، وقال احدهم حينما رأى الطابق الجديد فوق بيت سبلو « وهاجار أتيس مني ؟ أي والله لأبني طابقاً ثانياً فوق بيتي ! » وبدأ برفع الجدران ، فحجب الشمس عن بيتين آخرين ! يسمون تلك الفترة من عمر الوادي بـ (فورة البناء) فقد انتقلت عدوى البناء من بيتٍ لآخر ، كانوا جميعاً يبحثون عن شمس الوادي الهاربة ، وتحول الوادي الى ما يشبه الغابة التي تتطاول اشجارها وتتسابق بحثاً عن الشمس ، وتحولت البيوت الوادعة الى ورشات بناء ملأى بالاسمنت والرمل والقضبان ، وظهرت معالم جديدة في الأزقة ، وفوق البيوت ، كأدراج الحديد اللولبية الصاعدة التي تصل بين طابقين او اكثر ، والتي استخدمها الناس للتغلّب على مشكلة ضيق المساحات ، وظهرت أيضاً الشبابيك الواسعة المختلفة عن النوافذ الصغيرة في الطوابق السفلية ، كما ظهرت (الكينارات) وهي الخطوط اللونية الملتفة بشكل عرضي حول البيوت لتجميل مظهرها الخارجي ، والأهم من هذا ان الشرفات الضيقة المعلقة المحمية بالافاريز الحديدية ظهرت الى الوجود ، وصار الناس يتشمّسون ويسهرون ويرقبون المارة وهم مستندين بأذرعهم الى حواجز وأفاريز الحديد ، لكن ما تميزت به (فورة البناء) ، ان السكان الذين تربط بينهم اواصر القربى ، والذين تتلاصق بيوتهم في الغالب ، لجأوا الى تلوين بيوتهم بلون واحد ، واعطائها اشكالاً خارجية متقاربة ، فهنالك على الجانب الجنوبي ، الى الغرب من التقاطع تتجمع

البيوت الزرقاء اللون ، والتي تخص آل (قتّال الضبع) وقد لقبوا بهذا اللقب لأن واحدا من اجدادهم تمكن من صرع ضبع في احد الطرق الزراعية ليلا ؛ الى الغرب من بيوت آل قتال الضبع ؛ هنالك تسعة من البيوت ذات الشرفات الزجاجية تخص عائلة « جبيلان » ثم بيوت آل خيط الذباب (وتلفظ في الوادي خيط الذبان) ويتميز افراد هذه العائلة بالطول المفرط والنحافة الشديدة ، ثم هنالك مجموعة البيوت ذات الألوان السكّرية « والكينارات » البنية التي تخص بني الزعابير ، ويتميزون بأصواتهم المرتفعة ، الى الغرب من بيوت بني الزعابير ، تتجمع بيوت عائلة الخلق ثم بيوت بني السماكرة والوعل الأعمص ، وعائلة الفسيخات ، وآل الطش ، والبس ، وابو كتف ، والأحوال ، والهر ، فكلها تتلملم على الجانب الشمالي من الوادي ، بما في ذلك بيوت آل أبو بركة التي تجمعت الى الغرب من بيت ابو سلمان ، والتي تميزت بألوانها البيضاء ، وكيناراتها الحمراء ، وشرفاتها الحديدية السوداء .

(١٤)

بيوت الغجر تجمعت ايضاً في منطقة واحدة ، الى الشرق والشمال من بيت ابو سلمان ، لكن الغجر لم يلتفتوا الى ضرورة التشابه ، وقام كل منهم بتلوين بيته وتشكيله حسبما شاء . أما البيوت المتفرقة الموزعة بين التجمعات الشمالية والجنوبية ، فما اكثرها ، وهي تضم اناساً لا ينتمون الى الأسر المعروفة في الوادي ، ومما يلفت الانتباه ان سكان الوادي الصقوا بأصحاب تلك البيوت المتفرقة القاباً كثيرة ، مستوحاة من المهن التي يمارسونها ، فهنالك بيت النجار ، ثم الخزاف ، والفوال ، والجابي ، والعربنجي ، والمواسرجي ، والمطعمجي ، والبواب ، واللحام ، والحداد ، والدهان ، والاستاذ . . .

(١٥)

كان البناء رخيصاً ، وكان السكان يستنفرون أقاربهم جميعاً من اجل مساعدتهم في العمل ، فلا يحتاجون لغير (الطوبارجي) الذي هو المهندس والرسام والبناء والمراقب و« سبحان الله ميسّرة ، المهم هو ان ينوي الانسان وحينما يبدأ بالبناء فإن الله يفتحها في وجهه » كانوا يقولون ! لكن كيف كان الله يفتحها ؟ لا احد يستطيع تحديد ذلك ! ربما يقصدون مساعدة الآخرين ، او الدائنين، او التسول ، او دفع الأبناء الى تقاطعات المدينة لكي يمسحوا السيارات أو يبيعوا العلكة او الشوكولاتة ، والمهم ان الأمور ميسّرة مع البناء ، هذه واحدة من مسلمات السكان في الوادي . . .

* * *

هاجـــار

(١)

قالت هادية لزوجها نزار ، يوم فاتحها برغبته في تغيير مهنة السواقة ، « ما رأيك في أن تفتح محلا للنوفوتيه » ؟ ثم أردفت « لا توجد محلات نوفوتية في الوادي » « في الوادي ثلاثة محلات لبيع الملابس يا هادية » قال لها فردت « هذه دكاكين صغيرة يبيعون فيها الملابس الرخيصة ، أنا أقول نوفوتيه ! » وكانت هادية تستند الى ما تراه من معارض للملابس كلما ذهبت لزيارة أهلها في أحد أحياء المدينة « انا واثقة من انك ستنجح يا نزار » « ولكن ما أدراني بمثل هذه الأمور يا هادية ؟ » سألها فردّت مُذكِّرة بما تعلمته في بيت والدها الذي عمل في بيع الملابس فترة طويلة « أنا اعرف ، هل نسيت ان والدي كان بائعاً للملابس ! » ونزار قال لها بلهجة متوعدة « لا أظنك تريدين العمل في النوفوتيه ؟! » فردّت « طبعاً لا ، ولكنني استطيع المساعدة كثيراً وأنا هنا ، في بيتي ! »

(٢)

تلك كانت فاتحة عهد جديد في حياة هادية وحياة نزار الذي بلغ به الملل مبلغاً آثر معه الخلاص من مهنة سواقة البكب ، وصار ميالاً إلى الهدوء الذي لم يكن له عهد به ، وحينما توصل الى قناعة تامة بأن المستقبل للتجارة لا

للسواقة ، باع حصته من البكب لشريكه واستأجر محلاً قريباً من مقهى سلمان ابو بركة ومعرضه ، ثم بدأ بإحضار الملابس النسائية والرجالية والولادية على اختلاف انواعها ، تعينه في ذلك زوجته التي تحدد له الكثير من اولويات البضاعة المطلوبة .

(٣)

بافتتاح « نوفوتيه نزار » ظهر تطور آخر في الوادي ، اذ التفت الكثيرون من السكان ، كعادتهم ، الى هذا النوع من التجارة ! من عادة الناس أنهم ميالون الى تقليد بعضهم ، وليس ادل على هذا ، من ذلك العدد الهائل من الدكاكين التي فُتحت تباعاً عند التقاطع الشرقي وعلى امتداد الوادي ، ثم ذلك العدد من محلات بيع الأواني المعدنية والبلاستيكية ، ومحلات بيع القماش ، ومواد البناء ، واللحوم ، والاسماك ، والخضار ، والمحامص ، وصالونات الحلاقة ، وأكواخ السمكرة، وتصليح الأحذية ، ومحلات كي الملابس والمطاعم !

كان « الفلاحون » يتنافسون فيما بينهم على كل ما يمكن بيعه في الوادي ، لكن ذلك التنافس ادى الى كساد عدد من الضائع المهمّة كالقماش الذي بلغ عدد محلات بيعه ثمانية اضطر أصحاب ثلاثة منها الى إغلاقها ، والبحث عن وظائف حكومية وخاصة بسبب من كساد بضائعهم ، كما بلغ عدد محلات بيع الأواني ستة محلات شكلت بتقاربها مع بعضها ما يشبه التجمعات التجارية المتخصصة ، غير ان الوادي لم يستوعب ذلك العدد من محلات الأواني ، لذا اضاف اصحابها الى تجارتهم ، المواد البلاستيكية والحبال وخراطيم المياه والفراشي والمكانس والأحزمة الجلدية والشباشب والأحذية البلاستيكية وأدوات المطابخ والكثير الكثير من البضائع التي لا يمكن لأحد ان يجازف

بافتتاح دكاكين خاصة ببيعها دون غيرها ، اما دكاكين السمانة فبقيت كما هي باستثناء ثلاث منها لم تتمكن من الصمود بسبب مواقعها وراء بيوت المنعطف الغربي المتباعدة ، ولقد ادى نجاح المحلات الواقعة عند الشارع الشرقي حيث السوق ، الى ارتفاع اجورها ، والى تنافس السكان على امتلاك المحلات واستئجارها في ذلك الموقع المهم في مقدمة الوادي ، أما محلات النوفوتيه ، فتوالدت بعد ان قام نزار ابو خنجر بافتتاح اول محل للنوفوتيه في الوادي ، واحتدم التنافس بين اصحاب تلك المحلات ، ولجأوا الى العديد من الحيل من اجل تدمير بعضهم ، سواء من خلال خفض الأسعار ، او اقراض الزبائن ، او نشر اشاعات « ملابس الأصلي ومـلابس التقليد » واشاعات « المستورد والمحلي » لكن نزار ابو خنجر استطاع ان يبرز في الوادي بشكل لم يتوقعه أي من أصحاب المحلات التي حملت اسم النوفوتيه ! وربما يعود الفضل في نجاحه ، الى زوجته هادية ، التي تمكنت من التعرف على اذواق الغجر ، فدفعت زوجها الى المجازفة بشراء كمية من الصدارات الزاهية الألوان ، واذ استقطبت تلك الصدارات بعض شبان الغجر ، اشتروها ولبسوها ، ثم توجه عدد آخر منهم الى « نوفوتيه نزار » من اجل شراء صدارات مماثلة ، وحينما نفدت ، ابتاع نزار كل ما تبقى لدى تاجر الجملة من تلك الصدارات ، واكتشف بأن هنالك لونين لم يشاهدهما في الكمية الأولى ، هما الأخضر المحملق ، والليلكي الغامق ، لذا عمد الى عرض هذين اللونين دون غيرهما على واجهة محله الزجاجية ، ممّا زاد من افتتان الغجر ، فتزاحموا على شراء تلك الصدارات التي نفدت بسرعة ، ايضاً ! والطريف ان تلك الصدارات ميّزت شبان الغجر عن الفلاحين ، كما حملت بعد انتشارها بين شبان الغجر اسم « صدارات أبو خنجر » اما اصحاب محلات النوفوتيه الأخرى ، فأغاظهم نجاح نزار وجازفوا منفردين بشراء كميات من الملابس الغريبة التي كسدت في محلاتهم ، فأسهمت في اضعافهم ، فأسهم ضعفهم هذا في تقوية مركز نزار ابو خنجر ، باعتباره تاجراً مرّاً في الوادي .

(٤)

حقّقَتْ ضربة الملابس الزاهية لنزار ما لم يحلم بتحقيقه ، وتحول اسمه في الوادي ، الى ما يشبه الدمغة التي تحمل دلالة الاصالة ! وصار الغجر يتفاخرون فيما بينهم قائلين بأنهم يشترون ملابسهم من نزار الذي استطاع بتوجيه من زوجته ، ان يستثمر فرصته هذه بشكل دلّل على فهمه أو فهم زوجته العميق للأصول التجارية ، فقد استأجر محل النوفوتيه المجاور له بعد افلاس صاحبه ، ثم هدم الجدار بين المحلين بحيث تحولا الى محل واحد متسع ، كما غيّر في ترتيبهما ، وأنشأ مكاناً ضيقاً في الداخل لقياس الملابس ، كما ثبّت بالجدران عدداً من الدواليب لتعليق الملابس المختلفة ، أما الواجهتان الزجاجيتان فقد فرش أرضيتيهما بورق الكورنيش وقطع الأسبست ثم تفنن في عرض الملابس بداخلهما ، ولكي لا تترك هادية للغجر فرصة التفلّت من هيمنة زوجها على اذواقهم ، أشارت عليه بالبحث عن شاب غجري من اجل استخدامه في النوفوتيه ، وحددت له مجموعة من المواصفات التي يجب ان تنطبق على ذلك الشاب ، كالوسامة ، والرقة واللطف ، ورقي الذوق ! غير ان هادية ، وبعد ان تمعّنت في فكرتها هذه ، توصلت الى أن استخدام فتاة غجرية بدلاً من الشاب سيكون اكثر توفيقاً ، لذا اخذت تبحث عن فتاة غجرية ذات صفات مميزة ، ولذا ايضاً ، لم تجد امامها سوى هاجار التي وافقت على العمل في تلك النوفوتيه .

(٥)

كان من نتيجة تخلّي هاجار عن العمل مع كياز ان حاول إغراءها برفع الأجرة التي تتقاضاها لقاء بيعها لأدواته الحديدية ، وحينما رفضت عرضه هذا ، شكاها لوالدها فلم يفعل شيئاً ، او هو لم يحاول ان يفعل شيئاً ، ذلك

لادراكه بأن خيوط سيطرته على ابنته تقطعت منذ زمن ، وقال له « فَتِّشْ عن غيرها » وفي النهاية اضطر الى البحث عن فتاة اخرى للعمل معه ، بعد ان استسلم الى هذا التأكيد الأخير للحقيقة التي راودته يوم امسك عرقي بمعصميه ، حقيقة ان هذا الجيل ، مختلف !

(٦)

كان على هاجار ان تتغير حال ابتدائها العمل في نوفوتيه نزار ، فقد بيّنت لها هادية بحسم ، انها ليست سوى عاملة في تلك النوفوتيه ، وان اهتمامها بمظهرها ، انما هو جزء من صميم عملها « على هاجار أن تبدو امام زبائن المحل بمظهر انيق » قالت هادية لزوجها ، ثم اغدقت عليها الكثير من اسباب تحقيق تلك الأناقة : منحتها فستانين يليقان بقوامها ، وحذائين بكعبين عاليين ، وحزامين دقيقين ملونين ، وطوقين بلاستيكيّيْن لشعرها ، وطقمين من الملابس الداخلية ، وقلماً للحاجبين ، ثم اوضحت لها طرائق العناية بملابسها وشعرها ووجهها ، لأن فتيات الوادي ، لاسيما الغجريات ، سيقتدين بها ، سيقلدنها ، لذا عليها ان تقوم بتوجيه اذواقهن نحو اصناف محددة من الملابس ، وقبل أن تتركها قالت « اسمعي يا بنت ، انتبهي لشغلك ، وبالنسبة لثمن الملابس التي أعطيتك اياها ، ادفعيه على أقل من مهلك ، دينار في الشهر ، دينارين ، حسب استطاعتك ، لكن انتبهي لشغلك ، اسمعت ؟ »

(٧)

تغيرت هاجار بشكل لم يتوقعه أيّ من غجر الوادي ! وحتى عرقي بن كياز ، الذي أحس غير مرة بتقربها منه ، فقد استغرب ان تكون بذلك الجمال

المؤدي الى انبهار الشبان بها ! هكذا تغيّرتْ : في البداية تخلصت من ملابسها البالية ، تخلصت من القميص الليلكي ، والمنديل الأسود الذي كانت تلفه حول شعرها ورقبتها ، تأملت وجهها في المرآة ، تنبهت الى ما لا لزوم له من الشعر في أماكن مختلفة من وجهها فأزالته ، وَخَطَتْ حاجبيها بالقلم الأسود ، كحَّلَتْ عينيها ، رَتَّبَتْ شعرها ، ثم خرجت من البيت وسط فحيح الدهشة التي اصابت وجه سبلو ، حينئذ !

(٨)

باستخدامه هاجار ، حطّم نزار كل أمل لمنافسيه في الوادي ، وتهافتت فتيات الغجر والفلاحين على محله ، يدفعهن الى ذلك اعجابهن الخفي بها ، كما ازداد اقبال الشبان ايضاً على النوفوتيه ، ربما بدافع من رغبتهم في التحدث اليها عبر مشروعية العمل التي مكنتهم من سماع آرائها في أنواع الملابس والوانها وأشكالها ، وصاروا يتلمسون متعة امتلاكهم حق التحدث اليها على مرأى من الآخرين الذين لن يفسروا الأمر بطريقة مغلوطة ، فهي تبيع ، وهم يشترون .

كانت تفتح الباب الجرّار للنوفوتيه كل صباح ، وكان نزار يأتمنها على كل ما في محله من ملابس وأقمشة وخردوات ، يأتمنها على كل شيء باستثناء النقود الورقية ! ذلك ان النقود تُذْهِبُ العقل ، وتغوي أشد الناس فتكا بنزواته ، هذا ما توصل نزار اليه ، لذا لم يكن يترك في مجر طاولته حين خروجه من النوفوتيه سوى النقود المعدنية ، اما الورقية فتظل في جيب قميصه المتهدل الفضفاض ، وذات مرة حاول اختبارها بأن وضع على كرسيه الجلدي قطعة نقدية من فئة الخمسة دنانير ، ثم خرج بعد أن جثم على تلك القطعة بمؤخرته التي أخفت نواياه الخبيثة ، ذلك ان القطعة تئنّت تحت مؤخرته بما يوحي بالسهو ، وحينما عاد بعد ساعة تحت جنح الأداء العادي لدخوله البطيء الى

محله، فاجأته بدنانيره الخمسة التي تعرف اليها على الفور ، وبخمسة أخرى كانت سقطت منه فعلاً ، أثناء محاولته البائسة لاختبارها « هذه لقيتها على كرسيك ، وهذه بجانب الكرسي » قالت له ، فكاد من مفاجأته ينطق « لكنني لم أضع سوى خمسة دنانير » غير أن نتيجة اختباره هذا لم تبدّل من قناعته بأن النقود تغوي أشد الناس فتكاً بنزواته ، إذ « من يدري ، فلربما عرفت هاجار بأنني أريد اختبارها » !

(٩)

لم تسلم هاجار من مضايقات شبان الغجر والفلاحين ، فقد احسوا بأن في إقدامها على خطوة العمل في النوفوتيه خروجاً على مألوفاتهم ، كما اعادت عجائز الغجر الى الاذهان ، حكاية والدتها بهاج ، وأطلقن عليها لقب (المخطوفة) الذي سبق وأطلقنه على والدتها قبل رحيلها عن خيام الغجر ! كن يقلن ، بأن الخطف خطف الروح ! وأن بهاج مخطوفة من أناس غير الغجر ! وأكّدْن اقوالهن باختلاف بشرتها عن بشراتهن ، اما الآن فإن هاجار هي المخطوفة ، الخارجة عن تقاليد الغجر ، هذا ما قالته العجائز ، وهذا ما تنقل على ألسنة الكثيرات والكثيرين من غجر الوادي !

(١٠)

ما ان رأى عرقي هاجار الجديدة ، حتى تفتّحت في صدره حجرات كثيرة مغبرّة الاقفال ، حجرات لم يكتشف وجودها الا بعد ان صعقته بعينيها السوداوين ، وهيئتها الجديدة المتدفقة نضارة وجمالاً . لم تكن علاقة عرقي بها سوى امتداد لطفولة اليفة شقية ، كانا يتناهدان ويتنابزان كلما التقيا تحت سقف واحد ، ويضيق كياز بصخبهما ، تضيق سمار ، يضيق سبلو ،

فينتهرونها ، يصيحون بها « اصمتا » ! فيصمتان ! لكنها لا يوقفان عراكاتها ، فيتقاتلان بالعيون ، وبحركات اصابعها الخفية المتوعدة !
عرقي لم يفكر بما هو أبعد من هذا ، لم يحاول ولو لمرة ، ان يبحث في سراديب صدره عن تلك الحجرات المغلقة التي ، ما ان تفتّحت حتى تدفق مخزونها الدافىء ، الرقيق الحارق ، وأحس بأن ايام التناهد والتنابز لم تكن سوى ستارات غبارية ، لما لم يكتشفه الا بعد تنبهه الى وجود تلك الفتاة الكاسحة ! أيمكن أن يكون عملها في النوفوتيه قد غيرها الى الحد الذي خرجت به من يد الغجر ، ومن يده هو بالذات ؟ تلك اليد التي لم تغمض يوماً على ما ملأها ؟! فكر بها ، فكر طويلاً ، خطط وفسّر ، شرّق وغرّب ، وقبل ان يبزغ فجر ليلته ، قرر مفاتحة والديه في امرها ! ولكن كيف السبيل الى ترويضها ؟! هوذا سؤال عرقي الأخير ، ومعضلة لياليه .

(١١)

في اليوم التالي ، أحس عرقي بجدية الأمر ، وبأن ما ظنه مجرد جس لنبض والديه ، انما هو الاشارة التي انتظراها منذ زمن ، لكنه ظل رازحاً تحت تأثير ذلك الاحتمال القاتل ، احتمال رفضها له ! أما والدها فلم يكلف نفسه مشقة التفكير به ، او استمزاج رأيه ، وحتى حينما بدأ بالتردد على بيته من اجل رؤية هاجار والتحدُّث اليها ، فقد آثر سبلو الانسلال من ذلك البيت خارجاً ، مخلِّفاً وراءه ابنته وعرقي وحيدين !

(١٢)

كيف استطاع عرقي النفاذ اليها ؟ كيف استطاع معرفة اعماقها ؟ من اين جاءته جرأة اقتحامها ؟ من اين له كل تلك الأساليب ، الغريبة ؟

لقد تمكن من اقتحام هاجار بسرعة لم تخطر حتى بباله هو ! ولجأ في ذلك الى طريقة غريبة استخدم خلالها لسانه وعينيه وأصابعه وأنفاسه ، فبث في روحها وفي بدنها موجات من الذهول والمتعة ! عرقي فعل كل هذا : زارها مراراً في بيت والدها ، جلس الى جانبها ، تحدث اليها فتحدثت اليه ، نبهها الى ضرورة الانتباه الى نفسها اثناء العمل ، اقترب منها ، تحسس بكفيه ظاهر يدها فتفرعت في جسدها متعة الملامسة التي لم ترغب في مقاومتها ، اقترب حتى كاد يلتصق بها ، حدثها عن محبته القديمة الجديدة لها ، وعن تفكيره الليلي بها ، مسَّد بكفه شعرها فتصلب الجلد في جبهتها القمرية ، ابتلّت عيناها ، صغرتا ، تماما مثل قطة اليفة خضعت لتوِّها للتمسيد والتمليس ! هل ادرك بأنها فكرت به من قبل ؟ ورسمته في خيالها ؟ وعانقت طيفه في ليلها ؟ لقد استل عرقي من روحها ومن نخاعها بقايا اليقظة ، ثم قذف بتلك البقايا بعيدا ، ليبقي على القطة الأليفة الصاغرة في هاجار ! القطة التي تنبعث في ذاتها كلما استسلمت لدغدغاته ! انتزع عرقي من رأسها ذلك الشعور الثقيل بالمكان والزمان ، ثم جردها من غثاء التفاصيل والألوان والأصوات ، عبر لمساته التي مكنته من النفاذ الى القطة في ذاتها ، حتى كادت تموء عبر حنجرتها الناعمة ، وسارت خلفه مأخوذة لا ترى في الوجود غير عرقي ! وفكرت بامتلاك كل ذلك الرجل بلذائذه وملكاته وغموض متعته ، وانساقت الى بيته ، مثلما انساق الى بيتها ! كانا يلتقيان كل يوم ، كل ليلة ، كأنما يحاولان الامساك بأيامهما التي فرّت دون علمهما ، وكان والدها ينسل خارجاً اذ يراهما ! سبلو لم يتدخل في شؤون ابنته على الرغم من تدخلها السافر في خصوصياته المقدسة ، فهي مثلاً تطالبه بالكف عن تعاطي العرق ، وبالعزوف عن الوقوف عند التقاطع الشرقي بثيابه المهلهلة ، والأنكى انها حاولت ذات مرة مسح صورة زوجته بهاج التي رسمها على جدار بيته من الداخل « يا سبلو ، هذه الصورة هي سبب كل همومك ، يا سبلو خلّيني امسحها » قالت له فرد بغيظ « اذا مسحت هذه الصورة فسأخنقك ،

أسمعتِ » وهاجار توصلت إلى أنه « قد يفعلها » ! في هذه الحالة بالذات ، قد يفعلها !!

(١٣)

لهاجار بشرة قمرية شتان ما بينها وبين السمرة المعتمة في وجوه غجريات الوادي وبعض فلّاحاته ! لهاجار مكانة مختلفة ، وحكاية قديمة جديدة ، فعجائز الغجر يؤمنّ تماماً ، بأنها ورثت عن جدتها الدنّاء ، كثيراً من خصالها الغريبة ، وقدراتها الغيبية ، واذ يُسْأَلْنَ عن دلائل تلك القدرات ، يجبن بأن في هاجار امرأة اخرى ، غير غجرية ! ويتطيرن كلما التقت عيونهن بعينيها المستديرتين! إنها فتاة مختلفة ، هكذا يقلن ! اليست هي التي أنبأت « الشيخ تركي » بخبر ابنه الذي دهمته سيارة بيضاء على الشارع الشرقي ؟ أليست هي التي عرفت مقدماً بأن ابن الشيخ تركي سيموت من جراء ذلك الحادث ؟ أليست هي التي يتجنبها والدها ؟ أليست هي ابنة بهاج المخطوفة القتيلة ؟ ثم ، أليست هي التي لحقت بكياز الغجري ، ليلة حمل ابنته ووضعها في منتصف الشارع الشرقي لكي تدوسها السيارات ! أجل لكي تدوسها السيارات ! لكن هذه الحكاية ليست كما ترويها عجائز الغجر ، إنها حكاية مختلفة عما نسجته خيالاتهن المحلقة ، فمن عادة كياز انه يتحدث ويسير في اثناء نومه ، وفي احدى الليالي ، والحيّ هادىء إلا من نباح الكلاب ، سمعت صوت خطى قريبة من بيتها ، اطلت من النافذة ، فرأته سائراً وبين يديه ابنته الصغيرة النائمة ، تساءلت عن السبب الذي يدعوه الى الخروج في ذلك الوقت من نهايات الليل ، اتراها مريضة ابنته ؟ ام تراه نائماً ؟ ثم لحقت به دون ان يحس بها ، وإذ وصل الشارع الشرقي ، مدد ابنته في منتصفه ، فتأكد لها أن الرجل نائم ! اقتربت منه ، فراعتها عيناه الزجاجيتان ! هزته فصحا ، ففرك عينيه ، فصاح ببلاهة سكير « اين انا ؟ ما هذا ؟ لماذا . . . » ثم حمل

ابنته عائداً الى بيته ! تلك هي الحكاية ، لكن عجائز الغجر تساءلن عما اذا كان لدى هاجار قدرة غيبية أيقظتها من نومها ، ودعتها الى اللحاق بكياز ! وحتى والدها سبلو ، فقد تساءل مثلهن، لكنه تجنب الخوض في دهاليز عالم ابنته ، ذلك العالم الذي تنبه اليه ، يوم تنبه الى عينيها العميقتين ، وهما ترقبان بدقة ، عيون رجال الغجر الشرهة ، ونظراتهم التي افترست جسد والدتها اثناء تثنّيها الصارخ ، ليلة زيارة الغجر الأولى للوادي ! كان يقول لزوجته كلما تأمل عيني ابنته : « عينا هاجار مثل عيني جدتها » لكنه لم يطمئن الى ذلك التشابه الذي ظل يذكره بنبوءة العجوز !

(١٤)

سبلو الآن لا يفكر في ابنته التي تجاوزت حدوده وحدود الغجر بعملها في نوفوتيه نزار ، لكن الناس لا يتساءلون عن أسباب صمته الغريب هذا ، فهم يعتقدون بأن الخمر حولته الى مسخ انسان منزوع عن كل ما حوله ! ويستشهدون بوقفته الصباحية الغريبة ، وراء عمود الكهرباء عند التقاطع الشرقي ! وهاجار اذ تخاطب والدها فإنها تقول له « يا سبلو » ! منذ ان شبت وهي تناديه باسمه ، لكنه لا يلتفت الى هذا ، سبلو لم يعد يلتفت الى الكثير مما يدور حوله ، انه يبحث فقط عن سلام لا وجود له الا في مخيلته التي تقارع الزمان ! وحتى حين اضطراره الى معايشة العلاقة الغريبة الناشئة بين عرقي وابنته ، فقد ظل صامتاً غير عابىء بما قد يترتب على تلك العلاقة ! لأمر ما كان يحس بأن عليه مغادرة بيته كلما جاء عرقي لرؤية ابنته قبل ان يخطبها ! ويوم انصمدت هاجار في بيته الى جانب عرقي ، غادر ذلك البيت بعد ان ترك ابنته وهي تعتصم الأساور الفضية والخواتم الذهبية فوق الحامل الخشبي المرتفع ، المطل على رؤوس النساء اللائي رقصن للعروسين ، والعجائز اللواتي نظرن اليهما بتوجس هو أقرب الى الترقب الأبدي ، لفرسان الظلام

الذين يقتلعون خيام الغجر أنّى ثقفوهم ! تلك أسطورة الغجر ! وكن يهمسن في آذان بعضهن ، يتساءلن عن السبب الذي دفع بعرقي الى الزواج من تلك المخطوفة : هاجار !

* * *

عرقي زوج هاجار

(١)

التصق اسم هاجار بعرقي منذ ان تقدم لخطبتها ، وصار الناس في الوادي ينادونه قائلين « يا عرقي خطيب هاجار » وتَوَقَّعَ ان تكف هذه التسمية عن ملاحقته ، إلّا أنها ظلت تطارده مثل لعنة ابدية لا سبيل الى التخلص منها ، ذلك أنها صارت زوجته ، والناس صاروا ينادونه « يا عرقي زوج هاجار » ! لكنه توصل اخيراً الى ان هذه التسمية تظل افضل من تسمية « عرقي الخالع » التي اطلقها والده عليه قبل ان يباشر عمله في الفندق . والصحيح اننا اذا ما استثنينا ذلك الصوت الصداح الذي يمتلكه عرقي ، فإنه لا نفع ولا لزوم لهذه الشخصية التي ادخلت السرور الى قلوب الآلاف من الساهرين والساهرات .

(٢)

لعل في وجه عرقي ، وفي جسمه الضخم ما يؤيد الاعتقاد السائد بين الغجر ببلادته ! فالكسل المميز لحركاته البطيئة ، والتعكّن الرخو حول خاصرتيه وبطنه ، وساعات نومه الطويلة ، كل هذه الدلائل اوحت لغجر الوادي ، بأن في بدنه ما يشبه الجرثومة الاستوائية التي تعرقل النشاط ، وتمتص الهمة ! لكن عرقي زوج هاجار ، بعد ان باشر عمله في الفندق ، تغير بشكل

لم يتوقعه أي من سكان الوادي ، ذلك ان تخفيف الوزن والتأنق الدائم ، شرطان اساسيان من شروط استمراره في عمله ! لذا تخلص من بعض شحوم جسمه ، وتعلم استخدام مجفف الشعر ، وارتداء الملابس النظيفة المكوية و« سبحان الذي يغير ولا يتغير » ! كانوا يقولون له ، و« كبرت يا زوج هاجار » وعرقي منذ ان باشر عمله الجديد ، وهو يترفع عن الغناء في اعراس الغجر التي ، ما اكثرها !

(٣)

ما اكثر اعراس الغجر ! ما اكثر مناسباتهم !

الخطوبة مناسبة ، الزواج ، الولادة ، الختان ، الحصول على عمل ، الشفاء من مرض . . . كثيرة هي المناسبات التي يختلقها الغجر من اجل اقامة اعراسهم ، لكن اجمل تلك الأعراس ، هي التي بلا سبب ! بلا مناسبة ! « هكذا خلقنا ربنا » يقولون ، ويتساءل « الفلاحون » عما اذا كان ثمة مناسبة ، فيجيب واحد من أصحاب العرس وهو يضع سبابته على قرن جبهته « اذا تعبّأ المخ ، فلت اللسان ، واذا فلت اللسان ، فلتت الأصابع على الطبل ، واذا فلتت الأصابع ، انهز الرأس والوسط وكل البدن ، وهات يا عرقي من صوتك » ويكمل « كيف ؟ لا تسألوني ، لكن اذا تعبّأ المخ ، فلتت الدنيا ! » ثم يتابع الرقص والهزّ بنشوة حصان يركض في صباح البراري .

(٤)

أعراس الغجر تنتهي بمشكلة ! يطبلون ، يغنون ، يرقصون ، ثم يتناهدون ويتقاتلون ! كأنما القتال جزء من تقاليد اعراسهم ولوازمها التي لا حصر لها ! احياناً يمتد القتال ليشمل كل غجر الوادي ، فيشتبكون بالأيدي

والعصي والأدوات المعدنية والزجاج والحجارة « لماذا يتقاتلون ؟ » يتساءل الفلاحون بشيء من التحبُّب ، بل ان بعض الفلاحين يتعمدون السهر حتى نهايات الليل ، من اجل مشاهدة العراك الذي لا بد وان ينشب بين الغجر في آخر السهرة ! علام يتقاتلون ؟ ذات ليلة وبعد ان هدأت الطبول في عرس عرقي اطبق كياز الغجري على رقبة غجري آخر اسمه « عزو » وكاد يخنقه لولا أن المشكلة كبرت ، وانقسم كل من في العرس الى فريقين مدجّجين بالعيون الحادة ، والسكاكين الحادة ، والأظافر المتحفزة « يا خسيس يا عزو اين الذبيحة ؟ ها ؟ لماذا لم تحضر معك ذبيحة الى عرس ابني ؟ » كان يقول لعزو الذي جحظت عيناه فلم يعد قادراً على الرد « يا خسيس يا عزو ، انا قبل شهرين جئت مع عرقي الى عرسك ، واشتريت لك ذبيحة ، وأنت اليوم تأتي الى عرس ابني بلا ذبيحة ؟ » وشدّ على رقبته ، فانفجر الصراخ ، تحول العرس الى معركة ضارية ، وأطل الفلاحون من نوافذ بيوتهم وهم يتلذذون « ولَّعَتْ » ثم احتدّ العراك واتسع ، انتقلت المعركة من بيت كياز الى الطريق ، حيث الحجارة وجاد ، والسيارات والزجاج وجاد ايضا ، كل غجر الوادي اشتركوا في ذلك القتال ، وإلا « كيف لا يسدد عزو دينه ويأتي بذبيحة الى عرس عرقي » ثم « كنت خائفاً منك يا نذل يوم اهديتك ذبيحة ، ها ؟ » كان يقول ويضرب ، يشتم باللغة الغجرية ويضرب ، وبالعربية ، ويضرب ، يسانده ابنه عرقي العريس الذي نسي نفسه وصار يضرب ، تتدخل زوجته سمار وبناته ، وأقاربه، وزوجاتهم ، وأبناؤهم ، وأقارب زوجته ، ويضربون ! كل واحد ينتقي غريماً له من اقارب عزو ويضرب ، ويتشيع بقية الغجر الى الطرفين ، ويضربون ! أين يضربون ؟ ليس مُهمّاً اين تقع الضربة ، المهم ان لا يظل الواحد مكتوف اليدين « مثل المسطول ! » يجب ان يشترك الجميع في القتال ، يجب ان يستخدموا العصي والرؤوس والقبضات المغمضة والأدوات المعدنية وزجاجات البيبسي كولا والبيرة والشتائم باللغتين والحجارة الكبيرة « كل شيء إلا الحجارة » يقول

الفلاحون ، لأن الحجارة العمياء تطال نوافذ بيوتهم ، ومن ذا يحاكم الغجر ، بل مَنْ مِنَ الفلاحين يجرؤ على ولوج ساحة القتال والجراح والدماء ؟ كل ما يفعله الفلاحون ، انهم يتلذذون بمراقبة تلك القتالات المتكررة بين الغجر ، عبر النوافذ الحديدية لبيوتهم المنحدرة من اعالي الوادي الى القاع ، وعبر الشرفات الحديدية المطلة المعلقة .

يسمع الفلاحون كل شيء ، ويرون كل شيء ، ويعرفون التاريخ الحافل لكل غجري في الوادي حينما ينشب القتال ، ذلك ان الفضائح الشخصية هي جزء من اسلحة القتال بين الغجر ، ولقد يرد عزو على كياز حينما افلت هذا رقبته خشية انقطاع تيار الحياة فيها ، يرد عبر لهاثه واختناقه « تريد ان تخنقني يا ابن السرّاقة ؟ » فينبري احدهم لعزو « إنْكَتِمْ يا ابن أم الثلاثة !! » يعرف الفلاحون قصة كل غجري في الوادي ، القصة اياها ، التي تُكرَّر وتُزَيَّد كلما نشب القتال ، فوالدة كياز مثلاً كانت تسرق الملابس عن حبال الغسيل أيام كان الغجر يتنقلون بخيامهم في البوادي والأودية والسهوب ، كما ان والده لم يتقن عملاً قط ! بما في ذلك النقر على الطبل ، الذي يمثل قدرة خَلْقية لكل غجري ، هكذا يعتقدون ، اما (سمار) زوجته ، فقد خرجت عن طوع والدها الكفيف قبل أن تُزوّج ، وارتكبت الكثير من الأفعال الشائنة ، ويستدرك الغجر موضّحين ، حتى اثناء العراك ، بأن سمار ارتكبت تلك الأفعال قبل الزواج لا بعده ! يحرص الغجر على ذكر هذا التوضيح ! كأنما ليمنعوا كياز من ارتكاب حماقة ما ، بدافع من غيرته على زوجته سمار ! اما عزو فكل جسمه وتاريخه وزوجته ونوافذبيته ، كلها من زجاج ! عزو هو « ابن ام الثلاثة » لأن والدته « معزوزة » زُفّت الى ثلاثة من الرجال هم على التوالي ، « جوز أبو » الذي سقط عن حصانه ومات من فوره ، و« خليل الشايب » الذي هجرها بعد اشهر من زواجه منها ، ثم « حسان الهرم صبّاب الجبس » الذي ترمّل دونها ! والغجر يقولون بأن « معزوزة » والدة عزو ، لو لم تمت بالسل ، لبحثت عن رجل رابع وربما خامس ، لكن الغجر لا يجزمون ـ أثناء

العراك ـ بأن عزو هو ابن خليل الشايب ، « فالله اعلم » ! يقولونها وينفضون بأصابعهم قَبَّات قمصانهم ، متظاهرين بنوع غريب جارح من النزاهة !

(٥)

يعرف الفلاحون ايضاً حكاية « قدّاح » الفران ، الذي يفتخر بأنه « فران كعك » وليس « فران خبز » مثل عامر ، الفلاح ! يعرفون ايضاً حكايات خليل الشايب وزوجته الأخيرة « بلحة » الراقصة التي لا تعود الى بيتها الا بعد انتصاف الليل ، ثم ناصي وزوجته المنحرفة العينين « عتبا » ، ثم حسان صباب الجبس وزوجته الحالية العرافة . يعرف الفلاحون ايضاً حكايات هاجار وعرقي ، و« موزة قارئة الكف » زوجة عزو الأولى ، والشيخ تركي زوج « موزة » الثاني ، و« نظما » زوجة الشيخ تركي الثانية . . الغجري الوحيد الذي لا يشارك الغجر قتالاتهم تلك ، هو سبلو الذي استوطن الوادي قبلهم بسنوات ، اما ابنته هاجار ، فللغجر ملاحظات كثيرة عليها ، على الرغم من اجماع عجائزهم على ضرورة الابتعاد عن عالمها الذي يتجنبنه كما الشر !

(٦)

ربما كان للغجر فلسفة خاصة في اثارة الفضائح وفي الاقتتال ! ذلك ان الفضائح المعلنة ، قد تشكل ستاراً لما يريد الغجر اخفاءه من اسرارهم العميقة التي يجزم الفلاحون بوجودها ! اذ ما معنى ان يعمد بعضهم الى التحادث بلغتهم الخاصة في حضرة الفلاحين ؟ ما معنى استخدامهم للغة الفلاحين اثناء قتالهم بالذات ؟ هل يريدون اطلاعنا على أسرارهم ؟ يتساءل الفلاحون ثم يجيبون « المسألة ابعد من هذا ، انهم يريدون اخفاء أسرارهم ، ودوافع

تصرفاتهم الغريبة ، وراء فضائحهم المفتعلة تلك ! وهل يعقل ان يتقاتلوا بهذه الوحشية من اجل ذبيحة ؟ او كيس أرز ؟ ام ان وراء الأكمة ما وراءها ؟ » لكن الحقيقة التي لم يدركها الفلاحون الا بعد سنوات طويلة من احتكاكهم بالغجر ، هي ان الاكثار من الفضائح ، سيحولها الى امور طبيعية لا تستحق التوقف ! وسيُفقد تلك الفضائح صفة التكتم ، وضرورة التَّفَكُّر العقيم في اخفائها ، كما ان الإكثار من الاشكالات ، سيحولها الى جزء من التقاليد اليومية العادية للغجر ، مما سيعطيهم مزيداً من حرية الحركة والتصرف والقول ! هكذا انتزع الغجر هوامش حريتهم في غابة الفلاحين ! ولعل السر الكامن وراء الانفراج الذي يعلو جباههم ، ويميزهم عن الفلاحين ذوي الجباه المنقبضة ، انما هو نتيجة لارتياحهم من مأساة التكتم على الأسرار والفضائح التي تحولت بفعل تكرارها ، الى مجرد طرف يتداولها الفلاحون في جلساتهم ! الفلاحون لا يؤاخذون الغجر في تصرفاتهم الغريبة ، لأن « هذا هو طبعهم » غير أنهم يرتاحون لهذا الطبع ، ولا يجدون فيه ما يثير الآخرين ، بل يستغربون من « اولئك الفلاحين الذين يتكتّمون حتى على سعلاتهم ! » عالم الفلاحين في الوادي مغلق وتاريخهم مغلق ! فالغجر لا يعرفون عن الفلاحين غير ما تراه عيونهم وما تسمعه آذانهم مصادفة ، لا يعرف الغجر شيئاً عن تاريخ نزار ابو خنجر ، أو أبو سلمان ، او ابنه سلمان ، او ابنه الآخر جبر الذي ملّ انتظار دوره في هذه الرواية ! الفلاحون لا ينفلون اسرارهم حينما يقتتلون ، كما لا يشاركون بعضهم في القتال كالغجر الذين يقولون في نهاية كل عراك « خليها مستورة » ! يقولونها على الرغم من كل الفضائح التي ينبشونها ويؤلفونها ! ولعل عبارة « خليها مستورة » هي السهم الأخير الذي يطلقونه قبل ان يبردوا !

(٧)

يسخن الغجر بسرعة ، ويبردون بسرعة ايضاً ! ففي لحظة خارجة عن نطاق الوقت والمكان يضحكون ! فتحمر جباههم ووجناتهم الكهباء مفصحة

عن الخجل الذي يستدعيه تذكرهم لشتائمهم وفلتات السنتهم خلال العراك ، ويذهبون الى بيوت بعضهم ، يتصالحون ويتعاتبون ، يدخنون السجائر ، يشربون الشاي بالبابونج ، يتبادلون أشرطة المسجلات ، ويستدينون النقود من بعضهم ، كثيراً ما يميلون على بعضهم ، حتى ان عرقي زوج هاجار ، فوجىء ذات ليلة بأن ديونه على جيرانه من الغجر بلغت خمسة وثلاثين ديناراً ، ، وقال باندهاش « كيف حصل هذا » ! وضرب كفه بغمض يده ، ثم صفَن . « عرقي هذا ، الذي لولا وساطة جبر ابو بركة لما وجدت في جيبه ثمن شفرة الحلاقة ! » هكذا يتحدثون عن عرقي ، غير انه لا يحفل بما يقولونه عنه ، فهو دائم الانشغال بحفظ كلمات الأغنيات الجديدة من سماعات المسجلة الضخمة في بيته ! منذ ان باشر الغناء في حفلات الفندق وهو يحفظ كل ما تجود به حناجر المطربين والمطربات الجدد ، وعرقي لا يتردد في اطهار امتنانه لجبر ابو بركة الذي انتشله من بؤس اعراس الغجر ، الى نعيم الفنادق ، حيث الحفلات الراقصة ، وحيث النساء والرجال الذين يتمايلون تبعاً لثنيات صوته الصداح ، وتبعاً لتقسيمات عازف الأورغ « ميشو » الأشقر الطويل الذي لا يبصق العلكة من فمه إلا حين ينام ! ثم ضابط الايقاع الأسمر « حمادة » الذي لا تكف يداه وقدماه عن ضرب تلك الآلة التي يسمونها « درمز » . بداية عرقي في الفندق ، كانت مثل بداية ريفي يدخل المدينة لأول مرة في حياته ، ولولا مساعدة جبر وارشاداته له لما استطاع ان يبدأ ! عرقي لا يتنكر لهذه الحقيقة ، بل انه يحس بالندم كلما تذكر ايام استيائه من غموض جبر ، ومن طريقته اللامبالية بالآخرين ، غير أنه لا يستطيع القفز عن الحقيقة الأخرى التي تحمل استفهامات مريبة ، إذ ما معنى ان يقف شاب اعزب كجبر ، على نافذة بيته المطل على بيت عرقي وزوجته ؟ لماذا يقف في ذلك المكان بالذات ؟ أما جبر فقد قرأ الامتعاض مراراً في قسمات عرقي الذي يعيش وزوجته في الطابق الجديد فوق بيت سبلو ، واذ تحادثا ذات مرة في المقهى ، امتدح جبر صوته « سمعتك وأنت تغني في الليلة الماضية ، صوتك

جميل يا عرقي » فحكّ هذا شعره الأسود اللامع محاولاً ايجاد مخرج لصمته المفاجىء ، ولِلْبَلَهِ الذي عقد لسانه ! وجبر تابع اقتحامه له « ما رأيك في ان اجد لك عملاً في احد الفنادق ؟ » « وماذا اعمل في الفنادق يا استاذ جبر » « تغني ، لأن صوتك جميل ! » هنا تحول زوج هاجار الى انسان آخر، وديع ، مبتسم ، خجول ، وقال باحثاً عن جلد جديد يرتديه « يدي في حزامك يا استاذ ! » وحزام جبر كان متيناً ، اذ لم يمض اسبوع واحد على وعده له ، حتى اصطحبه في سيارته التويوتا الى الفندق ! في ذلك المساء نفض عرقي الغبار المتراكم على بدلة زفافه، واشترى ربطة عنق حمرية لكي تتناسب ولون بدلته الحمرية ايضاً ، ثم صفف شعره الأسود اللامع في احد صالونات المدينة قبل ان يعود الى الوادي ، ويستقل السيارة الى جانب جبر ابو بركة .

(٨)

أحس عرقي بارتباك غامض لحظة انطلاق السيارة ، وتسلَّلَت الى أنفه رائحة أقرب الى رائحة الحقائب الجديدة ، اما صوته ، فخرج من فمه مثل توصيلات غير قادرة على الافهام والربط الدقيق ، وبذل جهداً مميتاً من اجل اخفاء ارتباكه هذا ، وعبث بربطة عنقه ، عدل وضعها ، هز ركبتيه ، اثار اسئلة لا تحمل دلالات محددة ، لكن جبر حينما ادرك ما يمور في اعماق صاحبه ، تظاهر بعدم الانتباه ، وتجاهل رؤيته لقسمات عرقي التي نفرت خلال المسافة الفاصلة بين الوادي وبين الفندق ، وفي محاولة مخلصة لإنقاذه من اضطراباته الحادة ، قال جبر « مدير العلاقات الذي سيقابلك ، هو صديقي ، تخرجت واياه من الجامعة قبل ثلاثة اعوام » قال ايضاً « ستكون المقابلة روتينية لأنه يثق برأيي » ثم أنهى حديثه « اذا حالفك الحظ ، ستكون مطرباً لصالات هذا الفندق » وأشار الى بناية ذات طوابق متعددة ، ثم اوقف سيارته في المكان المخصص للسيارات ونزلا .

(٩)

بعد شهرين من تلك المقابلة ، ظهرت الى الوجود فرقة (السيركلز) الفنية المكونة من عازف الأورغ الأشقر « ميشو » وضابط الايقاع الأسمر « حمادة » وعازف الغيتار النحيل الطويل « سرور » ثم المطرب الأسمر « عرقي » الذي لم يفاوض احداً على الأجرة التي سيتقاضاها ، ولم يطالب بأية امتيازات ، كما لم يبد أي اعتراض على ملاحظات مدير الفندق الخاصة بهندامه ، وبدانته الزائدة ، وطريقته في العناية بشاربيه الأسودين اللذين لم يكتشف وحشيتهما الا بعد دخوله ذلك الفندق ، ومشاهدته للنعومة المميزة لرواده ! وحتى بدلته الخمرية التي اعتقد بأنها ستغير من بؤس مظهره ، فقد اكتشف انها مخجلة الى حد لفت انتباه موظفي الاستعلامات خلف الحواجز الخشبية على يمين البهو ، ولقد انبهر عرقي بما رآه في ذلك الفندق ، وأحس بأن فرصته للعمل فيه ، اشبه بفرصة طفل صغير يريد الزواج ! لكن هذا لم يثنه عن متابعة السير خلف جبر ، عبر المداخل العديدة والادراج الصاعدة الهابطة ، والزوايا الملأى بالتماثيل الخشبية ، والنباتات الداخلية ، والمرايا الشاسعة ، وكثيراً ما دهمه ذلك الاحساس القسري بالانكماش والتضاؤل امام موظفي الفندق ، وندلته ، ورواده الذين رأى فيهم عيوناً واسعة ترقبه دون غيره ! كما أدى احساسه هذا ، الى تلبُّد وجهه ، واضطراره الى فتح فمه مثل ديك مرعوب اثناء سيره في البهو المؤدي فيما يؤدي ، الى غرفة مدير علاقات الفندق « هل انت خائف ؟ » سأله مدير العلاقات النحيل بعد ان تأمل وجهه المتسفّع ، فأجاب مكابراً « أنا ؟ لا ، لا اخاف » ! لكن صوته المتهدج نضح ازدحامات اعماقه « تعال معي » قال المدير ثم نهض يرافقه جبر الذي اشار على عرقي « سر الى جانبنا لا وراءنا » وحينما دخلوا البار ذا الأضواء الحمراء الخافتة ، قدم النادل لكل منهم كأساً مركزة من الويسكي « إشرب ، لأن المشروب يحل العقد ، ويفلت اللسان ! » قال المدير مخاطباً عرقي ،

فتجرع خلال دقائق كأسين كان من نتيجتهما ان هدأت أنفاسه وعاودته الطمأنينة ، وصار يدندن ، وأحس بأن الأمر لا يستحق الاضطراب ، ثم سار والمدير وجبر ، بخطى ثابتة الى الصالة .

(١٠)

في الصالة الدائرية ذات السجاد الخمري المزركش قدم عرضه الاختباري أمام مدير الفندق وجمع من المشرفين على شؤونه ، فأثار اعجابهم بصوته الصداح ، خصوصاً حينما قلّد امامهم اغنية « عشرة احدعش اتناعش » وأغنية « هزي يا نواعم » بمصاحبة العازفين الذين تحولوا تلقائياً الى « كورس » مدرّب ! لكن مدير الفندق أبدى ملاحظاته حول مظهره وبدانته ، وهنا تدخل مدير العلاقات « انا اقترح بأن يقوم بعمل ريجيم خلال الفترة المقبلة ، لكي يتناسق جسمه ، وتزداد جاذبيته ، لأنه سيصبح نجماً في المستقبل » فتساءل مدير الفندق « هل تستطيع يا . . . ما اسمك ؟ » « اسمي عرقي كياز يا سيدي » أجاب بنبرة لا تخلو من تشبُّث مستميت بفرصته التي غدت على كف عفريت ، « هل تستطيع تحمل الريجيم يا عرقي ؟ » سأله ثانية فأجاب « نعم يا سيدي ، أستطيع » « عال ، اذن علموه الريجيم » قال مدير الفندق ثم مضى ترافقه زوبعة المشرفين والموظفين ، وعرقي بعدها خضع لمجموعة من الأنظمة القاسية التي وضعها له المدلّك « ريتشارد » واضطر الى الامتناع عن تناول الأرز والبطاطا والحلويات وكل ما من شأنه ان يزيد من وزنه الذي هبط خلال شهرين الى ثمانين كيلوغراماً ، وانتعشت هاجار حينئذ ، « هكذا افضل يا عرقي » لكنه لم يعلق على ما قالته زوجته ، ذلك ان التغير الذي طرأ على عمله وبدنه ، حمل معه تغيرات كثيرة عصفت بحياته ، وصار يرفض دعوات اصحاب الاعراس من الغجر وغير الغجر ، « أنا ملتزم مع الفندق ! » كان يقول ، وحينما تلحّ هاجار يصفعها بعبارة دخلت قاموس

لغته الجديدة « رجاء ، لا تتدخلي في شغلي ! » فتصمت هاجار ! تصمت ! عرقي تخلص من عوالق كثيرة في حياته السابقة ، ملابسه العتيقة التي لم تعد مناسبة لجسمه الجديد وعمله الجديد ، حذائه العتيق ، جواربه الممزقة ، حزامه المفسخ ، جلساته اليومية في نوفوتيه نزار الى جانب زوجته ، جلساته في مقهى ابو بركة ، ومعرض ابو بركة ، وصالون مصطفى ، ودكان سعد ، الأهم من هذا ، انه تخلص من تأثير هاجار عليه وقال ذات مساء امام « عزو الغجري » بأن السكرة قد ذهبت ، وبأن الفكرة قد جاءت ، فرد عزو الذي استدان من عرقي خمسة دنانير حينئذ « ألم نقل لك قبل ان تتزوجها ؟ الم نقل لك بأن هذه المرأة لا تناسبك ؟ » واذ قرأت هاجار نوايا زوجها في عينيه ، لوّحت له بتحطيم كل مجده وكل عالمه الجديد ! وحسابات عرقي أدق بكثير من لحظات تَأَرجُحِه على سلم المجد الذي اعتلاه بسرعة القرود ، اذ « ما الذي يمنع هاجار من دخول الفندق ، والصعود الى « البيست » الذي أغني عليه أمام الساهرين والساهرات ؟ » « ما الذي يمنعها من الصراخ هناك ، وإشهار عقد الزواج ؟ » « ثم ان الناس لا يعرفون بأنني غجري ! وماذا لو عرفوا بأن هذه المرأة هي زوجتي ؟ سينتهي كل شيء ، سأنتهي أنا » !

(١١)

هاجار هي الورطة الحقيقية !

هذا ما توصل اليه ! فبالاضافة الى تمسكها به ، فإنها لم توافقه على رغبته في استئجار بيت خارج الوادي ، « ولكن الحياة في هذا الوادي لا تليق بمطرب مثلي ! » قال لها مذكّرا بشهرته الواسعة ، وبترؤّسه فرقة « السيركلز » بعد ثمانية اشهر من تأسيسها ! كل رواد الفنادق وقراء الصحف صاروا يعرفون عرقي ، عبر الاعلانات المتكررة في الصحف عن برامج حفلات الفندق ، وعبر البوسترات التي ملأت واجهات المدينة الزجاجية ، وعبر سهرات فرقته

التي لم يتمكن غجر الوادي من اتقان لفظ اسمها الا بعد ترديدها مرات عديدة ، غير ان نقمة الغجر تحولت خلال اشهر قليلة الى محبة كاسحة له ، واعتداد جارف بهذا الغجري الذي اقتحم عالم المدينة بفنادقها ونسائها وشخصياتها ! كما نسبوا إليه العديد من الحكايات عن غرامياته في الفندق ، فهو « يتدبر موعداً مع احداهن قبل انتهاء السهرة ، ثم يذهب الى شقتها ويفعل ما يحلو له » يقولون ، و« عرقي محبوب ، النساء يفضّلنه على ازواجهن ، وهو يختلس مواعيده مع النساء اثناء ترنح رجالهن السكارى في الصالات » والغجر يبالغون في وصف تلك الغراميات ، حتى أن « ناصي الكناس » قال ذات مرة بأنه شاهده قبيل الغروب جالساً في سيارة أمريكية الى جانب امرأة جميلة « تفكّ عن حبل المشنقة » غير ان ما ينغّص عيش عرقي ، ان هاجار مصرة على ان تظل زوجته ! وأنها بهذا ترفض فكرة الخروج من الوادي ، لأنها « ولدت في الوادي ، وبيتنا ، وشغلي ، وقبر أمي في الوادي ، وسبلو أبي ، والناس الذين أعرفهم كلهم في الوادي » .

* * *

دبيب الاتي

(١)

امتـدت الحياة في الـوادي وتشعبت ، كبر الصغـار ، هرم الكبـار ، تغيرت البيوت والدكاكين ، حلم السكان ، خططوا لحيواتهم ، لَمَاتهم ، وسّعوا بيوتهم ، رسّخوها ، كأنما لتعيش ابدا ! لكن احساساً واحداً ، ظل ينغص عليهم بهجة انجازاتهم تلك « ماذا لو تبين أن لأراضي الوادي مالِكين قانونيين ؟ » كان هذا مبعث قلق دفين لا يستيقظ الا عندما ينوي احدهم بناء غرفة جديدة ، او تلييس جدار ، هنا يبرز السؤال شرساً وقاهراً « ماذا لو ظهر اصحاب الأرض ؟ ماذا لو طالبوا بأرضهم ؟ هل ستنفع حجج البيع في هذه الحالة ؟ » كثيراً ما ناقش السكان هذا الأمر فيما بينهم ، لكن نقاشاتهم تلك ، لم تتخذ جدية الممكن ! كانوا يقولون ، لو أن اصحاب الأرض موجـودون لظهروا خلال السنوات الطويلة المنقضية على نشوء الحياة في الوادي ! او على الأقل ، لقاموا بزيارة تلك الأرض ! بعض السكان فكروا بالأمر من زاوية اخرى ، اذ لو كان لدى الجهات المختصة شك في مشروعية بناء البيوت في الوادي ، لما وافقت على تمديد المياه والكهرباء الى تلك البيوت ، ولما حضر جباة الضريبة والنفايات الى الوادي ، والأهم من هذا وذاك ، ان السكان كلما نظروا الى البيوت المزدحمة المنتشرة على جانبي الوادي ، احسوا باطمئنان مبعثه استحالة امتلاك أي مخلوق ، جرأة المطالبة بتلك الاراضي المـلأى بالحيـاة وبالبيوت والدكاكين والأزقة والأحلام ! كان مشهد البيوت المتراصـة يعمّق

في نفوس السكان احساساً مبهماً بالثبات والبقاء ، أما مسافات السنين الماضية ، فهي تكفي لالغاء أي احتمال لأية هزة قد تطيح بالحياة في الوادي ! ربما أرادوا بأقوالهم تلك، وبنقاشاتهم المتباعدة ، طمس ذلك السؤال المرعب ، الذي عبث بأعماقهم قبل ان يبيت في زواياها المظلمة : ماذا لو ظهر اصحاب الأرض ؟ ربما عاش السكان صراعاً خفياً مع ذلك الاحتمال الشنيع الذي لا يني يطل برأسه ، على الرغم من محاولات طمسه الدائبة ! ربما أرادوا قهر ذلك الاحتمال بتثبيت وجودهم في الوادي ، وبناء المزيد من البيوت والجدران ، وترسيخ الأساسات ، وربما لم يستطيعوا وقف مسيرة الحياة ، او عرقلتها بهواجسهم .

(٢)

سبلو الغجري لم يعش ذلك القلق ، على الأقل منذ ان قتلت زوجته ! كان يحس بأن الوادي ليس سوى محطة في طريق طويل مجهول ، وبأن الأيام المتبقية من حياته ، انما هي العبء الوحيد الذي عليه احتماله ، بعد ان تحرر من كل اعباء بيته وابنته ! كثيراً ما سخر من ذلك التكالب الفظيع الذي قلب حيوات السكان الى مشاحنات ومشاجرات شبه يومية ! فلتدرج الأيام مثلما يحلو لها ، إذ لا بد وان يأتي ذلك اليوم الذي تتوقف الحياة فيه ، على الأقل حياته هو ! فلماذا اذن ، والحالة هذه ، يعترض سبلو مسيرة الأيام ؟ لماذا يعيش الصراع ؟ لماذا يغرق في الاحتمالات ؟

(٣)

واحد فقط من بين سكان الوادي ، تنبه الى ذلك الاحتمال ، إنه ابو سلمان الذي تمكن بعلاقاته من معرفة اسم المالك الأصلي لأراضي الوادي ،

وعنوانه ، وما اذا كان حيا ام ميتاً ! لكنه لم يشرك احداً من السكان في تحركه هذا ، فقد اراد الجلوس « ومعروف المعروف » الذي تبين انه الوريث الوحيد لكل أراضي الوادي ! كما اراد التعرف الى امكانات موافقة ذلك الوريث على بيع أراضي الوادي له ، وفكر فيما سيفعله بعد شراء تلك الأراضي ، فقال في ذاته « لكل حادث حديث » !

(٤)

استقل ابو سلمان سيارة المرسيدس الخضراء الى جانب ابنه سلمان ، وتوجها الى بيت « الوريث » في الاطراف الشمالية الغربية من المدينة ، واذ وصلا ، ادهشهما جمال منزله ذي الأسوار الحجرية ، والتماثيل الحجرية ، والحدائق المنسقة المزهرة ، والممرات العشبية ، والنافورة الحجرية وراء البوابة الحديدية المحكمة الاغلاق ، وحارا في أمر ذلك القصر ، اذ كيف السبيل الى عبوره ، كيف السبيل الى اشعار سكانه بزيارتهما ؟ وبينما يبحثان في البوابة عن كبسة الجرس ، اذ برجل ابيض البشرة وسيم الملامح ، يرتدي سترة رمادية على سروال ابيض ، يطل من وراء البوابة ، ثم يسألهما بلكنة تركية عما يريدان ، وبعد ان استجمع ابو سلمان طرفي عباءته بيديه استجمع نفسه ، فقال « نريد مقابلة السيد معروف » ثم استطرد « قل له فقط بأننا جئنا من الوادي » .

غاب الرجل في المنزل الشاسع ، فنظرا الى بعضهما دون ان يتحادثا ، وأحس ابو سلمان باختلال بسيط في توازنه ، أما ابنه فظل ساهماً في حديقة المنزل عبر قضبان البوابة .

عاد الرجل واقتادهما الى صالون واسع ذي جدران ملبسة بالخشب المحفور ، وخزائن ومناضد وكراسي مؤطرة بالخشب المحفور ، وعدد لا حصر له من التحف والتماثيل واللوحات ونباتات الزينة « التعارف أولا ، الأحاديث

العامة المقتضبة ثانياً ، العطف على الوادي ثالثاً ، مع التنويه الى فقر السكان ، وعدم اقتدارهم على شراء أراضيه حتى ولو كانت بأبخس الاثمان ، ثم التفاوض والوريث حول امكانات بيعه لأراضي الوادي ، رابعاً » تلك كانت خطة أبو سلمان لجلسته الحاسمة في ذلك المنزل ، وقبل ان يظهر الوريث من احد ابواب الصالون ، توصل ابو سلمان الى نتيجة قاطعة « لن أخرج قبل الاتفاق معه » !

(٥)

يدل وجه « معروف » المتغضّن ، وبقايا شعره الأشقر ، على أنه في نهايات العقد السادس من عمره ، لكن المظهر العام لذلك العجوز ، يوحي بأنه خارج لتوه من زوبعة غبارية ملأى بالأتربة ! فشعر بدنه الأشقر الصاعد حتى رقبته ، والممتد حتى رسغيه المطلتين من تحت كمي قميصه ، إنما يميل نحو البياض المغبر ، تماماً مثل وجهه وشعر رأسه ! وعلى الرغم من الدهشة التي دهمت أبو سلمان وابنه حال دخولهما منزله ، الا ان « معروف » استقبلهما بتواضع غريب ، وصافحهما كأنما يعرفهما منذ زمن ! شيء واحد فقط هو الذي نغص معروف المعروف حينئذ ، انه طريقة سلمان في المصافحة الحادة ، ونظراته المسلطة الغريبة ! لقد تجاهل معروف تلك النظرات لفترة من الوقت لكنه اضطر الى الالتفات لعيني سلمان ، وتساءل عن السبب الذي يدعوه الى التحفز المتصل ؟! معروف تدرج في حديثه وابو سلمان حسبما اراد هذا الأخير ، واذ وصلا الى بيت قصيدهما ، فوجيء أبو سلمان بالخبر الذي قذفه معروف في وجهه ووجه ابنه، حيث قال، بأنه تقدم الى المحكمة بقضية ضد جميع سكان الوادي منذ ايام ، وان التفاصيل كلها موجودة عند محاميه الذي تولى القضية ، ثم اردف « ألم يصلكم بلاغ المحكمة بهذا الخصوص ؟ » وقبل ان يتلقى الإجابة أكمل بخبث « ثم من قال لكما بأنني أريد بيع الأرض في الوادي ؟ »

(٦)

تلك كانت الصفعة الكبرى في حياة ابو سلمان ، فقد اضطر بعدها الى التزام بيته وفراشه بسبب الارتفاع الفظيع في ضغط دمه ، والارتخاءات المفصلية البدنية التي سببها ارتفاع السكر في جسمه ، وفكر فيما يمكن عمله من اجل انقاذ عالمه ونفوذه في الوادي ، وفي مساء اليوم التالي ، وبينما يلتف حوله عدد من رجال الوادي الذين توافدوا الى بيته للاطمئنان على صحته ، أفصح بصوته المجهد ، عن « الفعل الاجرامي » الذي قام به « معروف » تجاه السكان ، وبيّن لهم خطورة موقفهم ، وأكد على ضرورة التصرّف ازاء الشكوى التي تقدم بها الى المحكمة ، وإذ سأله الرجال بأصواتهم المصعوقة عن التصرف الذي يرتئيه قال ، بأن على السكان ان يجمعوا مبلغاً من المال ، من اجل توكيل احد كبار المحامين للدفاع عن الوادي وسكانه في المحكمة ، لكنه في نهاية لقائه بهم ، قلل من أهمية القضية ! لأمر ما ، لوى ابو سلمان اعناق هواجسه ، واستبعد ان تتبنى المحكمة تلك القضية ! غير انه اعاد التأكيد على ضرورة الاتفاق على توكيل المحامي لأن « الاحتياط واجب » كما قال في نهاية لقائه بهم .

(٧)

اضطر ابو سلمان الى وقف اندفاعته العارمة نحو الحياة ! ذلك ان استفحال السكري في جسمه ادى الى بطء حركته ، وإيثاره الراحة على مشاق الخروج من البيت ! وتوقّفَ ايضاً عن تفقد اعمال ابنه في معرضه وفي المقهى التي اعتاد تصدُّر جلساتها وسط لفيف اقاربه وصحبه ومريدي نعمته ، وبدلاً من الاهتمام بالواديَ وبسكانه المتفلّتين من سياجات رهبته ، تحول اهتمامه الى نفسه ، وقَهَرَهُ امتناعه القسري عن تناول الكثير من المأكولات التي يعشقها

حد الاشتهاء الدائم ! امتنع عن تناول الحلويات بما في ذلك الكنافة التي اعتاد ابنه سلمان احضارها له ، إمعاناً منه في ارضاء والده ، امتنع ايضاً عن ارتشاف قهوة الصباح المحلاة في بيته ، وقهوة « أهلا وسهلا » وقهوة « مع السلامة » المحلاة في الأماكن التي يزورها ، اما اكواب الشاي فلم يجد لشربها مبرراً بعد ان تلقى صفعة الطبيب التي اقتضت انتزاع اهم ما في كوب الشاي : السكر ! وكثيراً ما سخر بمرارة من اقراص « السكرين » الصغيرة التي حاول الطبيب ايهامه بجدوى وجودها في فناجين القهوة واكواب الشاي ، سخر ايضا من الشروحات المطولة التي استعرض الطبيب خلالها معلوماته الطبية ، وامتعض كثيراً حينما لم يفهم الكثير مما قاله الطبيب من معادلات ومصطلحات ، كتوازن السكر في الجسم ، والبنكرياس ، والأنسولين ، وحرق السكر ، وضغط الدم ، والهبوط . . الخ ، ومما زاد الأمر سوءاً ، ان ذلك الطبيب الذي صار يعوده مرة كل اسبوع ، أوحى له بأن الحمية وحدها لا تكفي لعرقلة تقدم السكري في بدنه المنهك ، وانما عليه ايضا التزام الهدوء ، والغاء الغضب من قاموس انفعالاته « دع الأمور تسير مثلما هو مقدر لها ، فكل الدنيا لا تساوي ، ظفرك » تلك هي نصيحة الطبيب الملتحي ، بقامته القصيرة ، ووجهه الأسمر ، ولسانه الزهري اللون ، واسنانه الناصعة التي كشف اصطفافها الدقيق ، عن انها ليست سوى أسنان اصطناعية ، اذ كيف يمكن لأسنان رجل ان تكون نظيفة الى ذلك الحد ، بيضاء الى ذلك الحد ، ومرتبة بذلك الشكل الدقيق ؟ لقد احس بأن التزامه بنصائح الطبيب ، سيعني انسحابه من حياة الوادي في ادق ظروفه ، او على الأقل ، تعليق حضوره الى حين ! ولكن كيف يمكن أن تسير الحياة بلا انفعال ؟ وهل انا مجنون حتى اسمح للناس بمعرفة ما وصلت اليه حالتي ؟ اليس المرض بداية للضعف ؟ ثم الى متى ؟ في البداية حاول ابو سلمان المكابرة ، فاستصغر المرض ، وتعملق احساسه بنفسه وبقدراته : حبس نفسه في غرفة الحمام لساعة كاملة ، حلق خلالها ذقنه ، اقتلع الشعر من فتحتي منخريه وأذنيه ،

نظف اسنانه بفرشاته الرمادية ، استحم بالماء الساخن دون الاستعانة بزوجته التي اعتادت ان تفرك له ظهره حين الاستحمام ، واذ انتهى ، احس بأنه ازال عن جسمه كل مظاهر المرض ، بل فكر اثناء تجفيفه لبدنه ، بأن السكري ليس سوى حالة نفسية مرتبطة بالكسل والتثاؤب والنعاس ، وقبل ان يغادر غرفة الحمام نظر الى وجهه في مرآة المغسلة البيضاء ، فأحس بانتعاش مبعثه ذلك التورّد الذي كسا جبهته العظميَّة وخديه الضامرين ، وتجاهل المشهد النصفي لصدره المترهل الذي بدا له في المرآة مكسواً بلفائف الشعر الأبيض المتكاثف بين ثدييه البنيين ، وفي محاولة منه لتبديد احساسه المؤقت بشيخوخته ، اقتلع فجأة وبأظفريه ، شعرتين بيضاوين طويلتين ، ملتويتين كالاسلاك حول حلمة ثديه الأيسر ، حيث مكنته وخزة الألم من تذويب إحساسه المؤقت السريع بالشيخوخة ، فارتدى سرواله وفانيلاته ومنامته الخضراء المخططة ، ثم لف المنشفة حول رأسه ورقبته ، وخرج قائلاً في نفسه المزهوة بنصر انتعاشه « قال اترك الدنيا قال ، امّا كلام فارغ » ! وإذ دخل غرفة نومه زعق بصوته الذي استقام له في تلك اللحظة « يا ام سلمان ، أين العطر » ؟ واذ ناولته زجاجة عطر الكركدن الذي لازمه خلال السنوات العشر الأخيرة من عمره ، بلل يديه بذلك العطر ، ثم فركهما ومسح وجهه ، ودعك رقبته وصدره ، ثم هز يديه بقوة اومضت في نفس زوجته صورة شبابه الفتي ، غير ان تلك الصورة سرعان ما اختفت حال خلعه منامته وارتدائه مئزره وعباءته السوداء المذهّبة الأطراف « انا طالع » قال لها ثم توجه الى معرض ابنه سلمان : تحدث اليه بحيوية اربكته ، اشار عليه بعرض المزيد من التلفازات والمسجلات بدلاً من ابقائها في صناديق الكرتون والأسبست ، طمأنه عن صحة زوجته (سارة) التي اصاب الصداع رأسها منذ الصباح ، ذكّره بالعشاء الذي سيقيمه لأخوته (اعمام سلمان) وحينما انتهى عدل وضع حطته وعقاله ، ثم خرج متوجها الى مخفر الحي الشمالي من اجل زيارة صديقه رئيس المخفر ، واذ عرض سلمان فكرة ايصاله بسيارته المرسيدس ، رفض قائلاً « المشي احسن ،

بلا سيارات بلا كلام فارغ » ! في المخفر قدم له الضابط كوباً من الشاي المحلى ، فشربه مدفوعاً بزهو انتعاشه ، متناسياً ما قد يسببه له ذلك الكوب من متاعب جسمية ، إضافة الى انه لم يرغب في تذكير صديقه بضعفه البدني ، واذ تذكر الضابط ان ابو سلمان مصاب بالسكري ، انكر عليه اقدامه على شرب الشاي المحلى حرصاً على صحته ، فكابر قائلاً « بلا سكري بلا وجع قلب ، الاعمار بيد الله ، هات لنا قهوة ، هات » « لكن بدون سكر » قال الضابط محذراً ، فرد بلا مبالاة « بسكر بلا سكر كله واحد » !

(٨)

حينما عاد من جولته ، أحس بارتخاء في مفاصله وغبش في عينيه ، واذ وصل معرض ابنه تهالك على احد المقاعد لاهثاً ، ثم طلب نقله الى البيت ليرتاح ، غير ان سلمان لحظ شحوب وجهه واختلاف هيئته عنها حين ذهابه الى المخفر ، كما لاحظ فتور همته وخبو نشاطه ! سأله عما اذا كان بحاجة الى الطبيب ، فعاد للمكابرة « لا ، أبداً ، هذا التعب بسبب مشوار الطريق » ! كان ابو سلمان مكابراً في تفاهمه مع مرضه ، وان كان ثمة صراع يخوضه ، فهو ليس مع المرض ، وانما مع الآخرين الذين هم خارج دائرة نفسه ، كان يحس بأن عليه ان لا يظهر ضعفه امام احد ! وهنا كَمَنَ صراعه ، اذ صحيح ان السكري يعيش في بدنه ، لكنه يكبر ويتعاظم في ملامح الآخرين المشفقة ! الآخرين الذين يزيدون من هزاله بعباراتهم وادعيتهم له بالشفاء ! المرض ، يستمد قوته من ملامح الآخرين القلقة ، ويتغذى على التأثيرات الغامضة لعبارات الاشفاق والتعاطف التي يكررها الاخرون تجاه المريض ! هذا ما يقوله أبو سلمان ، لذا فإنه يحس بأن صراعه الحقيقي ليس مع المرض الذي بدا له أصغر مما صوره الطبيب بكثير ! ولذا ايضاً ، أخفى مرضه عن الكثيرين ، ونفى وجود السكر في بدنه ، وربما كان هذا من الأسباب التي

مكنته من اكمال مشواره القوي الجارف مع الحياة منذ ان اكتشف اطباء المستشفى مصادفة ، وجود السكري في بدنه عقب اصطدام سيارته الفورد الحمراء بالشاحنة . اما الآن ، فإن الأمر مختلف ، الأصح ، ان الأمر اختلف منذ الغيبوبة الأولى التي طرحته ارضاً في واحدة من اثمن لحظات حياته : يوم زفاف ابنه سلمان !

في ذلك اليوم ، اعلن السكري عن نفسه بعد صبر دام اعواماً ، كما تبع ذلك الاعلان الكثير من التغيرات التي طرأت على هيئته خلال السنوات التالية ، فعلى الرغم من تكتمه ، ومحاولاته المستميتة لحصر ذلك الاعلان في اضيق الحدود ، إلا أنه لم يستطع اخفاء نحوله ، وشحوب وجهه ، ومجموعة الطباع العصبية التي تخلّقت في نفسه خلال الشهور الأخيرة ، كصراخه في وجه زوجته المطواعة بسبب بطئها في تحضير شيشته الملونة ، او بسبب نومها المبكر الذي اعتادته منذ اليوم الأول لزفافها اليه .

كان يصرخ في وجهها واصفاً إياها بالغباء كلما سألته عن صحته ، وعما اذا كان ملتزماً بحميته اثناء زياراته التي يقوم بها الى اصدقائه « ألف مرة قلت لك لا تتحدثي عن المرض » وعائشة تصمت ! غير ان حرصها عليه ، دعاها غير مرة الى مخالفة تعليماته الصريحة بعدم التطرق الى كل ما يذكّره بمرضه ، وكانت تتدخل في خلافاته وابنه جبر الذي لم يعجبه يوماً ، كانت تحاول تهدئته تجنباً لما يمكن ان يسببه انفعاله من مضاعفات ، غير ان تدخلاتها تلك لم تكن سوى شرارات جديدة في حقول انفعالاته الكامنة ، كان يجتث صوته من قاع حنجرته ، فيودي بصفاء زوجته وابنه جبر ! كان مفتوناً بابنه سلمان الذي « يشبهني اكثر من اللازم » اما جبر فزفت « زفت عليه وعلى اليوم الذي جاء فيه » جبر صار زفتاً منذ ان تناهى الى مسامع والده ذات مرة ، انه بوقفته على شباك غرفته ، انما كان يغازل ابنة سبلو الذي هو « دون مستوى اقل فلاح في الوادي » كان يقول لابنه جبر الكثير من الكلمات التي تشير الى مستواه الأسري الرفيع ، وكان يشدد على كل كلمة يقولها ، من اجل غرس تقاليد

رهبته في نفس ابنه الهادىء ، وحينما يجالس زوجته ، يقول لها بمرارة « هذا ما تعلمه ابن الجامعة ، المحترم » .

(٩)

كلما ارتفع السكر في جسم ابو سلمان ، اضطر الى التزام فراشه لأيام طويلة ، وكلما بقي في البيت ، ازداد حنقه ، واحساسه بفقدان شيء مهم ! هو لم يحدد ذلك الشيء الذي بدأ بفقدانه ، كما لم يحاول البحث عنه ، غير انه ايضاً ، لم يكن يتوانى عن الانفجار غيظاً وغضباً لأتفه الأسباب ، كأنه بهذا يريد ملء فراغات هيبته ، وثغراتها التي اخذت في الاتساع منذ بدأت تراجعاته امام ضرورات الحمية القاسية ، والعلاجات الأبدية ، والغيبوبات المتقاربة ، واخيراً ، الالتزام الصارم بالفراش لأيام طويلة ! كان يرفض النوم في المستشفيات معتقداً بأن المستشفيات هي التي تزيد الأمر سوءاً ، وهي التي ترسخ الاحساس بالمرض ، وهي موطن الشماتة القاتلة المتمثلة في نظرات التعاطف ، والاشفاق ، والحرص الزائف ! كان مصراً « لن ادخل المستشفى ما حييت » وصار الطبيب يعوده مرتين كل اسبوع ، يقيس ضغطه ، نبضه ، حرارته ، ضربات قلبه ، قوة اصابعه وارتعاشاتها ، ويرقب تنفسه ، وقدرته على التحرك والنطق والسمع ، وكان ابو سلمان يستغرب الكثير من التغيرات التي يراها في ملامح ولديه وزوجته ، وتساءل غير مرة عن التغيرات التي طرأت على من هم حوله ، مفترضاً بذلك ، انه لم يتغير ! كثيراً ما طرح تساؤله هذا امام زوجته وولديه وأقاربه وأصدقائه الذين تكررت زياراتهم له ، كان متشبثاً حتى خداع النفس ، بمجده الذي حققه على مدار حياته الزاخرة ، غير ان هذا لم يدخل في قياسات تقدم السكري في بدنه ، بل على العكس من ذلك ، فقد فرّخ تشبثه هذا ، مزيداً من السخط ونوبات الغضب المصحوبة بزبد شدقيه ! على ان الملاحظة الهامة التي ادخلت الرعب الى نفس زوجته

عائشة ، هي نوبات التشاؤم والسخط التي صارت تنتابه كلما رأى باب خزانة الملابس البنية مفتوحاً « مليون مرة قلت لك اغلقيه » « نسيته يا شيخ » « لا تنسيه يا مسطوله » وعائشة فسّرت الأمر على أنه إحساس من جانبه باقتراب نهايته ، فقد أفلت ذات نوبة من نوبات سخطه ، عبارة « اغلقي هذا النعش » ثم بعدها طلب نقل الخزانة من الغرفة التي ينام فيها ، فنقلت على الفور ! طلب نقل التلفاز الى غرفة نومه فنقل ايضاً على الفور ، طلب ابقاء المصباح الكهربائي مضاء طيلة الليل ، فأبقته ام سلمان محتملة بذلك سهاد ليلها وأوجاع تقلّبها في فراشها ، وذات ليلة هادئة من تموز ، فاجأ ابنه سلمان بقوله « تعال اقترب مني » ! فاقترب **سلمان « أعطني** وجهك » ! فمد وجهه ، فقبله وسط دهشة زوجته وزوجة ابنه **اللتين التفتتا** الى بعضهما دون ان تجدا تفسيراً لسلوكه ذاك سوى ، الوداع ! لكنه لم يقبل ابنه من اجل توديعه ، وانما بسبب توصله الى حل نهائي لمعضلة تنازله ! فبعد ان تعمق احساسه بحقيقة عجزه وما قد يترتب على ذلك العجز من نتائج في تلك الظروف الدقيقة من حياته ، أضاءت ذهنه فكرة أو ، ربما حيلة ، مفادها ان سلمان يشبهه ، وأنه امتداد له ، لذا لا ضير من ان يضطلع بمركز والده ، لأن هذا سيعني بقاء ابو سلمان حتى بعد انقطاعه عن المشاركة في كل ما يجري في هذه الدنيا !

هذا هو الحل الذي أتاح له اخيراً ، فرصة التنازل النفسي الذي لم يكن وارداً قبل بلوغه مرحلة الهزال هذه ، كما ازاح بهذا الحل عن صدره عبء مكابراته التي أتعبته ، وعبء مواجهة احتمالات شكوى « معروف المعروف » الذي يصر على الاحتفاظ بملكيته لأراضي الوادي ! لكن الغريب ، أنه بتوصله الى تلك النتيجة ، وبعد ان قبل ابنه ، اصيب بغثيان مفاجيء ، وحزن مفاجيء ، وخواء لم تعرفه حياته الماضية ، وحينما أراد التعبير عن حالته ، لم يسعفه لسانه الذي انعقد فلم يعد قادراً على النطق ، وهنا دب الصراخ في البيت ، لكن الرجل لم يمت !

(١٠)

أدركت ام سلمان ما ينتظرها من مهام حال انطواء عود زوجها وانعقاد لسانه ، وارغمت نفسها على احتمال ما لا يمكن احتماله من المشاهد التي تثير في النفس رغبة التقيّؤ والانقباض ! كما اعتادت القيام بواجبات نهارية ليلية تقتضي : إزالة لعاب زوجها عن شفته ولحيته بمناديل الورق ، إحضار الإناء المعدني ووضعه تحت مؤخرة ذلك الزوج وعند قضيبه من اجل جمع غائطه وبوله الأصفر ، تبديل منامته وملابسه الداخلية كل يوم بناء على تعليمات الطبيب الذي قال بأن لا فائدة من نقله الى المستشفى ، وبأن من الأفضل أن يموت في بيته وبين أفراد أسرته ! اعتادت ايضاً ربط المريلة البيضاء حول رقبته عند تزويده بطعامه الخالي من السكاكر والدهنيات والنشويات وكل ما من شأنه تسهيل مهمات تقدم السكري في جسمه المنهوك ، وكثيراً ما عمدت الى التحدث اليه في أثناء صحوه ، من اجل تهدئة اعماقه المرتعشة من مجرد احتمال الموت !

كانت تؤكد له بأن عقدة لسانه لا بد وأن تُحَلْ ! وأن صحته ستعود اليه مهما بلغت من السوء ! كانت تضرب له العديد من الأمثلة عن أناس عادوا الى الحياة بعد أن فقدوا كل أمل بالشفاء ، غير أنه لم يصدق أقوال زوجته تلك ، فقد كان يتذكر والدته في عراكها الأخير مع السكري ، وكيف تمكن ذلك الداء منها على الرغم من محاولاته التي بذلها حينئذ لطمأنتها ، لقد رأى في كلمات زوجته رثاء حقيقياً له ، لذا أشار بيده اليها أن اصمتي ، فصمتت ، لكنها لم تستطع مفارقة سريره ، كانت تحس بأن كل ما تبقى له من الدنيا مجرد ساعات معدودة ، وكلما سكنت حركات صدره وجوزة رقبته ، قرَّبَتْ وجهها من أنفه وفمه ، لكي تتأكد من بقائه حياً ! ام سلمان قامت بأدوارها تلك ، بآلية تجلدت عندها أحاسيس القرف والخوف التي تملّكتها لحظة انعقاد لسان زوجها ، لكن اعماقها عابثت إحساساً مبهماً تضمّن انتظاراً مريباً للحظة

الخلاص من ذلك الزوج الـذي لا يريد أن يموت ! ؟ حاولت طمس ذلك الاحساس مراراً ، إلا أنه كان يعاودها بأشكال مختلفـة ، فتارة يـدفعها الى التنهد العميق ، وثانية إلى التأمل الطويل لوجه زوجها المغمض العينـين ، وثالثة الى التمشي في باحة الدار بضيق ! وفي محاولة منها للتغلب عـلى ذلك الاحساس ضاعفت من عنايتها به ، ونادت ابنها جبر ليحلق له ذقنه ، لكي يبدو أمامها حيّاً على الأقل ! أما هو فكانت ذكريات حياته الماضية تتلملم في مخيلته بلا تسلسل كلما اغمض عينيه . لم يبق له غير ذكرياته الزاخرة ، وكانت احداث شوطه مع الحياة ، تتداخل في ذاكرته ، فلا تدع له فرصة تنسيقها او التفرد بأي منها ، عبثاً حاول ابو سلمان تصفيف ذكرياته ، بل تمنى لو ان احداً يعبر ذاكرته ، ويساعده على ترتيب ايامه السابقـة ! واحد فقط ، استـطاع العبور الى ذاكرته بشكل متكرر شبه منتظم ! انه « معروف المعروف » الذي اقتحمه في أيامه الأخيرة مخترقاً بذلك كل احداث حياته الحافلة ، وكل ذكرياته غير المنسقة !

(١١)

« معروف المعروف » اسهم بظهوره المتكرر هذا ، في تأكيد أحاسيس « أبو سلمان » بنهايته المحتومة ! كثيراً ما تمنى لو ان احداً يعينه على ازالة عبء الظهور الكابوسي لصورة ذلك الرجل ! لكنه ايضاً ، كان بحاجة الى من يعينه على مناقشة أمر أتاوة أثمان الأرض التي تقاضاها من السكان ، احرام هي ام حلال ؟ ولحظة الموت اقتربت ، يعرف هذه الحقيقة ! ويعرف بأن فعلته أبعد ما تكون عن الحلال ، وأن كل ما يفعله في لحظاته العصيبة هذه ، انما هو بحث عن تبرير مهدىء يطمئنه على آخرته ! كان يتساءل في ذاته العاجزة ، عن امكانات اجراء أي تعديل على ما صنعته يداه ، فيوم الحساب آت ولا ريب ، وعليه ان هو اراد تجنب عذابات الآخرة ، ان يكفّر عن كل ذنوبـه

الدنيوية وعلى رأسها ، تلك الأتاوة الجارية : أثمان الأراضي ! لكن النطق لا يسعفه ، فقد ثقل لسانه ، وتحول الى كرة لدنة متبلدة تضغط فكه السفلي ، فتبقي فمه مفتوحاً اثناء صحوه ، ونومه ، وغيبوباته التي وصفها الطبيب قائلاً بأنها من علامات الموت ! كان يقول في نفسه « يا رب انت اعلم بحالي ، اريد التكفير عما فعلته ، لكنني لا استطيع يا رب ، لا استطيع » وحينما يتذكر أنه من الممكن تغيير الأمور بأضعف الايمان ، يستبشر خيراً للحظة ! كأنما يرمي بكل ذنوبه على رغبته العاجزة في تغيير الأشياء بأضعف الايمان : بقلبه فقط ! أما الصلاة فلم يعد قادراً على ادائها قياماً كالاصحاء ، لذا اكتفى بصلواته المضطربة الصامتة اثناء استلقائه على السرير .

(١٢)

لقد احس بنفور الآخرين وتقززهم من مشهده ، غير انه لم يفكر طويلاً في امر ذلك النفور ، وانشغل في صراعه الضاري مع سنان السكري التي نهشت بدنه ، واحرقت دمه وخلاياه ، واوصلته الى حد آثر معه الاغماض على جهود فتح الجفون ، كما أدى سيلان لعابه ، وظهور الزبد على شدقيه ، الى ازدياد نفور زوجته وابنائه منه ، والى اضطرارهم لانتظار لحظة الفرج المتمثلة في موته ! هذا ما فكروا به فرادى دون ان يصرحوا به امام بعضهم ، هذا ما قالته عيونهم وجفونهم وتقاطيعهم المتقلصة ونفحاتهم العميقة ! وذات ليلة من آب ، وبينما تعارك ام سلمان سهادها ، سمعت حشرجة خفيفة مكتومة ، فالتفتت الى زوجها ، اقتربت منه ، هزته ، فانفجرت صياحاً . . .

(١٣)

على الرغم من ان موت ابو سلمان استغرق اياماً اختفى خلالها من حياة الوادي ، إلا أن وجوده الملغي ذاك ، كان يعرقل تفرد سلمان بالقرار ،

ويشعره بوجود شريك له في كل ما ينوي تنفيذه ، سواء في بيته ، ام في عمله ، ام في كيفية التصرف بأمواله ، لكن سلمان حينما استمع الى الطبيب اثناء زيارته الأخيرة لوالده ، اصيب بكآبة مفاجئة ، وتذكر كفاح والده في هذه الحياة ، ومجده الذي بناه في الوادي ، وليلة توقفت نبضات قلب ذلك الأب ، قبل جبهته الباردة ، ثم قبل عينيه ، فخدّه الأيمن ، فالأيسر ، وحينما قبل لحيته امتلأ فمه بطعم اقرب الى الصدأ ، مما دعاه الى الابقاء على ذلك الطعم في فمه دون ابتلاعه ، وبعد برهة قصيرة ، انسل خارجاً ليبصق في ظلمة الباحة الواسعة ما تجمع في فمه من صديد لم يذكّره بأي موقف في حياته ! وعلى الرغم من اصفرار وجه ابو سلمان الميت ، وابتلال شدقيه بزبد المغالبة الأخيرة مع الموت ، ثم بروز عظمتي وجنتيه ، وجفاف اصابعه ومعصميه ، على الرغم من كل هذا ، تفقد سلمان إمكانات وجود الحياة في ذلك البدن المتخشب ، ثم أرسل من فوره شقيقه جبر لإحضار الطبيب من منزله عند التقاطع الشرقي ، غير أن مجيء الطبيب لم يغير في الأمر شيئاً ، بل قوّض بتأكيده على وفاته تلك الاحتمالات المبهمة ، التي تراود الناس أحياناً ، وتدعوهم الى توقع انبثاق الحياة من لحظة الموت !

(١٤)

تصدَّر اعمام سلمان وبقية اقاربه ، مراسم جنازة فقيدهم ، وأحضروا العطور ولفائف القطن والقماش الأبيض ومحمّم الموتى ، كما صعدوا اعالي الجبل الشمالي حيث المقبرة ، وحفروا حفرة عميقة من اجل دفن جثمان أبو سلمان الذي تمثل في مخيلة ابنه جبر الحزين حينئذ ، رجلاً مديد القامة مثلما كان في شبابه ، ولقد احتلت هذه الصورة ذاكرته لساعات طويلة ، وحين الدفن ، اشرف بنفسه على وضع اللبنة التي ستستريح عليها رقبة والده ورأسه ، ثم اشرف على انزال الجثمان داخل القبر وسط مزيج الأدعية

والتكبيرات والولولات ، وبكى الكثيرون والكثيرات من اقارب الميت في تلك اللحظة ، واحتضنوا جبر وسلمان الذي حاول استدرار شيء من دموعه العصية ، غير ان تلك الدموع لم تطاوعه ! لأمر ما لم يتمكن سلمان من تمثل احزانه ، وبدلاً من أن تحدر دموعه ، اصاب وجهه انقباض ما كان له أن يستبد به ، لولا إحساسه الممضّ بالالزامات العائلية والاجتماعية التي تستدعي البكاء في مثل هذه الحالات ، ولقد عزا سلمان في ذاته حينئذ ، أسباب تمنّع دموعه ، بتذكّره فرضية موت والده التي سلم بها منذ اللحظات الأولى لانعقاد لسانه ، كما خاطب نفسه قائلاً ، بأن الحزن لا يقاس بالبكاء ، وأن حزن الرجل في قلبه ! ووجد في هذه المقولة خير تبرير لجمود قلبه ، ولقسوته التي اضفت على شخصيته منعة خفية ، ترسخت في اذهان اقاربه ، وازواج اخواته ، وكل رجال الوادي الذين شاركوا في الجنازة ، كما أدت قسوته تلك ، الى انتشار العديد من التقولات حول سلمان الذي « لم يبك مثل شقيقه وأقاربه » والذي « كان يتمنى الخلاص من والده » والذي « قلبه مثل الحجر » والذي « لا يستطيع ان يحزن كالآخرين » ! لكن تلك التقولات اختفت وراء القسمات الجادة للمعزين الذين حضروا الى بيته خلال الأيام الثلاثة التالية ، ومثلما اسهمت اشاعات سكان الوادي في خلق منعة سلمان، فقد اسهمت ايضاً ملامح التأثر والبكاء التي لم يستطع جبر اخفاءها ، في انتشار مفهوم مفاده ، ان جبر شاب حي الضمير ، وفي ، مخلص ، انسان ، ذو خصال حميدة قلما تجتمع في شاب مثله ! غير ان اقوال السكان تلك لم تصل مسامع اي من سلمان او اخيه او اقاربه الذين تناولوا معاً ، طعام عشاء الميت في بيت واحد من أقاربهم في الوادي ، حيث تخلصوا من الدعوات التي وجهها السكان لهم من اجل « كسبهم » في أيّ من ظهيرات او مساءات ايام العزاء الثلاثة ، تخلصوا من كل تلك الدعوات متذرعين بعاداتهم الأسرية الخاصة التي تحظر على ذوي الميت الخروج من دائرة اقاربهم في مثل هذه الحالات ، على ان سلمان ابو بركة ، كان اكثرهم رفضاً لتلك الدعوات ، واكثرهم تمسكاً بذلك

الهدوء الذي هبط فجأة عليه ! والحقيقة ان سكون سلمان ، واطراقه خلال جلساته وأقاربه وجموع المعزين ، لم يكن بدافع الحزن على والده الميت ، انما هو نتيجة لتفكيره فيما سيفعله بعد الانتهاء من ذيول العزاء ومستلزماته الثقيلة الظل ، كان في اطراقاته تلك ، يحس بأن الحياة كلها بانتظاره خارج بيته ، وأنها تستحثه على ضرورة الخروج من خيام الحزن المنصوبة في ذلك البيت ، لكنه لم يتمكن من التفلّت من اللازمة الأسرية التي تطالبه بالاضطلاع بدوره ، ككبير لأسرته بعد والده !

(١٥)

الحقيقة الأخرى التي رافقت موت ابو سلمان ، ان دعوة نزار ابو خنجر (تاجر النوفوتيه) لآل أبو بركة من اجل تناول طعام عشاء الميت في بيته ، كانت اكثر الدعوات الحاحاً واصراراً ، اذ ما ان اصطف آل ابو بركة امام القبر لتقبُّل عناقات ومصافحات المعزين ، حتى ظهر نزار ابو خنجر ، بجسمه الضخم ، ووجهه الحرذوني ، ظهر بين صفوف المشاركين في الجنازة التي بدأت بمهابة وجلال ، وانتهت بشكل لم يرق لأي من افراد آل ابو بركة ، فقد اضطروا اثناء حملهم للجثمان ، الى عبور الزقاق الصاعد الطويل ، الفاصل بين صف البيوت الممتدة وراء منزل الميت ، وبين صف البيوت الممتدة وراء بيت سبلو الغجري ، حيث اصطدم النعش الخشبي مراراً بالجدران المحاذية بسبب ضيق الزقاق ، وكثرة المتطوعين الذين لم يكتفوا بمرافقة الجنازة ، وانما شاركوا في حمل الجثمان ، او حتى لمسه ! ما ان اصطف آل ابو بركة لاستقبال المعزين ، حتى اقترب نزار ابو خنجر من سلمان ، عانقه وربّت على كتفيه بحرارة دعت أعمام سلمان الى التساؤل عن علاقة ذلك الرجل بشقيقهم الميت ، وبابنه سلمان ! وإذ أنهى نزار عناقه الطويل ، قال بلهجة مشحونة بالكثير الكثير من النفحات الجادة ، والمعاني الخفية الواضحة ، قال « البقية في

عمرك يا سلمان ، والاعمار بيد الله » قال ايضاً بعد ان تنهد « يعلم الله كم احببت فقيدنا » وقبل ان ينتقل الى معانقة جبر قال « عشاؤكم الليلة عندي في البيت » لكن سلمان كان اذكى مما ظنه ، فقد فسر تلك الدعوة على انها الرسالة الأولى التي يخُطّها نزار اليه ، من اجل اشعاره بندّيته ! نزار اذن يريد التطاول ! يريد وضع نفسه في مصافنا ! هذا ما خطر لسلمان حال استماعه المتيقظ لعبارة نزار الذي لم يطل انتظاره للرد المشحون بالكثير من النبرات الجادة ، والنظرات المسلطة والمعاني الصادة « بارك الله فيك ، لكن من عاداتنا أننا لا نقبل الطعام الا في بيوت اقاربنا » ! هنا تغير لون نزار ، لا بسبب رفض سلمان لدعوته ، وانما لما يحمله ذلك الرفض من اصرار على الابقاء على المسافات الفاصلة بينهما ! وعلى الرغم من الحاحاته التي حاول عبرها التأكيد على ندّيته ، إلا أن سلمان ظل متحصناً برفضه لتلك الدعوة ، ولما حملته من معان لا يمكنه قبولها ، ابداً !

* * *

الكتـــاب الثاني

التبليـــغ

(١)

كان من الممكن ان يظل ليل الوادي ، مثلما عرفه السكان قبل ظهور « التبليغ » :

أعراس صاخبة ، دكاكين مغلقة أو مفتوحة على جانبي الطريق ، بقايا قشور وأوراق ، أعمدة متقشرة ، خيوط طائرات ورقية مشتبكة بأسلاك الكهرباء ، مصابيح مضاءة ؛ أخرى مهشمة ، مراهقون يتمشون في طريق القاع ، يتحدثون عن الفتيات والأفلام والحب والمباريات ، رجال يسهرون أمام البوابات ، يتحدثون في السياسة والنقود والمبادىء والاسعار والحرب والسلام ، وشبان بثياب ملائكية يتحادثون وقوفاً أمام مسجد اسمنتي ، أو يعترضون المارة من أجل هدايتهم .

كذا الليل في الوادي : ونوافذ مضاءة لبيوت تسلقت جانبي الوادي ، تعلوها جدران ونوافذ أخرى مضاءة أو مطفأة ، ثم شبابيك أكثر ارتفاعاً وأقل اتساعاً ، أو هكذا تبدو من القاع ، ثم جدران ، فنوافذ أكثر اقتراباً من السماء ، ثم مقبرة عالية ملتحمة بالأفق الشمالي .

ولكل كائن دوره في ليل الوادي ، فحينما تُطْفَأ الأضواء ، وتخف الأرجل في المسارب والطرقات ، يتعالى نباح الكلاب ، وأزيز حشرات الليل عند المقبرة ! يتعالى مواء القطط ، وخناءات قتالاتها الضارية على بقايا الطعام في أكياس القمامة الممزقة ، لكن قطط الوادي لا تجرؤ على الاقتراب من جرذانه

الضخمة المتحدية ! قطط الوادي أعادت النظرة في عدائها التقليدي للجرذان ، بل ربما تحول ذلك العداء الى نظرة متّزنة ، قادرة على الاعتراف بالواقع الجديد ، الذي خلقه وجود جرذان « العرسة » المستعدة أبداً للتكتل والردع !

(٢)

كان من الممكن ان يتلاحق نبض الحياة في الوادي ، فيستمر في سيره المعتاد ، مثل قطار متقدم في ضباب المجهول ! غير أن الليلة التي أعقبت زيارة « المحضرين » الى الوادي ، بلغت من الوحشة حداً ، تجمع السكان معه تحت أعمدة الكهرباء هرباً من احساسهم المالح بجدية « التبليغ » !
وقيل في الوادي ، ان رؤوس الرجال انقلبت بعد اطلاعهم على نص « التبليغ » ! قيل أنهم لم يتبينوا وجه السماء من قفاها ! وأن الصواب فر من عقولهم وأفئدتهم ! طار الصواب مثل عصفور شارد من دوي مروع !
قيل أيضاً ، ان ثلة من رجال الوادي تداولوا أمر « التبليغ » فيما بينهم ، وقرروا بنزق : لن نترك بيوتنا حتى ولو هُدمت فوق رؤوسنا ! سنوصل القضية الى اعلى المستويات ! سنلاحق المحامي الذي جمعنا له النقود ! سنحاكمه على تقصيره في المرافعة بالنيابة عنا ! سننصبّ محامياً مرّاً من اجل الدفاع عن حقوقنا !

(٣)

نص التبليغ « مستمد من صراحة المحكمة ، ومن قوة القانون الذي لا تفزعه الاحتجاجات ، ولا تثنيه الاعتراضات » هذا ما قاله المحضر الأبيض في الظهيرة التي تم خلالها توزيع نسخ التبليغ على السكان .

والنسوة اللواتي اعتدن قضاء الساعات المعلقة من نهاراتهن جلوساً على الحجارة المهشمة ، توقفن في تلك الظهيرة عن أحاديثهن مستطلعات ذلك الانتشار المدروس ، للمحضرين الذين تأبطوا قوائم الاوراق حال مغادرتهم الاستعراضية للسيارة الكحلية ، أما الصبية فكفوا عن ملاحقة بعضهم في الطريق ، واشرأبت أعناقهم الرفيعة ، ثم تلملموا حول السيارة ، وحول المحضرين الذين دلّلت طريقتهم في قرع بوابات الدور ، عن تصميم وعناد لا صادّ لهما !

كانوا يقرعون البوابات بأكفهم الملحاحة ، واذ تفتح ، يسألون أصحابها عن أسمائهم ، ويبللون أصابعهم بلعابهم باحثين عن تلك الأسماء بين أوراقهم المسحوبة على ناسخات (ستانسل) ، ثم يضعون الى جانب كل اسم علامة × ، ويطالبون صاحبه بالتوقيع على قوائم الاسماء كدليل على استلامه لنسخة من تبليغاتهم المحشورة بين الملاقط المعدنية « إقرأوا نص التبليغ جيداً » كانوا يقولون للسكان المتجمعين ، ثم ينتقلون الى أزقة أخرى موكلين أمر محاورة السكان ، الى الموظف الأبيض الذي تشاغل بتصفح أوراقه في محاولة منه لاستجماع صوته الذي ذوى « اسمعوا ! » قال باندفاع وأضاف بذات اللهجة « تعلمون أن أرض الوادي مملوكة لغيركم » ثم حك ذقنه بعد أن عاوده احساسه بالارتباك الذي قد تستدعيه بداية المواجهة ، او ربما بداية التحدث الى جمع من الناس « قرار المحكمة قطعي لا رجوع فيه ، فإما ان تدفعوا ثمن الأرض لصاحبها ، واما ان تخلوا بيوتكم وترحلوا ! معكم خمسة عشر يوماً بلياليها ، تدبروا أموركم » ثم طوى أوراقه ، ورفع رأسه من أجل الاستماع الى تساؤلاتهم واستفساراتهم المحمومة حول « جدّية التبليغ » و« حجج البيع التي نملكها » و« دور المحامي الذي جمعنا له النقود » و« ما الذي سيحصل لو لم نغادر بيوتنا » و« الثمن الذي يريده صاحب الأرض » . . .

(٤)

المحضر الأبيض القميص والوجه والاسنان ، أجاب عن كل

استفسارات السكان بوضوح زاد من رغبتهم في التساؤل، والتجمع حوله ، والتفكر ، والاحتداد ، وضرب الصبية الذين لم يكفوا عن التناهد والتضاحك !

ونهار الوادي تفسّخ عن ضجيج دَهَمَ الرؤوس ، فاقتادها وراء المحضرين الذين أفصحوا أمام بعضهم عن توقهم الى الانتهاء من مهمتهم تلك ، ونضحوا مراراً بصقاتهم من قيعان صدورهم ، حتى ان بعضهم وضعوا على أنوفهم كمامات من ورق (الكلينكس) لكي يحموا أعماقهم من تسرب الروائح الكريهة اليها ، غير أن هذا لم يغثهم حينما اقتربوا من بيوت المنعطف ، ذلك أن الذباب الصيفي الثقيل ، انبعث من أكوام النفايات حال اقترابهم منها ، ودهم وجوههم ورقابهم بشراسة أدت الى تصدُّع وقارهم ، وجعلوا ينشون الذباب بعصبية ، ويشتمون كل شيء ، بما في ذلك ، اليوم الذي تم فيه اختيارهم لتلك المهمة (الصعبة) كما وصفها احدهم ، وانتظروا صادقين ، لحظة الانتهاء من مهمتهم تلك ، من أجل العودة الى سيارتهم التي التف الصبية حولها كالقردة ، واشتبكوا مراراً مع سائقها العابس الذي لم يغادرها ، ومطوا ألسنتهم في وجهه ، وهوَّسوا له ، وشتموه فشتمهم ولحقهم ، واذ ابتعدوا ، عاد الى السيارة واستدار بها ، ليوقفها عند التقاطع الشرقي حيث يكتظ الخلق ، وحيث يُطحن الوقت تحت عجلات السيارات فينفذ صبر سائقيها أثناء انتظارهم المغلول لفرص المرور !

(٥)

عند التقاطع تتلملم محلات بيع الأدوات والأواني المعدنية والبلاستيكية ، ومحلات النوفوتيه ، والأقمشة والخردوات والأثاث والدكاكين ، وتعلو نداءات باعة الخضار ذوي الذقون الشوكية ، وباعة اللحوم والأسماك المجمدة والدجاج الأبيض في الأقفاص الخشبية ، وتتلملم

النسوة بسلالهن البلاستيكية حول عربات الباعة وبسطاتهم ، يفاوضنهم بتجهّم أو بابتسامات خلوبة ، والشمس تكهر في سماء الوادي وتعلو ، فيوغل النهار في قسوته وشراسته ، وتنبض العظام بالألم ، كل العظام : عظام المشط ، الساق، الفخذ ، الحوض ، القفص ، العمود الفقري ، الترقوة ، والجمجمة ، عظام الادميين ، الكلاب ، القطط ، الدجاج ، الجرذان ! كل العظام تنبض بالألم ، ويتشرب الوادي من جلود سكانه عرقاً مالحاً ، بينما تذوب سحب الصيف القطنية في السماء البعيدة ، لتزداد جولة اللهاث اليومي شراسة واشتعالاً !

(٦)

لم يتوقع سكان الوادي أن تتطور الأمور الى ذلك الحد المرعب ، لم يفكروا يوماً بإمكانية بلوغهم تلك الحالة المشينة من الترقب والتوجس ، وحتى عندما وافقوا أبو سلمان قبل موته على جمع مبلغ من المال من اجل توكيل محام للدفاع عنهم ، فإنما فعلوا ذلك من باب الاحتياط لا الضرورة ، لكنهم الآن ، وبعد معرفتهم تفاصيل قضيتهم ، يتذكرون ذلك المحامي ، يتذكرون أنه قال لهم بحضور أبو سلمان « حطوا ايديكم في الماء البارد » يذكرون أيضاً ، انهم وضعوا أيديهم وأرجلهم في الماء البارد ! لكن المياه ستغرقهم الآن « ماذا فعل المحامي ابن المحترمين ؟ » يتساءلون « أين كان حينما كان الاستئناف ممكناً ؟ » « لماذا ظل صامتاً حتى أصدرت المحكمة قرارها القطعي الأخير ؟ » « أتراه متواطئاً ؟ » « هل دفع له صاحب الأرض ؟ »

(٧)

في البداية أحس السكان بمزيج من الكآبة والعناد والإنكسار ! مجموعة من الاحاسيس المتنافرة التقت في نفوسهم ، فغدوا مثل من أرغموا على اجتياز

حفرة عميقة ، فلا هم راغبون في تخيّل قاعها ، ولا هم قادرون على تجنبها ! كانوا يلتقون تحت أعمدة الكهرباء وفي البيوت ، يتحاورون بغضب ، يرفعون أصواتهم ، يخفضونها ، يكابرون ، يتوعدون ، حتى أولئك الرجال المعروفون في الوادي بخنوعهم تمردوا على أنفسهم ، ورفعوا أصواتهم متوعدين ! كأنما بثّت المصيبة فيهم قوة مكنتهم من تملُّك أنفسهم !

كانت أحاديث السكان تدور حول التبليغ ، ومعروف المعروف ، وأبو سلمان والحلول الممكنة :

- أبو سلمان هو السبب ، لأنه أخذ منا ثمن الأرض أيام كانت رخيصة وباعنا الورق .
- والله يا عمي باعنا الورق والحكي الفارغ .
- هذه غلطتنا ! لو فكرنا بعقولنا وقتها ، لفتشنا عن صاحب الأرض الأصلي ، واشتريناها منه واسترحنا .
- على كل حال ، صارت !
- أنا عارف كيف سكتنا لأبو سلمان ورضينا بأوراق الحجج ؟!
- يا جماعة ، يمكن الحجج تفيدنا !
- يا رجل أسكت . بلا حجج بلا حكي فارغ .
- كيف حكي فارغ ؟
- لأن المحكمة لا تعترف بالحجج ، ولأن أبو سلمان الذي وقّعها ، مات واكله الدود .
- يا أخي خلينا واقعيين !
- والله لو انه حي لعملنا له مشكلة !
- أنت تعمل له مشكلة يا فسيخة ؟
- آه أنا !
- طيب اسكت احسن لك .
- كيف اسكت ؟

- يا سيدي لا تسكت ، تفضل إعمل مشكلة لابنه سلمان او لابنه الثاني جبر .
- جبر محترم !
- طيب اعملها مع سلمان !
- سلمان ما له دخل !
- سلمان قال للمحضرين قدامي ان التبليغ كلام فارغ وحبر على ورق !
- بالله عليك ؟
- سلمان قال لهم ان التبليغ حبر على ورق ؟
- طبعاً يا رجل !
- يا عمي سلمان صلب مثل الحديد .
- كلامكم صحيح ، لكنه قال لي أن الدفع هو أفضل حل !
- هو قال ؟
- أي نعم !
- متى ؟
- اليوم ، الصبح !
- هالله هالله ، ما الذي يهمه ؟
- مالك يا رجل . طالما انه قادر على الدفع ، لماذا لا يدفع ؟
- لكنه يدفع من مالنا الذي ورثه عن والده .
- أي مال يا رجل ؟
- وكم دفعنا لأبو سلمان ؟ اكثر واحد فينا دفع له عشرين دينار !
- وماذا تساوي العشرين دينار في هذه الأيام ؟
- ما أمكر صاحب الأرض ! ظل ساكتاً حتى ارتفعت اسعار الأرض وظهر لنا مثل الشيطان .
- لكنه يحلم ، والله انه يحلم ! وإلّا ، كيف يطالبنا بشراء الأرض بأسعار هذه الأيام ؟

- فعلاً إنه يحلم ، وإلا كيف يطلب خمسة وعشرين ديناراً عن كل متر مربع ؟
- لكن قرار المحكمة واضح ، إما الدفع وإما ترك البيوت .
- أي والله لو قطعوا رقبتي ما رحلت عن بيتي ! قال ارحل قال !
- لكن يا عمي قرار المحكمة قطعي . .
- وان كان !
- يعني لازم نلقى حل قبل ما تنطبق الدنيا علينا .
- كل عقدة ولها حل .
- لا يحلها الا حلّال العقد ، توكلوا على الله .
- لا اله الا الله ، لكن لازم نعقل قبل ما نتوكل .
- المهم ان يكون لنا رأي واحد .
- لازم نكسب سلمان لصفنا .
- ونزار أبو خنجر .
- طز على الاثنين !
- أنا أقول سلمان واحد مستغل مثل والده ، ونزار بطنه أجرب !
- اذا كسبنا سلمان لصفنا ، كسبنا الحل ، لأن سلمان خدوم مثل والده .
- سلمان احسن من والده .
- انت غلطان ، لأن الضبع هو ابن الضبع .
- يا عمي اتركونا من سلمان وابو سلمان ، فكروا بطريقة تجنبنا الخازوق .
- أنا أقول نشتكي على ابو سلمان وأولاده لأنه هو السبب !
- يا رجل فكر مثل الأودام ، أبو سلمان ميت ، كيف تشتكي عليه ؟
- لا تتجنى على ابو سلمان .
- حرام عليك !
- يا جماعة بالله عليكم ، اتركونا من سيرة ابو سلمان ، ما لنا وماله ، أبو سلمان مات وأكله الدود .

ـ لكن سلمان موجود .
ـ البصل أخو الفجل !
ـ أنت غلطان !
ـ آآه . . . رجعنا لنفس السيرة ؟ .

* * *

سبلـو

(١)

لسلمان أبو بركة مبررات تصرفاته وأقواله التي كان آخرها ، القول الذي أطلقه حينما تصاغر أمامه المحضرون ، واستسمحوه بالتوقيع على استلامه نسخته من (التبليغ) !

لقد أفصح المحضرون في حضرة سلمان أبو بركة عن بالغ أسفهم لاضطرارهم الى مطالبته بالتوقيع على أوراقهم ، كما أعربوا له عن امتعاضهم الشديد من تلك المهمة ، وتمنوا لو لم يتم اختيارهم لأدائها ! لكن « الواجب هو الواجب » قالوا له أثناء خطه لتوقيعه الحاد الزوايا على أوراقهم ! حينها استلَّ من هالة وجوده قولاً تردد بعدها على ألسنة سكان الوادي ، فقد صرح أمام المحضرين بثقة أصحاب القرار « أنا أعرف بأن هذا التبليغ مجرد حبر على ورق » !

وقيل في الوادي ان سلمان يعرف بخفايا الأمور ، ويعرف بأن التبليغ مجرد تهديد ! وكياز الغجري قال لسبلو أثناء احتسائهما العرق ، بأن ذلك الرجل يعرف الكثير ، وأنه قد يحلّها مع صاحب الأرض ، لكن سبلو لم يعلق ، بل فتح زجاجة جديدة من العرق ، وملأ كأس كياز وكأسه ، ثم احتضن بزقه ، وأخذ يسكب أنغامه النشوى .

(٢)

سبلو مستعد للتخلي عن أي شيء في هذه الدنيا عدا العرق ! فهو الملاذ ، وهو واحد من مكونات بدنه المتكرمش ، ودمه المتخثر .

كثيراً ما يتدحرج جسم سبلو في هُوىً وهمية سحيقة ! كثيراً ما تنتهي دحرجته بارتطامه بقيعان لا وجود لها ! قيعان حلمية تقتلع إحساسه بانسياب لحظاته فيرتعش ، فينتفض ، فيتألم حال ارتطام رأسه بصلابة القيعان !

فجأة يصيح « آآه » ، ويتقبَّض وجهه المتراجع عن لحيته ! لا علاقة لسبلو بتلك الرعشة التي تدهم جسمه حين ارتطامه بالقيعان ، ذلك أنها لا تبدر عنه ، انما عن جسمه المنتفض دون ارادته !

لأمرٍ ما ينتفض جسم سبلو ! لأمر ما ينكمش جلده على عظامه ، لكأنما خوفاً وهرباً من أمر جلل ، أو من خطر ماحق يستهدفه دون خلق الله ! لكنه لا يفصح عما يجول في رأسه الغاطس بين كتفيه ، فهو لا يتحدث الا فيما ندر ، كأنما هو مكتف بالأحاديث الصاخبة الدائرة في رأسه ، وحتى تعليقات ركاب الحافلات الذين يطلون برؤوسهم إذ يرونه عند التقاطع الشرقي ، فإنها لم تعد مثار اهتمامه أو استجابته ، ذلك انهم ينظرون اليه بسخرية او بشفقة كلما شاهدوه واقفاً بشعره الأبيض ، وحاجبيه الأبيضين ، ووجهه الأسمر المبرقع !

(٣)

ركاب الحافلات التي تعبر التقاطع وسائقوها ، يعرفون وجه سبلو ووقفته المميزة لصق عمود الكهرباء ، وينسون في غمرة معاكساتهم له ، إلحاحات الشرطي الواقف في وسط التقاطع ! لكن سبلو لا يحفل بتعليقاتهم ، لاسيما تلك التي يعمد طلاب المدارس المراهقون الى اطلاقها على مسامع الطالبات ، ظناً منهم بأن تلك التعليقات ستزيد من رصيد اعجابهن بهم ، واستلطافهن لهم !

سبلو يدرك هذا ، لكنه لا يدري أنه بوقفته تلك ، يتحول الى جسر خفي لعلاقات جديدة ، قصيرة او دائمة ! فمشهده الصباحي وهو ملتصق بالعمود مثل رجل مصلوب ، سيبعث الحياة في اللحظات الحرجة الصامتة للركاب

المتلازمين على المقاعد ، سيجدون مادة فكهة للحديث ، ومدخلاً سهلاً لقضاء الدقائق الثقيلة المأزومة ، وسيفتح بغرابة مظهره ووقفته ، أبواباً واسعة لأحاديث قد تشكل مداخل لعلاقات جديدة بين طالب متردد وطالبة مرتجفة ، او بين موظف مشرئب وموظفة مرشحة لأن تكون زوجة أو صديقة له !

لكن ذلك السائق السمج الذي يقود احدى الحافلات ، اثار غيظه في الصباح التالي لظهور التبليغ ، فقد صاح من نافذة حافلته « يا سبلو ، يا سبلو ، أصحيح ان الجرافات ستهدم الوادي ؟ » ثم تابع بذات السماجة « يعني سيرمونك في الشارع أنت وعفشك ؟ »

في تلك اللحظة اتفق أن اصيب بغيبوبته القصيرة السريعة ، فانتفض جسمه ، فأحس بألم مفاجىء أطلق لسانه ، فتأوه، فاعتقد ركاب الحافلة المتوقفة أنه متألم من احتمالات هدم البيوت في الوادي ! غير أنه بعد أن زال ألم ارتطامه الوهمي الغامض ابتسم بارتياح ، فابتسم أحد الركاب المتأنقين وقال متظاهراً الحكمة « صحيح ان العقل زينة ! » قالها ظناً منه بأن جنون سبلو هو الذي دفعه الى التألم والابتسام في آن واحد ! أما هو فابتسم ثانية حينما تساءل راكب آخر ساخط القسمات مرتجف الأعماق لمجرد احتمال تأخره عن دوامه الصباحي ، تساءل عن أسباب امتناع رجال الشرطة عن احتجاز سبلو الذي يؤدي بوقفته تلك ، الى عرقلة حركة السير في التقاطع !

(٤)

لم يجد سبلو مبرراً لإصرار المُحضر الأبيض على طبع بصمته الى جانب اسمه حينما سلمه نسخته من التبليغ إذ « افرض أنني لا أريد وضع بصمتي على أوراقك ؟ » قال للمحضر الأبيض الذي تكاسل البريق في عينيه حال تنبُّههِ الى البقع المنتشرة في ظاهر يد سبلو ! « لازم تبصم » أعاد المحضر الأبيض محاولته ، ثم تبادل وزميليه نظرات مستريبة انتهت بتراجعهم الى

الوراء خطوة ، بسبب استنتاجهم لإمكانية انتقال عدوى البقع الكامدة من جلده إلى أبدانهم !

لكن رفضه البصم على أوراقهم ، دعا المحضر الأبيض الى اعادة النظر في مبررات الحصول على تواقيع السكان ، ذلك أنه « حتى لو لم يوقع السكان على استلامهم التبليغ ، فإن هذا لا يعفيهم من مسؤولية العلم به عبر الصحف ووسائل الاعلام الأخرى » هكذا فكر المحضر الأبيض أثناء تفحصه ملامح زميليه ، تقدمةً لاستمزاجهما في امكانية الاعتراف بوجود حالات استثنائية يجوز خلالها الاكتفاء بتسليم التبليغ ، دون التوقيع على القوائم ! لكن سبلو أراح ذلك المحضر من عبء اقامة حوارات وتظاهرات بالحنكة والدراية مع المحضرين الآخرين ، فقد قال لهم « لن أبصم » وانسحب بعد ان تركهم يتخبطون في « ما العمل ؟ »

(٥)

كان من نتائج عجز المُحضِرين عن الحصول على بصمة سبلو أن انتشر بين السكان احتمال مفاده : أن عدم التوقيع على القوائم ممكن ! وأن السخرية بأولئك المحضرين الذين لا يملكون من الصرامة والحزم ما يؤهلهم لبث الرهبة في النفوس ، ممكن ! وأن التمرد على التبليغ برمته ، ممكن ! وكل شيء ممكن طالما لم يبصم سبلو الذي لا علاقة له بجلده المنكمش على عظامه ، هرباً ؟ ربما ! من خطر ما حق يدركه ولا يدركه ، لكنه لا يحتاط له ، فقد ذهبت أيام الحيطة حينما قتلت بهاج « اذا هدموا بيوت الوادي فستموتين يا بهاج ، ستموتين بالفعل » قال وهو يبتعد عن ثلة المحضرين ، ثم دخل بيته وأغلق الباب محاولاً الاستفراد بشجونه التي استيقظت ، وتمثلت في مخيلته لحظتئذ بوضوح غريب !

(٦)

بعد عام من مقتل زوجته بهاج ، حاول سبلو ان يتذكرها بجلاء فلم يفلح ! حاول الاحتفاظ بصورتها في خياله الباهت ، فلم يفلح ! حاول استرجاع نبرات صوتها ، فلم يفلح ! ويوم رسمها على جدار بيته الكالح ، اشترى صباغاً ملوناً وفرشاة ، وصار يتذكر ويرسم ، بينما وضعت هاجار ، الصغيرة حينئذ ، كفها اسفل فكها ، وجعلت ترقبه بشوق .

كان يرسم ويتحدث الى نفسه ، او الى كائن لا تعرفه هاجار « الشعر مثل الفحم » ويستخدم اللون الأسود « العينان مثل الكحل » ويرسم « الخد أحمر مثل العناب » ويزيل عن الفرشاة آثار السّواد ليغرقها بالصباغ الأحمر ، الشفتان ، الاذنان ، القرطان ، العنق ، القلادة ، الكتفان ، النهدان ، الذراعان ، الاسوارتان ، اليدان ، الخاتمان . . .

حينما انتهى من الرسم بادرته هاجار الصغيرة « يا أبي هذه ليست بهاج والدتي » ! « لا يا هاجار ، انها بهاج ! » قال وهو يبتعد ليرى الصورة بوضوح ، ثم قاوم احساساً بانتفاء الشَّبَه بين تلك الصورة وبين زوجته بهاج ، وقرر « نعم هي بهاج » ثم كرر « هي بهاج بشحمها ولحمها » لكأنما أراد بتأكيده هذا أن يُسرّب الى ذاكرته قناعة مفادها أن « تلك الصورة هي صورة بهاج الحقيقية ! » وكلما مرّت الشهور والسنون ازداد اقتناعاً بأن « تلك هي بهاج » بل لقد طردت تلك الجدارية صورة بهاج الحقيقية من ذاكرته ! وحتى هاجار ، فقد اقتنعت حينما كبرت ، بأن « تلك هي بهاج » ذلك انها لم تعد تذكر من صورة والدتها سوى تلك الجدارية ! ثم ان سبلو هو الذي يذكر بهاج جيداً ، أما هاجار فكانت صغيرة الى درجة النسيان حينئذ « أين هي الآن يا أبي ؟ » تساءلت بلهجة لم تحمل براءة الطفولة ، انما توجُّس الكبار وخوفهم « مسافرة يا هاجار ! » « الى اين يا أبي ؟ » « الى بلاد العباب يا هاجار . . .

بهاج هدجت ، سافرت الى نهر الظلام وهدء النهاية ، حيث المعبر الكهفي

المؤدي الى بلد الأموات ، وحيث كلاب الطهر الصامتة ، البيضاء البيضاء في ظلمة المعبر ، الكلاب التسعة التي تحمل الروح ، تحرسها ، تسير بها في المسرب المهجور الا من بقايا حشرجات الأرواح التي مرت وبلغت مأرب الغجري بعد مماته : بلد الأموات ! سبلو يعي اسطورة الغجر ، لذا علق في خنصر زوجته قبل ان يدفنها ، صرة صغيرة حمراء تحتوي قطعة من النقود كي تدفع أجرة سفرها الى بلد الأموات « ستتكلم بهاج حين شروق الشمس في السماء الأخرى ، ستقول شيئاً ، ستحيا بهاج الى الأبد ! » قال ثم أهال التراب فوقها دون ان يأذن لعثمان أبو بركة أو لأي من أبنائه الأربعة بمساعدته ، وحين انتهى ، قرفص الى جانب القبر بينما لامست شمس آب الأفق الغربي ، ثم انزلقت ببطء وراء الامتداد الجبلي الصارم ، والسياجات العتيقة ، ونباتات الشوك !

في اللحظات الزرقاء المتأرجحة بين بقايا النهار الهارب ، وبين بدايات الليل الزاحف ، توالدت نجوم آب في سماء الوادي ، ففتح سبلو صرة الطعام فوق الجدث ، وتمتم ببضع كلمات ، ثم تناول وطيف زوجته عشاءهما الأخير .

(٧)

كان من الممكن أن تنجو بهاج من موتها الاسطوري ، لو انها استسلمت للرجل المربوع أو لرفيقه الأسمر الطويل ، غير أن مقاومتها لهما أدت الى انهمار ذكورتيهما في الليلة التي أقام اللصوص فيها عرس انتصارهم على حنكة حراس البريد المركزي في المدينة !

لقد غافل اللصوص رجال الشرطة في احدى ظهيرات آب القائظة ، واستولوا على طوابع الواردات الموجودة في مبنى البريد ، وعلى الطرود المكدسة على الحامل الخشبي الطويل ، وعلى النقود التي احتفظ بها موظفو البريد في جيوبهم وأدراجهم ، وحتى الرسائل التي أودعها السعاة في صناديقهم الحديدية ، فقد

حملها اللصوص في أكياسهم حينما امتطوا خيولهم وأطلقوا أعنتها للرياح ! واهتزت المدينة وصخبت ، وتجمعت حول البريد بحثاً عن التفاصيل ، لكن التفاصيل فرت مثلما الطوابع والنقود والطرود والرسائل .

في الليل ، قرر اللصوص تحت وطأة كؤوس العرق التي مرت من حلوقهم ، الإطلاع على أسرار المدينة ، ففضوا الرسائل المسروقة وقرأوها ، وضحكوا بما يكفي لما تبقى لهم من حيواتهم الشقية ، وتفكهوا بالمقدمات والسلامات الطويلة التي يفتتح الناس بها رسائلهم الى ذويهم وأصدقائهم ، وسخروا من أخبار الالتحاق بالجندية ، والسفر شرقاً أو غرباً ، وولادة الأبقار والخيول والجمال ، وشراء الأبل ، والانتهاء من نسج بيوت الشعر ، وجني الغلال ، وتزويج الابناء ، والبنات ، وزراعة الحبوب أو شرائها ، وحينما ملوا لعبة الرسائل غنوا ورقصوا على أنغام بزق سبلو ، واذ فضوا حفلهم الشيطاني ، قرر الرجل المربوع وصديقه الأسمر مرافقة سبلو الذي ما أن دخل بيته ، حتى فوجىء باقتحامهما ذلك البيت ، واشهارهما خنجريهما المعقوفين !

صاح فكمَّماه ، ثم كبلاه بالحبال ! كالافاعي التفت حبالهما حول يديه ورجليه ، وسطوة اللصوص أغلقت عليه حتى امكانات الصياح ، ليلتها أسقط بزقه الذي اودعه رحيق روحه المعذبة المارقة من جماعة الغجر ! لأمر ما لا يحسن الغجر الابتعاد عن بعضهم ! ولذا ، يقول الغجر في الوادي ، تجرأ اللّصان على تعرية بهاج على مرأى من زوجها المكبل !

حينما تفجر الصراخ من أحشاء بهاج ، أطبق المربوع على رقبتها وفمها ، فنهشت وجهه بأظافرها ، فشد على رقبتها ، فعاوت الصراخ في محاولة منها لتجميع ما تبقى لها من حواسها الست حين لم تشعر بوجود كائن واحد ! كائن واحد يوقف انهمار ذكورتَي اللّصّين ، أو يمسك بالمخالب الخرافية التي أطبقت على عنقها قبل ان تكف الدماء عن المرور من شرايينها وشعيرات الحياة فيها .

لم يبق من آثار بهاج سوى بقايا نظراتها الهلعة ، وأصداء صراخاتها المذبوحة ، وصندوقها الخشبي الذي ملأه سبلو بقصاصات أوراق رجال الشرطة ،

واستدعاءاتهم المكتوبة له ، من أجل الكشف عن تلك الجريمة التي أدت الى انكشاف امر اللصوص ، ثم خروجهم النهائي من كهوف الوادي ، قبيل وصول رجال الشرطة !

كانت بهاج ، وكانت المدينة تتردد في بسط أذرعها حول الوادي الذاهل أمام مشهد البصمات القوسية الدامية على عنق بهاج التي ، عبثاً يحاول سبلو استرجاع صورتها المدفونة تحت أنقاض السنين ، وتحت الغبار المتراكم فوق ذاكرته .

(٨)

لا صحة لما تردد في الوادي من أن مرضاً غامضاً يمزق أحشاء سبلو الملتصقة بظهره ، لا صحة لما رُويَ عن جنونه وعن عزفه المجنون على بزقه العتيق ، المعتم ، ذي الاوتار التي تستلّ من روحه ومن ذاكرته ما لا يستطيع الاحتفاظ به ، او الافصاح عنه ، بحكم ذكرياته الحزينة ، وهواجسه الممتدة ، وبحكم استيطان الكحول لدمه المتخثر في اماكن عديدة من اهابه ! فليكن ذلك البزق جزءاً آخر ، قطعة أخرى من جسم سبلو الذي وهبه تجويفاً في جسمه المتكور عليه ، لتكن اذن ، تلك الاحتقانات الجلدية التي لم تزد حينما طالبه المُحضرون بالتوقيع على قوائمهم ، لتكن تلك الاحتقانات تأريخاً خفياً لما لا يستطيع سبلو الافصاح عنه في غمرة الضرورة السمجة لهذه الحياة التي تطالب المرء أبداً : بالتذكر ، والتنفس بحرية او بلا حرية ، والسير على القدمين، والتبول ، وسماع التعليقات من ركاب الحافلات ، واخفاء الأسرار ، والأنكى من كل هذا ، الرد على اسئلة أولئك المحضرين الذين : من أين جاؤونا !

* * *

تقاليد الرهبة

(١)

في الصباح الثالث لانتشار نبأ « التبليغ » ، فشلت سمار في تطويق ثورة زوجها كياز ، فدفعت ثمن فشلها جداول من دمائها !

لقد عرضت على زوجها ، ذلك الحل المنبثق من الأرق الذي أصابها بعد ظهور التبليغ ، وأفصحت عن الفكرة التي تقلبت في ليلها قبل ان تستوطن رأسها : التسول !؟

دبَّ الهدير في رأس كياز وصدره حينما ذكرت أمامه فكرتها « ماذا تقولين يا كلبة ؟ » كياز دائماً يقول « مجنون هو الذي يُري زوجته وجهاً » فكيف تجرؤ سمار على التمرد على تاريخه الحديدي ؟ « من أين جئت بهذه الوقاحة يا كلبة ؟ » قال لها متتبعاً احتمال انطفاء البريق الذي حل في عينيها السوداوين فجأة ! لكنها ردت برباطة جأش أسعفتها في اكمال عبارتها حتى النهاية « الشحاذة ولا انتظار هدم الدار يا كياز ، وعرقي لا يريد مساعدتنا ، ونحن غجر ، والناس لا يؤاخذون الغجر اذا طلبوا منهم الصدقة » .

كانت المرأة مصرة على خوض محاولتها حتى النهاية ، وشتائم الرجل انصبّت على رأسها مثل شلال ، في حين بحثت عيناه ويداه عن عصا في فناء الغرفة ، واذ وقعت عينه على خشبة مدقوقة بالباب ، أمسك بطرفها البارز وشدها بقوة ، ثم انهال بها على زوجته دون التنبه الى المسامير البارزة في طرف الخشبة « تريدين الخروج من البيت يا عاهرة ، تريدين ان تشحذي ، تريدين

أن . . . » وأفلتت المرأة كل حبال النجاة الممكنة عبر صياحها الذي تفرقعت أصداؤه في البيوت المجاورة ! كل جيران كياز تجمعوا في بيته ، واذ أمسكوا به ، حاول الافلات من قبضاتهم التي جردته من الخشبة المدماة ، فتحولت ثورته الى لهاث كلبيّ وشتائم تهز الجدران !

كل الأشياء اهتزت في عينيه ، والدماء ثرّت من رأس سمار ، وكتفها ، وفخذها التي مزقتها الخشبة المُمَسْمَرة فانكشفت، والرجال حاولوا جرّه من ذراعه الحديدية الى الخارج فأبى ، لكن سلمان ابو بركة استطاع تطويقه وجره الى بيته ، بينما ظلت امرأتان الى جانب سمار التي تكورت في زاوية الغرفة وهي تئن بصوت مذبوح ، ثم ارتخت وانقلبت على ظهرها ، فاستقام جسدها ، مثل قطعة معدنية تعرضت للنار في مرجل كياز .

(٢)

ربما كان من حق كياز ان يرفض فكرة زوجته ، على الرغم من حاجته للنقود اللازمة لدفع ثمن الأرض !

ربما كان من حقه ان يواجه طلبها ذاك بالرفض المراهق المشحون حتى ! فالخواطر التي انهالت على رأسه حينما تخيل زوجته وهي تدور في الشوارع ، أوصلته الى استنتاجات كفيلة بتحويل دمائه الى حمم ! وفكّر بأن لو خرجَتْ لتلقّفها الرجال الهاربون من بؤس التضاريس المُملّة لاجساد زوجاتهم ، ومن أنينهن المتردد في أسماعهم برتابة النقيق !

صحيح ان سمار كبرت ولم تعد مثار اهتمام الرجال ، إلا أن كياز لا يزال يراها امرأة قابلة للغزو ! انها المرأة التي يعرفها منذ الصبا ، سمار الغاوية ذات القوام المنحوت !

كانت مشكلة كياز ومبعث غيرته ، أن زوجته بقيت في عينيه مثلما كانت في صباها ! وأن كل ما فعلته السنون انها عبثت بخديها فثنتهما قليلاً ، وعابثت

شفتيها فحززتها قليلاً، ونهديها فأرختهما قليلاً، وجلدها فضمرته قليلاً! لكن ، هل توقف كياز يوماً عند تلك التغيرات ؟ ألم يشهد بدنه تغيرات مماثلة ؟ ألم تحتفظ سمار بملامحها على الرغم من السنين الطويلة ؟

ربما كان من حق كياز ان ينفذ ضربته الوقائية تلك ، فالرجال « ضلوع مسحوبة من أجساد الذئاب ! » قال في ذاته المتفجرة ، ثم سافر في البقاع البعيدة لخياله المتفتّت على سنان الاحتمال الصاعق الذي بث في رأسه ، وأمام عينيه المدوّرتين ، صورة زوجته وهي تلتقي رجلاً آخر غير موجود وغير مخلوق على الاطلاق ، وانما هو من نسج الخيال الملتهب لكياز ، الخيال الذي عاد ليرسم المشاهد الغريبة امام عينيه ، وتخيل زوجته وهي تدور في شوارع المدينة ، وتمد يدها الى المارة ، فيمدون أيديهم الى جيوبهم لإخراج القروش ، بينما تلتهم عيونهم صدرها ، وعينيها اللتين يعرفهما مثلما يعرف خط الحياة في كف يده الخشنة ! وستهتدي سمار الى أساليب جديدة في التسول كأن تصعد الى أحياء المدينة وجبالها الأخرى ، حيث لا صوت في الشوارع ولا خلق ، وستضطر الى دخول العمارات المغلقة ، وستضغط كبسات أجراس البيانو ، ليخرج الرجال لها بملابس نومهم ، وستتعثر لا محالة بأحدهم ! وازداد التقرح في خياله والتهب من جديد حتى أنه قفز عن المقعد الفستقي اللون في بيت سلمان وهو يجأر « والله لأقطع رقبتها » وحاول الخروج لكن هيهات ! فسلمان أقفل عليه بوابة داره ، وأرغمه على الجلوس ، ثم أطفأ بكلماته فرقعات غيرته الحارقة التي لم يستطع كياز حيالها غير الطأطأة ، وتغطية العينين والوجه بالكفين ، ثم العياط المفاجىء الممطوط !

(٣)

سلمان أبو بركة ، هو الوحيد القادر على كبح كياز ! هو القادر على وضع حد صارم لكياز ولغيره دون النظر الى الاحترام او الشفقة او أي من تلك

الاعتبارات المارقة من صفوف قناعاته !
لا يستند سلمان الى قدراته البدنية او الى عضلاته الصلبة في اكتساحه اللامحدود للرجال ، لأن « استخدام العضلات يعني بداية الضعف ، او قل بداية الانهيار ، أمّا موطن القوة الحقيقي ، فهو موجود في عيون الرجال وأصواتهم ! » هذه القاعدة لم يقرأها في الكتب المدرسية ، فقد طلّق الدراسة بعد منعه من اكمال ورقته في امتحان الاعدادية ، وذلك بسبب لجوئه الى أسلوب النقل عن أوراق التلخيصات التي استلها من جيبه حال تعثُّر ذاكرته ! سلمان يبحث عن عيني محدّثه قبل ان يبدأ حديثه معه و« لله در العيون ! » يقول في ذاته ، ويرى كيف ان الرجال يتجمعون في عيونهم مثل حلزونات قوية او هزيلة او مختبئة في الظلام !
حينما تلتقي عيناه بعيني محدّثه ، فإنه يعيش جولته الأولى معه ! لذا فإن جفنيه لا يطرفان حتى ولو حدث الزلزال ، وتصعد اعماقه لتطل بقسوة من حدقتيه الزجاجيتين اللتين لا تتحركان ، لأنه « اذا نزلت عين الرجل ، فهذا يعني انه حط لك الطاعة ، والطاعة هي بداية انهيار الرجل ، لأنك تستطيع بعدها اكتساحه أو ابتزازه ! » هذا ما غرسه ابو سلمان في نفس ابنه قبل ان يموت !

(٤)

كان ابو سلمان في حياته حريصاً على غرس تقاليد رهبته في نفس ابنه الأكبر ، سلمان ! كان يصحبه في زياراته ولقاءاته بالآخرين ، ويعلمه الكثير من أساليب المنعة والحجة والحيلة ، وذات ليلة صامتة ، تمكن ابو سلمان من التسلل الى العقل الآخر لابنه ذاك ، حيث قال له في غفلة من انتباهه الذي انصرف لحظتئذ الى عيني ذلك الأب اللامعتين « حينما تلتقي برجل ، افتح عينيك وانظر بتصميم في عينيه ، اياك ان تحرك عينيك ، اياك ان ترمش ، ودع صوتك يخرج من حنجرتك زخماً مستقيماً لا ينثني » ، « هالة الرجل تظل

قائمة ما احتفظ بغموضه ، أما اذا سنحت فرصة كشفه ، فإن عنقود هالته سينفرط، لأنه سيتفاعل ، ويضحك ، وهنا تنشأ الألفة ، والألفة نقيض الرهبة » « لا تسمح لجرثومة الألفة بالتسلل الى نفسك ، لأنها مفتاح اسرارك ، ومقتل هيبتك ! » . . .

لقد انغرست ايحاءات تلك الكلمات في نفس سلمان الى حد أُصيبَ معه بما يشبه الحمى ! وجعل في الأيام التالية يحدق الى جمادات بيته مثل ثور متحفز ! حدق الى سريره البني ، الى كراسي الديوان الفستقية اللون ، الى نقوش البلاط ، الى عتبة الباب ، الى بريق المفتاح ، الى صورة جده المعلقة على الجدار ، الى صورة والده واعمامه ، صورته ، صورة شقيقة جبر ، إلى كل شيء كان يحدق ! حتى أدوات المطبخ ، فقد حدق اليها ، كأنما رأى في سكونها عُيوناً تنافسه !

(٥)

تعلم سلمان الكثير من تقاليد والده في حياته ، وأصدر الكثير من التعليمات الى نفسه التي ملّت قوانينه الصارمة ! غير أنه لم يلتفت الى تلك الململات الداخلية الغامضة التي تدعوه احياناً ، الى ضرورة أن يرأف الرجل بالرجل ! وأن لا يحشره في زوايا الاعتراف الفظيع بالضعف والهزال !

لو توقف عند تلك الململات الغامضة لما استطاع اكتساح المحضرين الذين طالبوه في البداية بطريقة آمرة ، بالتوقيع على استلامه للتبليغ !

لكل رجل سياجاته وأسواره ، وسياجات سلمان كانت أعلى بكثير من السياجات المهلهلة للمحضرين الذين تحطمت شوكات أنفتهم ، امام الحدقتين القاسيتين اللتين اطلت منهما رهبة سلمان !

ربما وجدت مسافة بين كل رجلين يحدقان ببعضهما ، مسافة تشتبك فيها خطوط السحر والقوة المنبعثة من الأعماق ! في تلك المسافة تتكسر ملايين

الخطوط الغامضة التي ، ربما لم يكتشفها علماء الحواس حتى لحظة نشوب الاشتباك بين عيني سلمان القاسيتين وبين العيون الناعسة للمحضرين الذين تلطَّفَ أخيراً بالتوقيع على أوراقهم !

* * *

امرأة واحدة

(١)

لم يبق لعرقي من دلائل غجريته سوى لون بشرته الكهباء ، وشعر رأسه الأسود اللامع ، وبقايا لكْنَة غجرية تخالط لهجته الجديدة بخجل ! أما ملابسه الهادئة الألوان ، وجلساته المترفة في صالات الفنادق ، وألفاظه الجديدة ، وابتساماته المصنوعة ، فكلها تؤكد على أنه واحد من موسري المدينة !

إن من يراه وهو يغني في حفلات الفندق ببدلته اللماعة، وكشاكش قميصه الأبيض اللماع ، وشعره المصفف ، لا يستطيع ان يتخيل أنه واحد من الغجر الذين ارتحلوا ذات يوم الى الوادي !

عرقي صار يخجل من غجريته ! ويتمنى لو يشطب كل تاريخه ، وكل أسباب ارتباطه بالغجر ! على ان ما نغّصَ عليه عَيْشَهُ ان هاجار مصرة على ان تظل زوجته ! وأنها بهذا ترفض فكرة الرحيل عن الوادي !

عرقي هو اعرف الناس بعناد زوجته التي لا تنثني الا في السرير ! كانت تقول له ، كلما فاتحها في امر الرحيل عن الوادي ، بأنها لا تستطيع موافقته على الرحيل ، لأنها ولدت في الوادي ، ولأن بصمات طفولتها لم تزل مرسومة على حجارته ، ولأن والدها وقبر أمها ، وشغلها والناس الذين تعرفهم كلهم في الوادي ، فكيف يمكنها مغادرته ؟!

(٢)

ـ طلقها اذن ، طلقها يا عرقي !

هكذا قال نزار ابو خنجر لعرقي ليلة أسرّ له بشكوكه :

- يا نزار ، كلام بسرّك !
- السر في بئر يا عرقي !
- زوجتي هاجار . . .
- ما لها ؟
- صارت . . .
- انطق ! ما لها ؟
- صارت تخونني مع رجل آخر !
- صحيح يا عرقي ؟ من هو ؟
- لا اعرف ؟
- انت تعرف ! قل ولا تخف !
- لا أريد يا نزار ، لا تضايقني !
- قلت لك من هو ؟
- جبر ابو بركة !
- جبر ؟
- تصور يا نزار ؟
- هالله هالله !
- هذا جبر ، المحترم يا نزار !
- طيب والعمل يا عرقي ؟
- الشور شورك ! لكن لا تخبرها بأنني قلت لك !
- وماذا أفعل لك ؟
- هاجار تشتغل في محلك ، وتحترمك ، حاول ان ترجعها لصوابها .
- والله يا عرقي ما ظل فيها شور ولا قول !
- والعمل ؟
- طلقها يا عرقي ، طلقها واكسر وراءها كوز فخار !

(٣)

كان عرقي متكسِّراً ومستسلماً ، لكن نتائج حساباته أشارت الى تعذُّر امكانات تطليقه زوجته ! ذلك ان الطلاق سيعني انهيار مجده الذي بناه ، وقد يعني نهايته ، فهاجار أعند من الصخر « والعمل يا نزار ؟ » « قلت لك طلقها يا بني آدم ! »

لكن نزار كان يلتهب في قرارته ! فخيانتها لزوجها كانت تعنيه بشكل ما ! وأحس أنها بفعلتها تلك ، انما تنكرت ايضاً لعلاقته القصيرة بها !

لهاجار عينان غازيتان ، لهاجار جسد بض ، وخاصرتان شهيتان ، وشفتان ناريتان ، و« كفانا الله شر هاجار ! »

عجائز الغجر يطلقن هذه العبارة كلما شاهدنها ! لكن نزار يتفاءل كلما رآها ! ألم تجلب له السعد في محله ؟ ألم تسهم في انجاح تجارته ؟ أليست هي التي انتقتها زوجته من بين كل الغجريات للعمل في محله ؟ لكن ، هل أدركت هادية ، زوجته ، بأن نزار قد يسطو على ما ائتُمن عليه ؟ أم ان معرفتها بزوجها اوصلتها الى قناعة بنضوبه ؟ لقد التقط نزار من تفاصيل وجود هاجار في النوفوتيه ، الكثير من مبررات هجمته الرجولية الكاسحة ! كان يرقبها ، يرقب ساقيها ، وما تجود به تنورتها التي ترتفع قليلاً عن مأبضيها كلما انحنت .

كان يقترب منها اثناء عملها ، يطلق رياح انفاسه عند أذنها ، يعلمها أساليب ترتيب الملابس ، يطويها او يفردها امامها ، يساعدها فيلمس اصابعها ، اما هي فتتجاهل تسرباته العنيدة اليها ، تتظاهر الفهم الطيب لنواياه الخبيثة ، بل كثيراً ما اسعفتها لباقتها على تذكيره بالفارق السِّنِّي الكبير بينهما ، ذكّرته ايضاً بأنها امرأة متزوجة ، لكنها في الوقت ذاته ، استشعرت تسربه البطيء اليها ! كانت أصداء دغدغاته تنداح في بدنها ، فتؤكد لها ما لم ترغب بالاعتراف به او مناقشته : انه التواطؤ، انها بداية القبول! وعرقي حينئذ لم يكن قد أتم شهره الثاني في عمله الجديد ، كان في بدايات حياته الجديدة، وكان غارقاً حتى اذنيه

في تفاصيل صعوده الى سلم المجد ! أما هاجار ، فخرجت من دائرة اهتمامه الى حد انه لم يعد يراها الا في لحظات الظهيرة حينما تعود الى بيتها من أجل تناول طعام الغداء !

كان يعود من سهراته قبيل آذان الفجر ، يعود مهدوداً ، يرتمي قربها فتصحو ، تزحف اليه ، تهزه ، تلتصق به ، فتفاجأ بخمود جسمه ، وانتظام أنفاسه ! منذ ان تزوج عرقي ، بالتحديد ، منذ ان باشر عمله في الفندق وهو يشتري لزوجته أقراص منع الحمل الصغيرة « لا أريد اطفالاً يا هاجار قبل عشرة أعوام » كان يقول لها فترد « لماذا يا عرقي ؟ » فيلقمها اجابته الجاهزة « الأطفال مقتل الشباب ! » ويوم انقطعت دورة انوثتها شهراً كاملاً ارتجفت أعماقه ، وحاول اصطحابها الى الطبيب كي يمحو آثار الطفولة من أحشائها ، فأبت ! فاشتبكا مرة ، مرتين ، ثلاثا . . . وحينما طالت اشتباكاتهما ، آثر جنين هاجار التنازل عن هذه الحياة ، فتحول الى دماء تسربت من رحم أمه !

(٤)

لقد تمكن نزار ابو خنجر من الظفر بهاجار ، بعد جولة تمثيلية تعثّر خلالها في رسم سياقات موفقة لشوطه معها !

كان يقول لها « يا هاجار تعالي ننبسط » فلا ترد المرأة ! ونزار لا يحفل بزوجها عرقي او بوالدها سبلو ، لا وجود لأمثالهما في عالم نزار المسلط كالسهم نحو ما يريد « يا هاجار اقتربي ولا تخافي » ولا ترد المرأة ! « خذي ما تريدين لكن تعالي ! » وحينما تمنعت ، قرر البحث عن طريقة اخرى لترويضها ، طريقة مفرغة من العبارات والتوسلات : اقترب منها وهي ترتب الملابس في احد دواليب النوفوتيه ، شدها من يدها غير عابىء باحتمالات مداهمة احد الزبائن لمحله « أي تعالي ! » وأدخلها غرفة تجريب الملابس ، وهناك ، قبض على جسدها دون مقدمات !

(٥)

لم يستطع نزار أبو خنجر اتمام شوطه مع هاجار! وتأكد له بعد غزوته الخامسة لجسدها ان الاستمرار مستحيل ! فقرار الاستمرار مرهون بقدرته الجنسية التي عجزت في المرة الخامسة والأخيرة ، عن افراز لقاحات النشوة ، على الرغم من مرور ساعتين كاملتين من البحص واللهاث الخلّب !

« طلقها يا عرقي واكسر وراءها كوز فخار » قال لعرقي المتهدم ، ولعن النساء واليوم الذي جاء بهن الى هذه الدنيا ، ثم استرجع تفاصيل جسدها ، وعض شفته السفلى متذكراً فضيحة اخفاقه أمام تلك المرأة الملتهبة ، تذكر نظراتها المزدرية له ، تذكر ايضاً زوجته الوفية هادية ، تذكر ثقتها به ، وغبنه لها، فقد كان يوصلها الى بيت والدها كي تنام هناك ، في حين يتفق وهاجار على الالتقاء الليلي في بيته أثناء غياب زوجته « ألا تشتاقين لوالديك يا هادية ؟ ألا تشتاقين لأخوتك واخواتك ؟ » كان يقول لها ، ويحمّلها هداياه من الملابس التي تليق بأمها وبإخوتها واخواتها ، ثم يوصلها بسيارته الى بيت والدها ، لكي يستفرد بهاجار ، وينضح ما لا يمكنه نضحه اثناء مواقعاته غير الممتعة لزوجته !

هاجار مختلفة عن هادية ! هاجار تستطيع الوصول بأصابعها الى كل الاماكن في الجسم والدماغ ! لكن نزار استنفذ كل ما لديه من طاقة وقدرة في لقائه الخامس بها ، وتذرع بضرورة التوقف عن تلك « اللعبة الخطرة » كما وصفها ، لان « عيون الجيران مفتوحة » ولأن « الجيران صاروا يتهامسون ويسألون عن زوجتي هادية » !

أدركت هاجار بأنه لم يبحث عن تلك المبررات الا بعد وصوله الى الخطوط الحمراء لاندفاعته الجنسية المحدودة ، لذا ارتدت ملابسها ، ثم استعرضت بعينيها جسمه العاجز الممدد على السرير ، استعرضت بازدراء وجهه الحرذوني ، وعينيه المخذولتين ، ثم انسلت من بيته ، فودعها وهو مستلق على سريره الخشبي العريض .

(٦)

لقد انكر عرقي على زوجته اصرارها على ان تظل زوجته ، لاسيما انه عارف بحقيقة علاقتها التي تجددت مع جبر ابو بركة ، واستطاع بما تجمع لديه من أمور النساء ان يكتشف التغيرات الطارئة على جسد زوجته ، كاعتنائها المفرط برموشها السوداء ، وحاجبيها الاسودين الدقيقين ، وخديها المتوردين ، غير انه لم يرغب بمفاتحتها في امر تلك التغيرات !

لأمرٍ ما تجاهَلَ عرقي اهتمام زوجته المفاجىء الصارخ بمظهرها ! لأمر ما تناسى هجومها الكاسح على الحياة ! لكنه لم يستطع تجاهُل وجود جبر ابو بركة في كل بقعة من جسد زوجته « والعمل ؟ » قال مخاطباً ذاته العاجزة عن ايجاد مخرج لمعضلة اكتشافه حقيقة الحياة من حوله « سأقتلها ! » نطقها لا لعزمه على تنفيذ هذا القرار الطائش، إنما لرغبته في وقف شلال احساسه الفظيع بالتخاذل ! عرقي يعرف نفسه جيداً ، ويعرف ان القتل غير وارد في قاموس امكاناته ! مفاتحة والده او والدته في الأمر ايضاً غير واردة لسببين ، اولهما انه لن يستطيع التخمين بما سيفعله والده كياز به او بها في حالة كهذه ، وثانيهما ان علاقته بأهله ساءت وبلغت حد القطيعة بعد ثلاثة اشهر من زواجه ! التضحية باسمه وعمله ايضاً غير واردة ، على الأقل لسبب كهذا ، لذا فالطلاق ايضاً غير وارد « والعمل ؟ ! » أعاد الكرَّة محاولاً الرجوع الى نقطة ابتداء بحثه عن الحلول !

(٧)

« هاجار ليست مجرد أنثى ، إنها إمرأة ، وشتان ما بين الحالتين ! » هذا ما قاله جبر ابو بركة لنفسه المزهوة بنصر اقتداره على امتلاك جسد هاجار المشرئب ! قالها محاولا الالتفاف على ضميره الذي استيقظ على حين غرة ،

وبعد واحدة من أكثر مواقعاته لهاجار اشتعالاً ، قال ايضاً «لكل شيء في الحياة ثمن ! » ثم تنهد وانقلب على فراشه الصوفي ، لكن الفكرة التي أضاءت ذهنه تلك الليلة ، خفّفت من إلحاحات ضميره المزعج ! فقد تذكر ان عرقي زوج هاجار ، بعمله في الفندق وباقترابه من عالم المدينة المترف ، قد انسلخ عن قومه ، وتعالى عليهم ، اذن فعرقي « لا يستاهل هاجار ! » قال في نفسه ، ثم تنهد !

منذ أن تسلم جبر عمله في « شركة الوسط للتأمين » ، وهو يحاول توليف الكثير من الأمور التي تأبى على الالتقاء ! وكثيراً ما بحث في يوميات كفاءاته العادية عن سبب لترقياته السريعة ! كثيراً ما قرأ في عيون زملائه نظرات الحسد ، وربما الحقد ، لكن هذا لم يثنه عن التقرب اليهم ، وابداء رغبته في مساعدتهم ونقل وجهات نظرهم الى مديره الذي كان يستمع اليه !

(٨)

« لكل شيء ثمن » هذه واحدة من المسلمات الجديدة التي توصل اليها جبر بعد مواجهته تفاصيل حياته العملية ، وحتى حينما تمكن من ايجاد عمل لعرقي في الفندق ، فقد ادرك بأن قدرته على ايجاد ذلك العمل ، انما هي تأكيد لتلك المسلمة التي استطاع فهمها وتمثّلها ، ففي احد الصباحات لمح بوجل ، جسد هاجار المتدثر بقميص نومها الشفاف ، لمحها وهي تنشر الملابس على حبل الغسيل في باحة دارها ، فأصيب برجفة هزت رجولته ، وأعادت الى ذاكرته تفاصيل علاقته الصامتة العتيقة بها ! وفكر في ذلك الجسد الذي لم يعد صامتاً انما صارخاً متحدياً !

يعترف جبر أبو بركة كلما جالس نفسه ، بأنه حار في امر ذلك الجسد ! وبحث بشيطانية عن طريقة تمكّنه من غزو ذلك الجسد ! وتوصل بعد تفكّر وتفكير ، الى ضرورة ابعاد عرقي من طريقه ، لذا سعى لدى صديقه سعد راضي ، من

اجل ايجاد عمل لذلك الرجل المزعج ! لكن ، ماذا لو عرف جبر بأن نزار سبقه الى جسد هاجار ؟ ماذا لو عرف بأن نزار جنى في غفلة منه ، وعلى مدار خمسة من أيام انتظاره ، بعضاً من ثمار خطته بابعاد عرقي ؟ ماذا لو عرفت هاجار ، ان جبر ببحثه عن فرصة عمل عرقي ، انما كان يبحث عنها هي ؟ أكانت ستهب نفسها ، والحالة هذه ، الى نزار ابو خنجر ؟

ما زاد ايمان جبر بأن لكل شيء ثمناً في هذه الحياة ، انه حتى عمل عرقي في الفندق ، تم على حساب الفرقة التي اعتادت تقديم عروضها في صالات الفندق ! فقد اضطر « سعد راضي » بدافع من رغبته في تلبية طلب صديقه الى اقناع مدير الفندق ، بضرورة ان يكون للفندق فرقة فنية خاصة به ملتزمة ببرامجه ، لا فرقة « طياره » لا همّ لها سوى الكسب ! يدرك جبر عمق موقعه في قلب صديقه سعد راضي ، فالمحبة بينهما متبادلة منذ أيام دراستهما في الجامعة ، كانا يشكلان ثنائياً متفقاً في كل شيء ! وكثيراً ما تزاورا ، كثيراً ما خاضا معاً صراعاتهما الطلابية ، وكثيراً ما تناقشا في امور السياسة والفلسفة والكبت الاجتماعي وسباق التسلح ! كانا يحملان وجهة نظر واحدة متحدة ! وحتى نقاشاتهما مع بعضهما ، لم تحمل مفهوم الحوار بقدر ما حملت مفهوم التثنية وتعزيز الرأي !

وكثيراً ما اختلف جبر مع والده الذي كان يؤنبه على تأخره الليلي ، وكانت والدته أبداً ، تنبري للدفاع عنه ، كانت تتجرع الكثير من الشتائم التي يكيلها أبو سلمان لها بسبب دفاعها عنه ! أما سلمان فقد شكل ووالده حلفاً واحداً ، أمام جبر ، وربما امام أم سلمان ايضاً !

لو عرف ابو سلمان بنوايا ابنه في مساعدته لعرقي ، لقلب الدنيا على رأسه ، لو تشمم سلمان رائحة تجدّد علاقة جبر بهاجار ، لأمسك بخيوط فرصته ، ولقدم لوالده قبل موته ، برهانا جديداً ، ودليلاً ناصعاً على صدق رأيه في شقيقه !

لكن ما نغص على جبر هدوء عيشه ، أن سلمان أقحم نفسه في كل شؤونه بعد

وفاة والده ، كان يريد توسيع نطاق سيطرته في بيته « ألم تنته من الجامعة ؟ اذن لماذا لا تساعدني في العمل ؟ » كان يقول له ، وتزداد تحرشاته ، فيعنفه بسبب تأخره الليلي « أين تذهب ؟ لماذا تتأخر ، ليلة أمس عدت بعد انتصاف الليل ؟ أهذا منطقي ؟ أحرام لو أنك تساعدني في المعرض ؟ حرام لو انك تشتغل معي بدل الناس ؟ » واذ يخرج جبر عن صمته يصيح به « أنا حر يا أخي ، ثم انني أنا الذي أنظم لك دفاتر المعرض والمقهى ! » ويتبرم سلمان « تنظم الدفاتر ؟ ثلاث ساعات في الاسبوع ، أربع ؟ خمس ؟ أتسمي هذه مساعدة ؟ » ويضيق جبر « وهل درست في الجامعة لاشتغل معك في المقهى ؟ » « طيب أسكت ! لو أنك آدمي لوقفت معي ، لكن الكلام مع أشكالك لا يفيد ! » وهنا ينفجر « قلت لك ألف مرة لا تتدخل في حياتي ! » حينما يحتد الجدل بين الشقيقين تتدخل ام سلمان التي انكمش جسمها ، وتخدد لحمها ، واضمحل صوتها ! تجابه احتدادهما بالدعاء لهما ، ترجوهما الرأفة ببعضهما ، لكن الجزع كان أبداً يهبط الى صدرها اذ ترى معاني الشر في عينيهما ، كانت تخاف أن يأتي اليوم الذي يقتتلان فيه ، غير ان خروج جبر عن صمته ، ورفضه تدخلات شقيقه ، أديا الى تسييج وجوده في بيته ، والى الحد من تقدم سلمان الذي أراد بسط نفوذه على كل ما في ذلك البيت .

(٩)

حينما دخل جبر بيت عرقي من اجل مساعدته في اعداد نفسه لعرضه الاختباري في الفندق ، شاهد هاجار وهي تقف وراء زوجها اثناء ارتدائه ربطة عنقه الخمرية اللون . تلك كانت المرة الأولى التي يشاهد خلالها هاجار الزوجة عن قرب ! غير ان رؤيته الفاحصة لها، أثارت في نفسه صدى ما كان له ان يهز قلبه ، لو لم ينهمر شلال علاقته العتيقة الصامتة بها .
عشق جبر اختلف عن شهوة نزار العاجزة المدفونة في منبتها ! فقد أعاد الى

عيني هاجار بريقهما ، والى خديها توردهما ، وأعاد حرث الأثلام المتيبسة في جسدها فكعبت من جديد ، وتنفست مثلما الأرض بعد طول جفاف « أدخل يا جبر ادخل » قالت له ليلة تجرأ على طرق بابها في هدأة انتصاف الليل ! لقد ادرك بأنها أعادت فتح أبوابها له بعد ان باشر عرقي عمله في الفندق ! أدرك ايضاً ايماءات نظراتها ومعاني اشاراتها التي عادت تبثها من باحة دارها كلما رأته واقفاً في النافذة « لا بد من الرجل » ! هذه واحدة من مسلمات هاجار ! وعرقي لم يعد سوى بدن متعب وهيكل مفرغ لا تراه إلا في لحظات ما قبل الفجر « ادخل يا جبر ، أدخل » قالتها بصوت خفيض شف عن تواطؤ صارخ مع جبر الذي انسل بلا تردد داخل بيتها ، بينما تفحصت هي مشهد البيوت المطفأة ، والطريق الخالية إلا من الجرذان والقطط المسالمة ، وهشيش السيارات في الشوارع البعيدة .

كانت الحياة في الوادي ، وضعت اوزارها وانسلت في كهوف العيون ، وتحت أغطية القطن والقماش الممزق ، وكان الليل يمتص من التقاطع الشرقي بقايا صوت سيارة مسرعة ، وأصداء سعلة جافة من حنجرة حارس متعب ، وعرقي لا يعود من سهراته الا عند الفجر ! يعرف جبر هذا ، وتعرفه هاجار التي نظرت الى الساعة المنبهة على المنضدة البنية ، ثم اجرت عملية حسابية ذهنية خرجت منها بنتيجة ، أن زوجها لن يعود قبل ثلاث ساعات !

وهاجار أغلقت الباب بالمزلاج . . .

ما الذي يمكن ان يفعله شاب كجبر ، اذ يرى امرأة مثل هاجار ، وهي تغلق بابها عليه ، ثم تصعّده بنظراتها المحمومة ؟

كيف يمسك بالمقدمات وهو يواجه غمار امرأة بغلالة نوم شفافة لا تستر جسدها ، بقدر ما تسهم في استحضار الذكورة والعواء من أعماق الأعماق ؟

(١٠)

لقد تشمم عرقي رائحة رجل آخر في كل جزء من جسد زوجته ليلة

اضطر الى مواقعتها دفعاً لشكوكها في اخلاصه لها ! تلك الشكوك التي تيقّنت حينما تشممت هي ايضاً ، رائحة نساء اخريات في ملابسه وعلى بدنه المتعب ! ولكي تقطع على زوجها طريق التساؤل عن التغيرات الطارئة على جسدها ، بادرته بهجوم الافصاح عن شكوكها به ! لكن عرقي في ردوده على تساؤلاتها الفاحصة لم يجرؤ على مفاتحتها في امر خيانتها له ! ذلك ان مجرد الحديث في أمر كهذا ، سيحمل في ثنياته ايحاء بالقبول الغامض لفكرة العلاقة الجسدية بين زوجته وبين جبر ! « ليته يتزوجها ويخلّصني منها ! » قال في ذاته المستسلمة للتأكيدات المنبعثة من كل بقاع جسدها ، التأكيدات التي حاول تكذيبها وتجاهلها حينما شرع بملامسة جسد زوجته في محاولة منه لاختبار تفاعلها معه !

في تلك الليلة فوجيء عرقي بحرارة هاجار ، والتهاب أنفاسها ، والتصاقها الأنثوي ببدنه المتعب ! وقال لها محاولاً اشغالها عن حقائقه الجسدية الجديدة المتمثلة في استنفاد نساء الفنادق لطاقاته الجنسية « أحبك يا هاجار » ! واعتذر لها عن انشغاله عنها في غمرة الغناء والسهر المتكرر ، لكنها واصلت اقتحامها له من اجل سحب اعترافه الجسمي بالضعف والتراجع ، وبالالتقاء الليلي بنساء أخريات أذبن جسمه واستنفدن طاقاته « ما لك يا عرقي » قالت له فاستعاد نفسه وتجمّع باستماتة لينتهي من ورطة اختباره لزوجته ! وقرر ان يتجنب الافصاح عن شكوكه ، لأنها ستزيد من احساسه بالهزال وبالاستسلام امام تلك المرأة الملتهبة !

(١١)

عرقي هو الغجري الوحيد الذي اغتبط حال تسلمه نسخته من التبليغ ، ولو لم ينتقل المحضرون الى البيوت الأخرى ، لما فرغوا من الاجابة عن الأسئلة التي أمطرهم بها حينما اراد التأكد من جدية التبليغ !

لقد انفتحت بوابات الفرج أمامه لسببين : الأول ، أنه وزوجته يقيمان في الطابق الذي يعلو بيت سبلو الفأر ، لذا فإن عرقي لا يملك بيتاً في الوادي ليخاف عليه من قرار المحكمة ! أما السبب الثاني فيتمثل في أمنيته بالخروج من الوادي ، والعيش في أحد الأحياء التي تليق به كمطرب وكرئيس لفرقة « السيركلز » الفنية !

كل بوابات الفرج تفتحت امام عرقي ، وحينما زارته والدته سمار بعد قطيعة قال لها ، بأن الحياة ابتسمت له ثانية ، وسمار تفاءلت حينئذ بما سمعته من ابنها ، وتنفست صعداء زوال خوفها من رفضه لطلبها الذي جاءته من أجله ، غير انها سرعان ما تجهمت وتمنت لو انها لم تلده ! فقد تبين لها ان الحياة لم تبتسم له بسبب زيارتها انما بسبب ظهور التبليغ ! ومما زادها حنقاً وسخطاً ، انه رفض تقديم قرش واحد لها في محنة التبليغ !

لقد أدى تخلي عرقي عن أهله في محنتهم ، الى تزايد احساسهم بالخذلان والعزلة ، بل ان سمار حاولت بنبشها فكرة التسول ، التأثير على ابنها من اجل ارغامه على الوقوف الى جانب والده في محنته ، واذ بلغه خبر ضرب والده لوالدته بسبب رغبتها في التسول قال أمام جمع من الغجر ، بأنه سيستأجر لوالديه ولاخواته بيتاً في احد أحياء المدينة ، وعلى نفقته الخاصة ، اذا تقرر ترحيلهم عن الوادي ! لكن كياز رفض عرض ابنه هذا امام جمع من الغجر ايضاً ، وقال بأن من حسنات التبليغ انه كشف له عن نذالة ابنه !

(١٢)

تقرّبت هاجار من عرقي كثيراً ، وأذابت الكثير من ثلوج علاقتهما ، وقالت له « يا عرقي ، هذا البيت الذي نسكنه ، والبيت الذي تحتنا ، سيصيران ملكنا ، لأن والدي سبلو ان لم يمت اليوم فسيموت غدا ، أيامه معدودة كما تعرف ! » حينها رد عرقي بضيق « لا تتعبي نفسك يا هاجار ، لو

طوّبوا لي كل هذا الوادي لما دفعت قرشاً واحداً ! » « ومن طلب منك ان تدفع ؟ » قالت له فرد باستغراب « اذن ماذا تريدين ؟ » « أريد ان تقف مع الناس ، لأنك واحد منهم ، وسيكون لك بيت مثلهم » « هالله هالله ، ومن أين لك هذه الأفكار ؟ » قال لها بمزيج من السخرية والغيظ ، وقبل ان تجيب انفجر في وجهها مفصحاً عن كل ما يجوش في صدره « هذه الأفكار ليست منك ، انها أفكار جبر ابو بركة يا ساقطة ، اتظنيني لا اعرف بخيانتك لي ؟ اتظنينني غبياً يا خائنة ؟ كم مرة ذهبت الى بيته ؟ ردّي ؟ كم مرة نمت في فراشه ؟ كم مرة نام معك هنا ، في فراشي هذا ؟ »

كانا يقفان وجها لوجه ، وكانت في وقفتها امامه ، مطمئنة الى أنه لن يجرؤ على ضربها ! الضرب لم يعد واردا في حياتها ، فقد حاول في بدايات حياته الزوجية ان يضربها ، إلا انها أخذت تصيح وتصرخ حال رفعه يده ! وحاول اسكاتها بأن كمّ فمها بكفه ، لكنه لم يفلح ! ظلت تصيح حتى تلملم كل جيرانه في بيته ، واذ خلّصوها منه ، اتجهت من فورها الى المخفر وشكته للضابط المناوب الذي ارسل برفقتها احد رجاله من اجل القبض على عرقي واحتجازه لمدة اثنتين وسبعين ساعة في المخفر .

في المرة التالية حاول اتباع الطريقة ذاتها ، فلملمت بصياحها كل جيرانه ، واذ عزمت على الذهاب الى المخفر توسل اليها امام الرجال والنساء خشية احتجازه مرة اخرى ، واذ صفحت عنه فكر بضرورة تغيير اسلوبه هذا ، وتوصل الى ان خير وسيلة للتعامل مع هاجار انما هي الاقناع ! وبمرور الأيام تحول اسلوب الاقناع الذي اتبعه معها ، الى نوع من الرجاء! ثم التوسل ! أما الضرب فلم يعد ممكناً أبداً !

كانت على علم بحدود تأثيرها على زوجها ، وكان هو مكشوفاً كالسهل امامها ، لذا صمتت بانتظار انتهائه من نضح شكوكه ، ثم انسلت من امامه بهدوء ، وجلست على كرسي في الغرفة الأخرى ، فلحقها وهو يعوي ويشتم ، وحينما انكرت اقواله اقترب منها ، حدجها بعينيه ، ثم فاجأها « لقد

رأيته بعيني وهو يخرج من عندك مع الفجر يا ساقطة » ! لكن هاجار تمالكت نفسها امام مفاجأة ذلك الزوج ، وقالت له بازدراء هادىء « لكنك لم تفعل شيئاً يا عرقي ! »

* * *

اللقـــاء

(١)

أحس نزار حال مشاهدته المحضرين ، بوجود جسم غير مستقر يعبث في أعماقه اللزجة ! جسم أقرب الى العلقة الجائعة ! وفكر ، أيمكن ان يكونوا جادين ؟ واذ علم بضرورة التوقيع على القوائم ، وبمدة الانذار المحدد للدفع أو لإخلاء البيوت ، قرر الابتعاد عن المحضرين ريثما يفكر في تبعات التوقيع على التبليغ « اسمعي يا امرأة » قال لزوجته هادية إذ تذكّر شقاءه في هذه الحياة « لا أريد أن أراهم » « وتتركني هنا يا نزار ؟ » كان صوت هادية رفيعاً مثل خيط انسلّ من كدس خذلان مفاجىء « الى أين تـذهب ؟ متى ترجـع ؟ » « سأغيب ساعتين ، ثلاثة ، أغلقي الباب عليك وعلى الأولاد ، لا تفتحيه لهم ! » ثم انسحب من كابوس بيته وسط تجمعات لا مـرئية لمحضـرين لا يعدّون ولا يحصون !

كان يريد الابتعاد ، وبالذات ، عن أولئك المحضرين ! وتسلّل من بوابة داره على رؤوس تحسباته دون الالتفات نحو اليمين او الشمال ، بل انه عانى من عبء رأسه الثقيل الذي أحسه خاضعاً لضغط مكبسي تُسيّره قوة مجهولة لا همّ لها سوى ارغامه على انزال ذلك الرأس الى أسفل ! وتخيّل بأن المسافة بين بوابة داره وبين سيارته مزروعة بالمحضرين !

سار بحذر ، واذ سمع انفجار اسمه على لسان أحدهم جمد في مكانه ، وقاوم باستماتة ذلك الدافع الخفي الذي حثّه على القفز بعيداً عن أفاعي الكلمات

وأقلام الحبر في أنامل المحضرين !
جمد في مكانه ، ودون أن يفكر ، اقتلع رأسه من طأطأته ، استعاد نفسه ، ونظر الى المنادي فلم ير سوى كياز الغجري ! ولم يسمع سوى قهقهات تلك العلقة في جوفه المظلم « أهكذا يا نزار ؟ تخاف من أطيافهم ؟ ماذا لو كانوا حقيقة في طريقك ؟ » وقطب جفونه على جمرات كابوسه المفاجىء « لو كانوا رجالاً عاديين مثلي لأرعبتهم ، لكن هؤلاء المحضرين من طرف المحكمة ثم انني لم أقرر التوقيع بعد ! » قال في ذاته الباحثة عن تبرير يعيد الاعتبار الى كبريائه المتكسر ، واذ اقترب من كياز سأله عن أولئك المحضرين ، فأجابه بأنهم لم ينتهوا من بيوت الزقاق المجاور .

(٢)

في الليل ، وبعد تفكير عميق في الحلول الممكنة لتجنب دفع ثمن الأرض ، أضاءت ذهن نزار فكرة عقد صفقة غريبة مع سلمان أبو بركة ! وقال « آن الأوان للقائي به » !
في نهايات حياة أبو سلمان ، أحس سلمان بتضاؤل المسافة بينه وبين نزار أبو خنجر ! بل استطاع التوصل ، الى ان طموحات ذلك الرجل كبرت الى حد التطاول على مواقعه ! فنزار نسج العديد من العلاقات مع الفلاحين والغجر ، كما ان بيته لا يكاد يخلو من ضيوفه وزائريه ! واستأجر ثلاثة مستودعات عند الشارع الشرقي ، وغدا واحداً من تجار الجملة المعروفين لدى الكثيرين من أصحاب محلات النوفوتيه في احياء المدينة !
استخدم نزار ، اضافة الى هاجار ، موظفاً آخر في محل النوفوتيه ، وآخر في المستودعات وسائقاً للباص الابيض الصغير الذي ابتاعه من أجل توزيع بضائعه على زبائنه في أحياء المدينة ، وكتب على ذلك الباص باللون الأزرق « محلات نزار لتجارة النوفوتيه » وتحتها عبارة « جملة ومفرق » ثم عبارة « وادي

الغجر » ثم رقمي هاتفي النوفوتيه والمستودع ، كما أضاف الى تجارته ما لا حصر له من أصناف الملابس والأقمشة والأحذية والأصواف والخيوط والازرار والأحزمة ، والكثير الكثير مما قد يخطر بالبال .

(٣)

لقد تنامى وجود نزار ابو خنجر خلال السنوات الثلاثة الأخيرة من حياة ابو سلمان المتعبة ، غير ان هذا الأخير ، لم يفكر ولو للحظة ، بامكانية تطاول نزار ! فهو ليس سوى تاجر مسترزق لا همّ له سوى الكسب ، فليعش اذن ! أما الآن ، وبعد ظهور التبليغ ، فإن نزار يرسم ، يخطط ، ويناور .

حينما قرر عقد صفقته مع سلمان ، فكر بصعوبة الحوار معه ، وبنظرته القاسية المتعالية ، لذا ملأ جعبته بالكثير من الأفكار والعبارات التي أعدها قبل ان يتجه الى بيته من أجل اللقاء به .

كانت بداية لقاء الرجلين أشبه بمواجهة بين ذئبين ضاريين في مساحة مهجورة الا من عواء الرجولة ، وزمهرير الوعيد الخفيّ المطلّ من العيون والقسمات ! كان صوت سلمان صلبا مستقيماً ، اما نظراته فسلّطها نحو نزار بقسوة كشفت حجم المساحة التي يحتلها في تفكيره ! وحاول النفاذ اليه من خلال عينيه ، حاول اقتحامه بصوته الصلب ، ونظراته القاسية وسطوة وجوده العريق في الوادي ، غير أن نزار رأى في الابتعاد عن مرمى السهام خير وسيلة لتجنب اصاباتها ! لذا آثر تجاهل محاولات سلمان ، ومجابهته بالبشاشة تقدمة للانقضاض عليه !

بعد انتهاء جولة السؤال الفاحص عن الصحة والأحوال والعمل ، تأكد لنزار أن سلمان مشرف على الانتهاء من محاولته الطائشة لاقتحامه ، وأحس بأن دوره قد أهل ، فاعتدل في جلسته ، ثم قال بخبث .

ـ اسمعت يا سلمان بالإشاعة الجديدة ؟

- أيّ اشاعة ؟

- أهالي الوادي يريدون تسليم الحجج الموقعة من والدك الى المحكمة !

- ولماذا ؟

- الله أعلم !

فهم سلمان على الفور ، ما يرمي اليه ذلك الرجل ذو الوجه الحرذوني ! توصل ببساطة الى مضمون الورقة التي لوح بها : يريد تذكيره بقدرته على تحريض السكان ضده من أجل تلويث اسم والده واسمه في المحاكم !

تلك كانت الأرضية التي افترشها نزار لصفقته !

كان يدرك بأن في هدم بيوت الوادي تـدميراً لـه وللكثير من أسبـاب نجاح تجارته ، كان يحس بأن الوادي هو مصـدر وجوده المتميـز في هذه الحيـاة ، وتوصل الى ان الوقت حان للالتقاء بسلمان الذي لا بد وأن توصل الى النتيجة ذاتها ! لكن هذا لم يكن السبب الرئيسي الذي دعاه الى زيارته ، فما فكر به كان أبعد بكثير مما ظنه سلمان :

- عندي فكرة .

- هات يا نزار .

- ان نقعد أنا وانت مع صاحب الأرض ونتفق معه !

- نتفق معه ؟ على أي أساس ؟

- على أساس نستفيد كلنا ، أنا وانت وهو !

- كيف ؟

- نخدمه ويخدمنا ؟

- أولاً كيف نخدمه ؟

- بأن نقنع السكان بدفع ثمن الأرض له !

- وهو كيف يخدمنا ؟

- يدفع لنا ثمن هذا الدور !

- هذا تخريف !

- أنت غلطان ، هذه فرصتنا ويجب أن نستغلها !
- لكن كيف ؟
- فكّر معي .

ثم لف رجلاً على رجل ، وأكمل بثقة :

- صاحب الأرض ، يريد ثمن الأرض ، كلام سليم ؟
- لا ! لأنه لو كان يريد ثمن الأرض لما طلب خمسة وعشرين ديناراً عن كل متر ! وانت عارف ان هذا السعر باهظ !
- وماذا يريد برأيك ؟
- يريد الأرض نفسها !
- انت غلطان ! لأن معروف لا يريد الأرض أبداً ، انما ثمنها !
- اذن فسّر لي كيف يطلب خمسة وعشرين ديناراً عن كل متر ؟ !
- هذا سعر للتفاوض !
- لا يا حبيبي ، هذا سعر للتعجيز !
- صدّقني ! صاحب الأرض لا يريدها ، انما يريد ثمنها ، أنا متأكد وسأثبت لك ذلك !
- كيف ؟
- اذا رفض السكان الدفع . فمعناه انهم سيرحلون، واذا رحلوا عن بيوتهم ، فسيتركونها خراباً ! سيخربونها ! وفي هذه الحالة يضطر معروف الى هدم كل البيوت ! والهدم يكلفه مبالغ كبيرة ، ثم انه لن يجد من يشتري الأرض بسهولة ، أو على الأقل قبل مرور سنوات ، إضافة الى أنه سيدفع للحكومة رسوم تنظيم الأرض ، وفرزها ، وتطويبها ، بالاضافة الى اجور المساحين وتكاليف ازالة الانقاض ، والنتيجة ، ان معروف المعروف سيخسر كثيراً اذا لم يدفع السكان له !

وعبث سلمان بشاربيه الاسودين ، نظر الى نزار عبر جفنيه اللذين تقاربا ، ثم قال مشككاً :

- هذا كلام غير مضمون !

فانقضّ نزار

- مضمون مئة بالمئة يا سلمان ؟ أتدري ما هي ورقة معروف الرابحة ؟ انها ورقة تمسك السكان ببيوتهم وحاجتهم اليها !

ثم أكمل بثبات :

- اذن ، في حالة عدم الدفع فإن معروف سيخسر مبالغ كبيرة على الرغم من أنه كسب القضية في المحكمة ، أما في حالة الدفع ، فإنه سيكسب مليون دينار بدون أي خسارة !

- لا ، لا ، هذه مبالغة !

- احسبها يا أخي ! كم عدد الدور في الوادي ؟

- حوالى ألف دار !

- حلو ! لو افترضنا ان معدل المساحات سبعون متراً لكل دار ، كلام سليم ؟

- تقريباً !

- لو ضربنا السبعين متراً في خمسة عشر ديناراً ، ولا أريد أن أقول خمسة وعشرين حسبما يريد معروف ، لطلعنا بنتيجة ان معدل المبلغ المطلوب من كل صاحب دار في الوادي هو إلف وخمسين ديناراً، كلام سليم ؟!

- سليم !

- لو ضربنا الألف وخمسين ديناراً في عدد الدور الألف ، لطلعنا بنتيجة ان معروف سيأخذ من السكان اكثر من مليون دينار !؟

وساد صمت بين الرجلين مبعثه ان سلمان لم يكن قد فكر في الأمر بهذه الصورة ، كما لم يخرج بهذه النتائج الجاهزة التي فوجىء بها ، لذا صمت من اجل التأكد من صحة تلك النتائج ، أما نزار فظل صامتاً بانتظار الآثار التي ستتركها استنتاجاته في نفس سلمان الذي اطلق من بين شفتيه صفيراً

مضمحلاً وقال بدهشة :

- مليون دينار ؟!

- نعم ، مليون دينار !

ثم أردف

- أنا وانت ، نخدمه بأن نقنع السكان بالدفع ، وهو يدفع لنا مقابل هذه الخدمة !

ثم أضاف بلهجة من وصل الى بديهية :

- خدمة مقابل خدمة !

فتنهد سلمان بيأس :

- أنسيت ان معروف حصل على قرار من المحكمة ؟ انسيت انه لا يحتاج لخدمتنا ؟ وأنه قادر على تنفيذ قرار المحكمة بدون مساعدتنا !

- هذا اذا كان يريد الأرض ! اما اذا أراد ثمنها ، مثلما توصلنا ، فسيحتاج الينا ، انا متأكد أنه بحاجة الينا ، خصوصا انه يعرف بمكانتنا في الوادي ، ويعرف بتأثيرنا على السكان !

- وكيف يعرف ؟

- معروف على علم بكل ما يجري في الوادي .

- أنا أشك !

- أنا متأكد ، ثم انه لا يوجد في الدنيا رجل يضحي بمليون دينار !

- ومن قال بأنه سيضحي بمليون دينار !

- المنطق يقول هذا ! لأنه اذا لم يدفع لنا ، انا وانت ، فسنخرّب عليه خطته ، سنقنع السكان بعدم الدفع ، خصوصاً انهم فعلاً لا يريدون الدفع ، ولا يملكون المال للدفع !

كان نزار يتحدث بثقة مَنْ لا تعوزه البراهين ، اما سلمان ، فتأرجح بين الاقتناع بصحة استنتاجاته ، وبين الرغبة في اقتناص الفرصة التي بدأت معالمها تتضح في ذهنه ، غير ان فلول احساسه بعظمته ، دعته الى التريث في

اعطاء كلمته على الرغم من تسرب القناعة الى نفسه ، وقال باحثاً عن نهاية لشوطه هذا :

- طيب ، وماذا تريد ثمناً لخدماتنا !

- هذا يعتمد على لبقاتنا ، انا وانت ، في التفاوض مع معروف .

- على كل حال ، أتمنى ان تسير الأمور حسبما تتصور يا نزار !

ثم تأمله بعينيه :

- أتدري ! انت شيطان حقيقي !

قالها ، فتذكر على الفور كلمات والده « الألفة نقيض الرهبة » لكنه هز رأسه ، ثم انفجر ونزار ، في موجة من الضحك الصاخب !

جبر أبو بركة

(١)

لقد تردد جبر بين الدخول في معمعة ما يجري ، وبين الابتعاد عن كل ما من شأنه خدش صورته في الوادي ، فكر فيما يمكن فعله من أجل هؤلاء السكان الذين درج على تسميتهم بالبسطاء ، وتخيَّلَ ما قد يترتب على وقوفه معهم من خلافات مع شقيقه الذي قدّر بأنه لن يقف الاّ مع مصلحته الخاصة « في القضية خلل ما ، يتمثل في أن صاحب الأرض يملكها فعلاً » قال في نفسه محاولاً العثور على مخرج لتردده ، لكن التساؤل الذي خطر له حينئذ ، أغلق في وجهه ذلك المخرج ، اذ « أين سيذهب السكان ؟ كيف سيعيشون اذا تركوا بيوتهم ؟ » .

كان يفكر ، يقيس ، ويضع استنتاجاته « من العبث ان يبحثوا عن محامٍ لتولي القضية ، لأن قرار المحكمة قطعي غير قابل للاستئناف » ثم يتخيل والده وهو يتقاضى من أولئك السكان أتاوات إقامتهم في الوادي ، فيشير بإبهامه الى صدره « نحن نتحمل جزءاً من المسؤولية ! »

في الليلة الأولى لظهور التبليغ ، ذهب عرقي كعادته لأداء وصلته الغنائية في الفندق ، فانتظر جبر همود ضجة السكان وصخبهم ، انتظر حتى خلت الطرق من المارة والمتحادثين ، وحتى كفت الأصوات عن تعكير صفو ليلته ، ثم تسلل الى بيت هاجار على رؤوس أصابعه .

قالت له بصوت خفيض « ادخل يا جبر » فولج الباب ثم أغلقه وراءه متلفّتاً

الى وجهها الشاحب وملامحها المتعبة ، تلك كانت المرة الأولى التي يرى خلالها هاجار بذلك البؤس ، فهي التي تتفجر الحياة من محياها ، هي التي استمد منها دفقات سعادته المتأخرة « ما لك يا هاجار ؟ » قال متقرباً منها ، مبتعداً عن كبرياء عالمه الذي اعتاد نزعه حال دخوله بيتها ! جبر لا يتجرد من أسلحة كبريائه الا عند هاجار التي لا تنثني الا في الفراش « أفكر في مصيبتنا » قالت وهي تنظر الى عينيه باحثة عن دلائل موقفه من التبليغ الذي غدا زاد كل من في الوادي « سنحلها ! هل تريدين الدفع ؟ » «كل الغجر اتفقوا على ان لا يدفعوا ! » « وأنت ؟ » « وأنا ! » .

لكن هاجار فوجئت بكلماته التي نطقها بثبات « هذا ما أردت قوله لك ، يجب أن لا يستجيب أحد لطلبات صاحب الأرض ! » وصمت مُتَتَبِّعاً في عينيها مردود عبارته التي أحس بأنها شرارة معركة قادمة « أنا فكرت في المشكلة ، ووجدت بأن أفضل الحلول هو ان نثيرها بشكل آخر » « كيف ؟ » « نحوّلها الى مشكلة عامة ، ونخبر الصحف لكي ترسل مندوبيها الى الوادي ! » ثم فك واحداً من أزرار قميصه الأزرق متأففاً « الطقس حار » « والهواء ساكن يا جبر ! » « لا بد من التأثير على الرأي العام في البلد ! لا بد من توسيع اهتمام الناس بالمشكلة لأنها تخص عشرة آلاف انسان قد يصبحون بلا مأوى » « ونتحدث في الإذاعة » قالت له بحماس فج ، والتمعت عيناها ببريق بث في نفسه احساساً بأنه مُقْدِم على خوض معركة حقيقية مختلفة عن تلك التي اعتاد خوضها مع الطلبة في الأندية والجمعيات « هنا يستطيع المرء ترجمة أفكاره » قال في نفسه فتعاظم أمامها « هذه فرصتي للخروج من دوائر النظريات الى حيث المشاركة الفعلية » وحلق في فضاءات بعيدة عالية فوق بقاع موحلة مزروعة بالأيدي الممتدة المستغيثة ، فتعاظم احساسه بنفسه الى حد أنه قال لها بصوت خطابي مشحون « اسمعي يا هاجار ! يجب أن نكون جميعاً يداً واحدة ، وصفاً واحداً » ثم صمت برهة وقال « وجدتها ! » ولملم صوته ، حشره في أعماقه التي رددت « سعد راضي » !

« ما هي التي وجدتها ؟ » قالت له بإلحاح فأجاب « لي صديق سيساعدنا ، انه مدير علاقات الفندق . . . » ثم هز يده باستخفاف « الذي أوجد العمل لعرقي » « كيف يساعدنا ؟ » « سعد راضي هو الذي سيوصلني الى الصحف ، والى الناس المهمين ، لأنه يلتقي بهم في الفندق ، ويعرفهم ! » واستطرد « اولئك هم القادرون على حل المشكلة » !

(٢)

لكن أعماق جبر ضجت بتساؤلات لم يستطع تجاهلها على الرغم من محاولاته البائسة لطمسها ، اذ كيف يمكنه تكسير الجدران التي تفصله عن سكان الوادي ؟ كيف يمكنه الحصول على ثقتهم وهو ابن أبو سلمان ؟ هل سيصدقون نواياه ؟ من أين سيبدأ معهم ؟ تلك كانت التساؤلات التي هرّبت كل احتمالات النوم في ليلته ، فقد كبرت مشكلة الوادي في تفكيره بعد مغادرته بيت هاجار ، وتحولت المشكلة الى قضية تحتاج الى وقفة مع النفس والأفكار والمبادىء ، وتخيل نفسه مقتحماً تجمعات الرجال في الوادي ، متحدثاً اليهم ، متصدراً اهتمامهم ، لكنه تخيل أيضاً فجاجة مثل هذه الخطوة المفاجئة التي لن تهبه ثقة السكان ، بل ربما زادت من شكوكهم ، المشكلة في الخطوة الأولى ، لكن كيف ستكون هذه الخطوة ؟

لم يُبْقِ أسلوباً إلّا فكر به ، وقبل الفجر بقليل ، توصل الى أن خير وسيلة للاشتراك في المعمعة ، إنما هي بالدخول المدوي اليها ، وقرر : غداً سأحضر الصحفيين الى الوادي !

(٣)

كان لحضور مندوبي الصحف أثر عجيب أسكن الطمأنينة في نفوس السكان ، فقد جاؤوا الى الوادي بأوراقهم وأقلامهم وكاميراتهم ، يرافقهم

جبر أبو بركة الذي التف السكان حوله حال معرفتهم بأنه هو الذي احضر الصحفيين ، وخاطبوه بامتنان مبعثه اعتقادهم بالفائدة العظيمة التي ستتحقق لقضيتهم بنشرها في الصحف ، واستمعوا اليه حينما خاطبهم مخترقاً الذهول الذي اعتلى وجوههم « يا اخوان ، نريد أن نشرح قضيتنا ، نريد أن نفضح معروف المعروف ، الصحفيون أمامكم ، قولوا لهم ما تشاؤون ، لأن ما ستقولونه الآن ، سيظهر غداً في الصحف ، وسنرى ما الذي يستطيع معروف عمله أمام اصرارنا على عدم الدفع » !

وعلا ضجيج الحشد ، أفصحوا أمام بعضهم عن استهجانهم لموقف جبر المفاجيء « اذن فهو معنا ! » قال أحدهم بغبطة وتفاؤل ، وقال آخر « أسمعتم ماذا قال ؟ قال نريد ، ونفضح ، واصرارنا ، يعني كأنه واحد منا » وتدخل ثالث « أنا قلت لكم ، جبر نظيف ومختلف عن والده وعن سلمان » وأفصح رابع عن شكوكه التي لم يستطع اخفاءها « لكن صبركم ! لا تتعجلوا الأمور ، لأن جبر يظل ابن ابو سلمان » وأيّده آخر وآخر . . . ، وتناقضت الأقوال والآراء ، وارتاب الكثيرون منهم لا بسبب استهجانهم لما قاله جبر وحسب ، وانما أيضاً بسبب جرأته في التقدم نحوهم ، ثم ان الأمر الآن مختلف ، صحيح أنهم يحترمونه ، لكنه الآن يقتحم عالمهم ! والأمر يتعلق بحياتهم ومستقبلهم ، لذا فإن الحذر واجب ! من يدري ما الذي يخفيه في أعماقه ؟ ألا يمكن ان تكون له مآرب أخرى ؟ كل شيء في الحياة جائز ، خصوصاً في هذه الأيام التي فقد الأخ فيها ثقته بأخيه ، فكيف بابن أبو سلمان ؟ لكن ألا يمكن أن يكون مخلصاً وصادقاً ؟ وهل سنسلمه رقابنا لنخاف عليها ؟ لماذا لا ندعه يحاول ؟ لماذا نسيء الظن ؟ ألم يحضر الصحفيين الى الوادي ؟ أليس هذا دليلاً على صدق نيته ؟

كل واحد فكر بطريقته ، غير ان معظمهم ، كانوا ميالين الى تصديق نوايا جبر ، بل ان احدهم قال قبل ان يقف أمام المصورين « والله انه أحسن منا ، لأننا لو كنا في مكانه لما فعلنا مثله ! » وقال جبر حين رأى تزايد الحشد حول

الصحفيين « ابتعدوا ، لو سمحتم ، افسحوا المجال للمصورين ، دعوهم يصورون » وكانوا يلتقطون الصور الطولية والعرضية للوادي وللسكان ، ويتخذون أثناء ذلك أوضاعاً مضحكة ، فينحنون ويلوون أعناقهم وخواصرهم وبطونهم ، كل هذا من أجل ابراز تعبيرات الوجوه المستفزة والمستعطفة والقاسية والمهمومة ، ومن اجل اظهار نوافذ البيوت والأبواب والجدران والقنوات في الصور المقربة ، وكان الصحفيون يكتبون ، يكتبون كل شيء ، كل كلمة ، ويستخدمون لغة ورموزاً عجيبة على الورق ، بينما لا يكف السكان عن الالتفاف حولهم ، وعن معابثة الأحاسيس الجديدة التي توالدت في نفوسهم بحضور الصحفيين « قريباً ستحل المشكلة » قالوا حينما رأوا ذلك الاهتمام الوثائقي الذي أضفاه ذلك التطور على قضيتهم ، بل ان بعضهم سخروا في دخائلهم من مطالب صاحب الأرض الذي « يفكر بأن الدنيا فوضى ! » حسبما قالوا أثناء تتبعهم للصحفيين المتأففين من شدة الحر « يا جماعة اختنقنا ، ابعدوا عنا قليلاً » قال أحد المصورين ثم هف الهواء حول وجهه بالأوراق التي بين يديه ، وفتح آخر زر قميصه الليلكي فبدت غابة صدره الأبيض ، بينما مسح ثالث عرق جبهته الذهبية بمنديل أصفر .

(٤)

كان الاحتدام الشديد الذي مس سكان الوادي قد أنساهم أشياء كثيرة ، حتى أن احدهم في اللقاء الذي أُجري معه خلط الكثير من الأمور ، فشتم صاحب الأرض ، هدده ، وتطرق أيضاً الى تفاصيل عمله في كنس الشوارع ! وطالب بنقله من منطقة عمله الى الوادي لكي لا يدفع أجور السرفيس ! وسرد آخر بعد ان تبسم ببلاهة للكاميرا ، البدايات الأولى للوادي وتطور الحياة فيه ، وإذ وصل الى مرحلة التبليغ شتم ولعن مبيّناً موقفه الرافض للدفع حتى « ولو على قطع رقبتي » ثم تحدث ـ بالمناسبة ـ عن عدم

كفاية الراتب ، تحدث عن الأقدميّة في العمل ، وعدم الانصاف ، والواسطة ، واذ سأله الصحفي عن علاقة كل هذا بقضية الوادي قال ، بأن الأمور كلها مرتبطة ببعضها وتؤدي الى بعضها ! ووصف ثالث صاحب الأرض قائلاً بأنه « برجوازي حقير ! » فتدخل شلب في بدايات عقده الثالث وقال مصححاً « لا ، هذا واحد أرستقراطي ! » وكان من الممكن ان ينشب الخلاف بينهما حول تصنيف صاحب الأرض لولا أن وضع جبر سبابته لصق شفتيه « هشش ، لا تبتعدوا عن موضوعنا » !

كل الذين تحدثوا الى الصحفيين حاولوا بث ما يدور في خلدهم ، فتحدثوا عن الغنى والفقر بعد أن عرضوا قضيتهم ، تحدثوا عن غلاء الأسعار واستغلال التجار لهم ، تحدثوا عن كل شيء ، كأنما رأوا في أنامل الصحفيين مفاتيح سحرية لهمومهم التي لن تتاح لهم فرصة بثها ثانية عبر الصحف « فلنتحدث بصراحة طالما جاء الصحفيون الينا » قالوا دون ان تغيب عن أذهانهم فكرة إزجاء الشكر في نهاية كل لقاء ، الى كل من الصحفيين ، والمصورين ، وصاحب الجريدة ، وكلّ اولاد الحلال الذين يحبون الخير لسكان الوادي .

لقد اقترب كياز الغجري من بسط القضية أمام الصحفيين بتركيز وتعقل ، لولا دخول العديد من الرجال على خطوط لقائه الصحفي « لماذا تريدون ان تتحدثوا كلكم دفعة واحدة ؟ لماذا لا تدعوا المجال له ؟ » كانوا يقولون للناس بأصواتهم المجهدة ، وكان الناس يسكتون ! يسكتون دقيقة او دقيقتين ثم يزجون بأنفسهم في معمعة اللقاء فيسكتهم جبر أو احد الصحفيين من جديد « من شان الله يا جماعة ، واحد واحد ! »

وقد هدد أحدهم غير مرة بالعودة الى جريدته اذا لم يصمت أولئك الرجال المحمومون ! غير ان هذا لم يغير في الأمر شيئاً ! كان احساسهم بضراوة الاحتمالات ، وبضرورة التأكيد على صحة موقفهم ، يطغى على كل ما عداه من الأمور ، بما في ذلك سخف « الانتظام » ومثاليته !

(٥)

تلك كانت المرة الأولى التي يقدم خلالها جبر على الوقوف مع السكان ، والاقتراب منهم الى ذلك الحد ، كان بعيداً عنهم على الرغم من عيشه بينهم ، وكانت صورتهم في ذهنه ليست سوى صورة لأناس بسطاء مغلوبين على أمرهم ! منذ أن شب وتعرف على الحياة ، وبذور التعاطف مع أولئك السكان تنمو في نفسه ، لكن ذلك النمو كان بطيئاً محصوراً ، كان يحس التعاطف وحسب ، اما ان يتمثل ذلك الاحساس ، ويحيله الى جزء من حياته اليومية ، فهذا ما تطلب تحطيم العديد من الجدران التي اصطدم بها حال ادراكه الحياة من حوله ! لكن السكان احترموا حياده ذاك « ما ذنب جبر فيما يجري ؟جبر انسان في حاله ، ما له دخل في شيء ! » هكذا تحدث السكان عن جبر حال احتدام الجدل بينهم في اليوم الأول من الانذار !

لقد استشعر جبر ، بمزيد من الحرج ، سعة المسافة التي تفصله عن عالم أولئك السكان ، وحينما بدأ حديثه اليهم بعد مغادرة الصحفيين للوادي ، دهمه احساس هو أقرب الى ذاك الذي يصفع المرء كلما تدخل فيما لا يعنيه من شؤون الآخرين ! وتساءل في ذاته أثناء اطلاقه المتردد لعباراته ، عما اذا كان يبحث عن البطولة باقترابه من السكان ومشاركته لهم في مشكلتهم ! واذ قرأ الاستهجان في عيون الكثيرين منهم ، قال في نفسه « معهم حق ! » غير أن هذا لم يثنه عن مواصلة محاولاته لانتزاع ملامح التحفظ التي رافقت نظراتهم اليه ثم الى بعضهم « يا استاذ ، نحن نحترمك ، لكننا بصراحة ، استغربنا اهتمامك بنا ! » قال أحدهم محاولاً التوصل الى ما قديعينه على ابعاد هواجس الشك في نفسه « ولماذا لا أهتم ؟ ألست واحداً من سكان هذا الوادي ؟ » رد جبر ممعناً في محاولته ، فتراجع الرجل قائلاً بحشمة « صحيح يا أستاذ ، لكن ، مع عدم المؤاخذة ، انت قادر على دفع ثمن الأرض ! » « لكن غيري لا يستطيع أن يدفع ، فهل نتركه بلا مأوى ؟ » وهنا قال أحد الواقفين بنبرة

مغموسة بالشكوى « ومن أين ندفع ؟ »

في تلك الظهيرة قالوا لجبر الكثير مما لا يمكنهم قوله لشقيقه سلمان ، خاطبوه بلهجة خالطتها الشكوى والتوجس والألم ، أما هو فوجد فرصته لتكسير العديد من الحواجز والجدران التي أقصته عنهم « يا اخوان ، أنا واحد منكم ، والكارثة علينا كلنا ! ومن جانبي سأبذل كل ما بوسعي لحل هذه المشكلة ! لكن يجب ان يكون موقفنا واحداً ، يجب ان نرفض الدفع ، فالأرض مسكونة منذ عشرات السنين ، لماذا لم يتذكر صاحبها بأن له ارضاً إلاّ الآن ؟ ألأن أسعار الارض ارتفعت ؟ هل نتحمل نحن مسؤولية ارتفاع الأسعار ؟ » .

كان في حديثه اليهم ، يستخدم لهجة مختلفة عن تلك التي تتدحرج على ألسنتهم ، لهجة أقرب الى الفصحى المشرّكة بالمدنية والبدوية والفلاحية ، وهي اللهجة التي تولّدت من اختلاطه بالطلبة وبأصدقائه ومعارفه في أنحاء المدينة ، لكن لهجته تلك ، كانت مفهومة لهم على الرغم من احتوائها الفاظاً غير متداولة في أوساطهم ، كان يتحدث بينما يتزايد الحشد حوله ، حتى أنه وجد نفسه بعد دقائق ، وسط عدد من الرجال والشبان والصبية يزيد عن المائتين !

(٦)

كان السكان حينئذ ، مثل قطيع يبحث عن طريق النبع في مفترق صحراوي جاف ، وحينما تأكد من تفاعلهم وقبولهم لعباراته التي أعدها في ليلة أرقة بعد مغادرته بيت هاجار ، قال بصوت خطابي مشحون « اذا أردنا الحل ، فالحل موجود ، انه في اصرارنا على موقفنا وعلى عدم الدفع كما قلت لكم . . . » فقاطعه أحدهم « لكن يا أستاذ ، ماذا نفعل اذا بدأت الجرافات بهدم بيوتنا ؟ » فانبرى له كياز الغجري « نتصدى لها ! » قالها بضم النون في بداية كلمة « نتصدى » « وكيف نتصدى لها يا كياز ؟ » « مثلما يفعلون في

التلفزيون ، نضع البراميل والتراب في طريقها . . » « ونحرق اطارات الكاوتشوك لنمنعها من دخول الوادي » أضاف شاب متحمس فابتسم جبر في دخيلته « كياز وهذا الشاب يجسدان المراهقة الثورية ، اذ كيف يطرحان العنف كحل مبدئي قبل أن يلجآ الى الأساليب الأخرى المتاحة ؟ »

كانت كل خلية في جبر ، تعمل في تلك اللحظات التي اعتبرها « تاريخية وحاسمة » في حياته « هذا كلام خطير يا سيد كياز ! ويجب ان نتصرف بشكل عقلاني ، فمثلاً نحن نستطيع نشر القضية في كل مكان ، نستطيع ان نخاطب الوجهاء والمسؤولين والشخصيات المهمة . . . » فقاطعه شاب رفيع طويل يحاول ايجاد حيز لصوته الرفيع المتبعثر بين أصوات الرجال الخشنة « ونأتي بالتلفزيون ليصوّر الوادي . . . » فأكمل جبر مزهواً بذلك التفاعل الذي أشعل الحشد « سنجعل من قضية الوادي قضية الساعة في البلد ، لأن المتضررين لا يقل عددهم عن العشرة آلاف نسمة » وهنا تخابث أحدهم محاولاً توريطه في التزام اعتَقَدَ بأن غير قادر على الوفاء به « لكن يا أستاذ ، من يقدر على الوصول الى المسؤولين والوجهاء والشخصيات ؟ » فأكد جبر « أنا أتكفل بهذه المهمة ! وأتكفل بمقابلة كل الذين يستطيعون خدمة قضيتنا ! » ثم أردف بلهجة من توصَّلَ الى استنتاج خطير «أتعرفون متى تحل المشكلة؟» «متى يا استاذ ، متى ؟ » « حينما ننقلها من الوادي الى الخارج ، الى الرأي العام ، لأن هذا ما سيكفل لنا تدخل كل الجهات في القضية ! » ولقد أحس جبر بموجة من التأثر حينما قال له أحد الرجال « يا استاذ ، المهم هو حلّ المشكلة ، وان شاء الله يكون الخلاص على يد الله ويدك ! »

(٧)

في اليوم التالي وهو الثالث من أيام الانذار ، جازف معظم سكان الوادي بشراء الصحف ورأوا صورهم على صفحات الجرائد بأوضاع مختلفة ،

مقبلين ومدبرين ، ومتقبّضين ومبتسمين وفاغري الأفواه ، وتعرفوا الى بيوتهم وأزقتهم ودكاكينهم ، وقرأوا أقوالهم وتعليقاتهم ، وأحسوا بأن جبر أبو بركة فتح لهم منافذ كثيرة على عالم المدينة والناس من خلال نشر تصريحاتهم في الصحف التي أثارت غيظ نزار ابو خنجر حال اطلاعه عليها في تلك الصبيحة ذات الآفاق المشمسة ، « تفضل يا سلمان ! هذا ما استفدناه من اخيك جبر » ! قال ثم وضع الجريدة امام سلمان المتأرجح على كرسي مكتبه في المعرض « هذا أخوك خرّب علينا خطتنا ! » ثم أشار بإصبعه الى العناوين الرئيسية المتضمنة مناشدة المسؤولين بالتدخل في قضية الوادي « قرأت كل شيء ، وأنا أقول عافاك يا جبر لأنك خدمتنا ! » قالها بفتور ثم طوى الجريدة « لكن كيف يا سلمان ، كيف ؟ » « أقول لك ، إجلس » وجلس على الكنبة الجلدية السوداء لصق طاولة المكتب بأعصاب ثائرة « أقول ، جبر خدمنا لأنه يجب أن يعرف صاحب الأرض ، معروف ، بأن السكان لا يريدون ولا يستطيعون الدفع ، لأن هذا سيرفع من أسعارنا ! هذا الكلام سيجبره على ان يقبل بعرضنا ، ويدفع لنا أكثر ، وسترى غداً عندما نجلس معه حسب موعدنا » .

كانت نبرته أقرب الى نبرة معلم منها الى الشريك ، ونزار رفع حاجبه الأيمن ، حك رقبته الغليظة معاتباً ذكاءه الذي لم يوصله الى هذه النتيجة من قبل ، لكنه ، بعد ان بحث مع سلمان صحة الاستنتاج الذي فاجأه به قال له مداعباً « وتقول لي بأنني أنا الشيطان يا سلمان ؟ » ثم أردف ممعنا في مداعبته « بدأت أشك ! » « في ماذا يا نزار » « في أنك انت الذي دفعت جبر للتظاهر بالبطولة » فابتسم مستجيباً لتلك المداعبة ، غير أن ابتسامته لم تحدد ما اذا كان وراء ما فعله شقيقه ام انها امتداد لما بثته تلك المداعبة في نفسه من احاسيس التفوق والذكاء ، ولولا تذكره المفاجيء للكآبة التي انتابته ونزار حينما علما بحضور الصحفيين الى الوادي لادّعى ـ ربما ـ وقوفه وراء ما فعله جبر ! هذا ما قالته ابتسامته التي امّحت على حين غرة في ذلك الصباح .

(٨)

الصورة التي جذبت انظار سكان الوادي ، والكثيرين من قراء صحف اليوم الثالث ، وسكان المدينة اللاهثة ، كانت صورة سبلو المكبرة !

لقد احتل سبلو بصورته تلك ، جزءاً كبيراً من الصفحة الخامسة لإحدى الصحف التي أفردت لسكان الوادي وقضيتهم صفحتين كاملتين من صفحاتها الست عشرة ! كانت صورته أشبه بتلك التي يبرزها محترفو التصوير في معارض الصور الفوتوغرافية ، لم يكن مبتسماً ، لم يكن عابساً ، وكانت أيامه وانتكاساته وأفراحه وأحزانه كلها محتشدة في ملامحه المجهرية ، في خطوط وجهه ، في شبكات الحزوز المتقاطعة وتجاعيد الرقبة !

قراء الصحيفة توقفوا طويلاً عند صورة سبلو التي نبشت همود الزمان في أذهانهم ، فاستلتهم من حاضرهم وربما ، من زمانهم ، ودعتهم الى التوقف والتفكر والتذكر ، ثم قراءة القصة بكاملها !

لقد أصاب مصور الجريدة حينما ترك الناس المتجمعين حوله واتجه الى سبلو الذي كان يقف كعادته لصق عمود الكهرباء عند التقاطع الشرقي ، لكنه لم يجب على أي من أسئلة الصحفي الذي حاول استفزازه واستنطاقه ، واكتفى بما بثه مشهده الصامت المصلوب من معان عجزت تعليقات الصحفيين وتعبيراتهم المدروسة عن اظهارها ، وحتى التعليق الذي أثبته المصور أسفل تلك الصورة المجهرية (خطوط الزمان والمكان) لم يكن سوى قطرة في بحر المعاني التي بثتها الصورة في صحيفة اليوم الثالث .

هاجار كانت المرأة الوحيدة التي تجرأت على التحدث الى الصحفيين ، واستخدمت في حديثها ذاك ، كلمات جماعية أتقنت اختيارها ، كانت تقول : نحن ، نريد ، لا نوافق ، لا نقبل ، لن ندفع ، ماذا يريدون منا ؟ ولقد قالت هاجار بشكل ما ، بأن الآوان آن للكف عن مضايقتنا ! واستغرب الرجال أن يكون لديها كل تلك الجرأة والقدرة على تلخيص الكثير مما أرادوا

قوله ، وكان جبر ينظر اليها مشجعاً وحافزاً ، كان يرى في كلماتها الحارة تلك ، نقلاً أميناً صادقاً لما دار بينهما في الليلة التي سبقت حضور الصحفيين الى الوادي ، أما صورتها التي ظهرت في الجريدة ، فَذُيّلت بعبارة « هاجار ، ابنة المكان والزمان » !

(٩)

صعق عرقي حال رؤيته صورة زوجته في صحيفة اليوم الثالث « يا بنت الكلبة » قال مخاطباً صورتها بغيظ ، ثم أنزوى وراء طاولة في صالة الفندق ، وقرأ ـ كعادته ـ ببطء سَبَبُهُ أنه لم يكن يقرأ الصحف إلاّ لرغبته في تقوية قدرته على القراءة والكتابة اذ « لا يجوز ان يكون المرء مطرباً دون ان يتقن القراءة السريعة » قرأ بدقة كلمات زوجته واحتجاجاتها ، قرأ تصريحات السكان الغجر والفلاحين ، شاهد صورة هاجار وهي تتحدث الى مندوب الجريدة ، شاهد جبر وهو يقف بالقرب منها ، فهز رأسه بينما انتابه احساس مبهم بتفرده دون غيره من قراء الصحيفة ، بمعرفة كل الأسرار المختبئة وراء تلك الصور ! انتابته مشاعر شتى حينما أكمل قراءة لقاء زوجته الذي صاغه الصحفي بما يخدم تحقيقه « أكل هذا الكلام من هاجار ؟ معقول ؟ ! » ثم انتقل الى صورة كياز وبقية السكان الذين يعرفهم ، وشاهد بحيادية غريبة صورة سبلو التي توسطت الصفحة الخامسة ، لكنه وبعد ان طوى الجريدة ، تنفس بغبطة مكتومة ! ذلك أنه لم يجد له اسما في مساحات حديث زوجته ووالده ، لم يجد أية اشارة الى حياتها الخاصة أو حياته ، وحتى حينما ذكرت اسمها للصحفي ، فقد قالت بأنها ابنة سبلو ! لم تقل بأنها زوجة عرقي ! وكان هذا مبعث تنفسه صعداء غبطته التي خبت على حين غرة اذ « ماذا لو فضحتني في الجريدة ؟ » وأظلم وجهه ، اسْودّ ، وتسارعت دقات قلبه ، أشعل سيجارة ، ثم طلب فنجاناً من القهوة التي اعتاد ارتشافها مثلما اعتاد النوم في الفندق مرتين او ثلاثاً كل أسبوع !

أطرق عرقي مفكراً فيما يمكن لهاجار ان تفعله لو أنها أرادت ايذاءه في لقائها الصحفي ذاك ، وأحس بأن رقبته ذاتها بين يدي تلك المرأة ، ونظر حوله ، فرأى جدران الخشب البني المحفور ، والطاولات الصامتة التي تحمل الشراشف البيضاء ، والمزهريات الفضية ، والأكواب المقلوبة ، نظر الى أسفل فرأى زخارف السجاد ، وكعوب الأعمدة المضلعة الملبسة بالخشب ، أعاد فتح الجريدة فرأى التفاصيل البائسة للوجوه والطرق والأزقة والنوافذ والجدران المتآكلة ، حينئذ أحس بأظافر حادة لأصابع قوية ، تنغرز في جسمه ، ثم تسلخ جلده عنه دفعة واحدة ! .

* * *

الاسماء ذات الوقع الساخن

٢٣٥

(١)

كـانت الأحداث تتسـارع في وادي الغجر ، ونيـران التوجس تلتهم الساعات والأيام .

كـان السكان يلتقـون تحت أعمدة الكهـرباء ، أمـام الأزقـة والبـوابـات ، يتحادثون بأصواتهم المرتفعة ، ويتَلَفّتون ، ربما دون أن يعوا ، الى كل رجل آت ، كل امرأة ، كل طفل يركض باتجاههم ، والى كل سيارة تدخل شارع الوادي ، علها تحمل لهم خبراً جديداً !

كانوا يلتفّون حول سيارة جبر حال وقوفها ، يطبقون عليها كالجراد ، يَمُطّون رؤوسهم عبر النافذة ، كلهم يريدون ادخال رؤوسهم من نافذة السيارة قبل ان يغادرها « طمئنّا يا أستاذ » يسألونه بلهفة فيجيب « ما زلنا نحاول ! » يا أستاذ ما ظل من مدة الانذار غير أيام معدودة ! » « النتيجة يا استاذ ؟ ما هي النتيجة ؟ » فيرد بضيق « قلت لكم ، ما زلنا نحاول مع صاحب الأرض » !

عبثاً كان يحاول اخفاء انحناءات شوطه مع النـاس ومع المسؤولـين واولئك الذين التقاهم من أجل مساعدته في ايجاد حل لقضيـة الوادي ، كـان مثل ضابط اتصال بين السكان وبـين كل الآخـرين ! وكان يخفي الكثـير مما لا يستطيع قوله أمام السكان ! لن يستطيع التطرق الى الكلمات السريعة التي صفعه بها أولئك الذين التقاهم في مراكز اعمالهم وفي بيوتهم ، لن يستطيع وصف أسـاليب انزلاقهم من أمـامه ، لن يجـرؤ على البـوح ! فقد التقى -

بمساعدة صديقه سعد راضي ـ الكثيرين من أصحاب الأسماء المدوية في سماء المدينة ، وجلس واياهم لأول مرة في حياته ، محققاً بذلك أمنيته العتيقة بامتلاك شرف التعرف اليهم ! كانوا ينصتون له كل على انفراد ، وحسب طريقته الخاصة ، ويحرقون لفافات التبغ والدقائق اثناء استماعهم لحكايته « المثيرة » كما وصفها غير واحد منهم !

بعضهم تحدثوا بمزيد من التعاطف والألم ، ورفعوا سماعات هواتفهم ، وهاتفوا بعبارات مخلصة صاحب الأرض الذي يعرفونه ! بعضهم وعدوه بعمل كل ما بوسعهم من أجل سكان الوادي ، آخرون تسربوا كالرمل من بين الأصابع ! لكن جبر ، أحس بوجود نقطة ضعف قاتلة في بنية مَنْطِقِه ، وهي أن والده هو الذي تقاضى من السكان أتاوات اقامتهم في الوادي !

تلك كانت الثغرة التي لم يتمكن من سدها إلّا بإخفاء هذه المعلومة عن كل الذين تحدث اليهم في قضية الوادي !

أحدهم ، وكان يرتدي بدلة رمادية اللون هادئة ، استقبله في بيته باهتمام ، أجلسه في الصالة التي انبعثت من احدى زواياها أنغام « موزارت » ، وافتتح حديثه متسائلاً عما اذا كان التقاه من قبل « وجهك ليس غريباً عني ! » ثم اعتذر عن عدم تمكنه من وقف انسياب الموسيقى من المسجلة الضخمة في ركن الصالة ، وذلك بسبب العادة المستحكمة في حياته ، والتي تقتضي سماع الموسيقى في ذلك الوقت بالذات من ساعات النهار ، كما بيّنَ له بمزيد من المتعة والانسياب ، أسباب ولعه بالموسيقى الكلاسيكية التي تهدىء أعصابه ، وتركز أفكاره ، وقال إنّ الانسان في هذا العصر المركب الفتاك بحاجة الى ما لا يقل عن ست ساعات من الموسيقى الهادئة ، لكي يتمكن من الاسترخاء ، وإراحة الاعصاب ! واذ أسعفته ذاكرته في تذكر السبب الذي دعا جبر الى زيارته قال باهتمام مفاجىء « تفضل ، ما هي مشكلتك ؟ » فاعتدل جبر في جلسته بعد أن كان مسترخياً ، أيضاً ! وسرد على مسمعي ذلك الرجل ملابسات قضية الوادي وتفصيلاتها ، واذ انتهى ، بادره بمجموعة من الأسئلة عن تفاصيل ما

جرى ، وعن عدد السكان في الوادي ، وحياتهم ، وعن علاقته بسعد راضي الذي امتدحه كثيراً ، وأثنى على قدراته المميزة في نسج العلاقات وتنميتها ، ثم نهض من على مقعده قائلاً « أعرف شخصاً له تأثير على معروف المعروف ، سأتصل به الآن » ورفع سماعة الهاتف الفضي اللون ، أدار القرص مرات ، انتظر للحظات انتهت بأن سأل عن شخص بعينه ، ثم سأل عبر الهاتف أيضاً عن الوقت الذي سيعود فيه ذلك الشخص الى بيته ، واذ تلقى الجواب ، أقفل السماعة قائلاً لجبر « انه غير موجود الآن » وعاد الى مقعده متأففاً « على كل حال سأتصل به بعد نصف ساعة » وجلس ، وأبدى تأثره الشديد لما يجري في الوادي ، وحزنه على أولئك السكان ، وعلى الغجر الذين يعرف الكثير عن آلامهم وعن تاريخهم ،وعن اللعنة التي حاقت بهم فشردتهم منذ بداية التاريخ ، بسبب رفضهم ايواء العذراء في خيامهم أثناء هروبها مع يوسف النجار والطفل يسوع الى مصر !

ويبدو ان الرجل وجد في حديثه عن الغجر خير وسيلة لتبديد نصف الساعة التي سيعود بعدها الى مهاتفة صديقه ، وبدلاً من اتاحة الفرصة أمام جبر لشرح المزيد من ملابسات قضية الوادي ، سأله بحاجبين مرفوعين « هل صحيح أن الغجر يسيطرون على النيران ؟ » فرد مستغرباً ذلك السؤال المفاجيء ، من ذلك الرجل بالذات « كلا يا سيدي من قال هذا ؟ » غير أن الرجل بيّن له اتفاقه معه على تكذيب تلك المقولة التي « أطلقها الاوروبيون على الغجر » ! ثم تحدث عما يشاع هناك عن الغجر وتطرق الى بغض الغجر لفرانشيسكو فرانكو ، دكتاتور اسبانيا الذي فرض الرقابة الصارمة عليهم قبل موته ، لارَدَّه الله ، قال ، وتساءل عن أسباب اضطهاد الغجر مبيّناً أنهم فنانون جديرون بالاحترام ، وأنهم بلغوا مرحلة من الوعي السياسي أتاحت لهم فرصة دخول البرلمان الاسباني من خلال نائب يمثلهم . . .

تسلسل الرجل في حديثه عن الغجر الى ان عاد الى اهتمامه الأساسي ، الموسيقى الكلاسيكية ! فتحدث عن الإيحاءات الغجرية الغامضة التي

تعكسها « أوبرا كارمن » لجورج بيزت ! ثم أدار قرص هـاتفه ، واذ تلقى الإجابة من الطرف الآخر قال بعد مقدمات السؤال عن الصحـة والأحوال « سأرسل لك شاباً جيداً متحمّساً ، وهو من طرف سعد راضي ، أرجو ان تهتم بقضيته قدر استطاعتك ، متى يأتيك ؟ » وبعد لحظات أقفل السماعة ثم عاد وهو يقول « الليلة ، الساعـة التاسعـة تمامـاً ، إذهب اليه وسيسـاعدك بالتأكيد » ثم دون عنوانه على بـطاقة بيضـاء ناولـه اياهـا ، فودعـه شاكـراً وانصرف .

(٢)

لقد أحيل الى أشخاص آخرين أربع مرات دون أن يتلقى مساعدة أيّ من أولئك الذين أحيل اليهم ، وكان في نهاية كل لقاء يسمع هذه العبارات « سأتصل بك » أو « سأحاول » أو « اتصل بي غداً » الأربعة استخدموا هذه العبارات كأنهم جميعاً « قرأوا عند شيخ واحد » !

احدهم ، وكان قصيراً ممتلئاً ذا أصابع قصيرة غليظة ، قال لجبر قبل ان يبدأ بسرد حكاية الوادي « إسمع يا عزيزي ، الوقت من ذهب ، الوقت هو الهر الوحيد الذي فقدنا السيطرة عليه ، إعرض قضيتـك باختصـار ، وبشكل علمي وسريع ، يعني ، واحد ، أثنان ، ثلاثة . . على شكل نقاط مركزة ، جميل ؟ » « جميل ! » قالها وباشر بسرد الحكاية بسرعة أحس معها بأنه في سباق مميت مع ذلك « الهر الوحيد » ! واذ انتهى ، بادره الرجل بسؤال سريع « وما المطلوب مني ؟ » فقدم إجابته الجاهزة « المـطلوب يا سيـدي هو ان نُحَـوِّل القضية الى قضية عامة ، من أجل الضغط على الرأي العام في البلد ، لكي لا يستفرد صاحب الأرض بالسكان ، ومن أجل ايجاد حل مقبول بحيث لا يموت الذئب ولا تفنى الأغنام . . . » « مثل ؟! » « مثلاً أن لا يزيد سعر الأرض المطلوب عن الدينار أو الدينارين في أسوأ الأحوال ، مثلاً اذا تعذر هذا ، أن

تقوم الجهات المختصة ببناء اسكانات لهؤلاء الناس كي يعيشوا فيها بأمان » وفي النهاية قال « الحلول كثيرة يا سيدي ، لكنها تحتاج دعمكم وتحرُّككم ! » فتثاقل الرجل « على كل حال ، سأحاول ! » ثم نهض بما يوحي بانتهاء اللقاء .

(٣)

كانوا ينظرون الى ساعاتهم بين اللحظة واللحظة ، وكان الحرج يدهم جبر كلما دخل بيت أحدهم او مكتبه ، بل انه أحس غير مرة ، بأنه في عالم لا يمتّ بصلة الى العالم الذي تخيله عن هؤلاء الرجال ، غير أنه كان يخاطب نفسه « سينتصرون لأهالي الوادي ، هذا ما يقوله تاريخهم » وكان يتعثّر في بداية حديثه مع أي منهم ، يحس بالتصاغر ! لهؤلاء الرجال هيبة لا يجوز انتهاكها ! كان شلال تاريخهم يتدفّق على رأسه كلما التقى أحدهم ، فيحس بالانكماش وبضرورة التقيد بآداب الحديث ، وكثيراً ما أومأ برأسه كَدُمَيَةٍ آلية ، موافقاً آراءهم التي لم تقنعه ! كانوا يتفحصونه بعيونهم المدربة ! بعضهم يلف رجلاً على رجل ، ويسرح ، ويسعل ، ويترك في احاديثه فراغات كبيرة ! بعضهم يوقفه عند نقطة ما من حديثه ، يستفسر عن شيء بعينه ، ثم يطلب منه ان يكمل ، ربما لكي يشعره باستماعه واهتمامه ، وربما لسبب آخر !
لكنه في نهايات شوطه مع أولئك الرجال ، امتلك دعامات جديدة من الثقة بالنفس ، بحيث أصبح بامكانه التحدث بطلاقة أمام أيّ منهم ، ودونما أي اهتزاز أو تردد ، كما تعرّف إلى أساليبهم الخاصة في الاختصار والحديث الملغّز ، وأتقن الكثير من الحركات اليدوية المدروسة التي يسخرونها لتوضيح أفكارهم ! أكثر من هذا أنه حفظ بعضاً من مصطلحاتهم الانجليزية التي يلجأون اليها كلما تعسَّرت ولادة العربية في أذهانهم ، ولقد قال أحدهم لجبر بعد أن استمع الى عرضه لقضيته « أسلوبك مرتّب ، أفكارك علمية

متسلسلة ! » وعلى الرغم مما بثته هذه الملاحظة في نفسه من أحاسيس الثقة والنجاح ، إلّا أنه لم ينس تذكير ذلك الرجل بالسبب الـذي دعاه لـزيارتـه « شكراً يا سيدي ، لكن ماذا بشـأن موضـوعنا ؟ » قـال مبدداً الكثـير من امتدادات أصداء تلك الملاحظة في نفسه « آه ، بخصوص موضوع الوادي ! سأتصل بك على كل حال » وبنفاذ صبر لم يعهده جبر في ذاتـه الهادئـة التي خرجت في تلك اللحظة عن جبلتها قال « لكن الوقت يا سيـدي ، الوقت يدركنا ! » وهنا انفردت ملامح الرجل الذي قال بنبرة من حضرته حكمة قيمة « آه ! قلت لي الوقت ! أتدري أيها الشاب بأن الوقت هو . . . » « الهر الوحيد الذي فقدتم السيطرة عليه يا سيدي ! » فرفع حاجبيه قائلاً باحساس رجل انكشف امره « هل قابلت . . . ؟ » « نعم قابلته وحدّثني عن الهر ! » « هل ساعدك ؟ » « لقد حاول ! والمهم الآن يا سيدي أنه لم يبق من زمن الوادي سوى بضعة أيام فقط ، وبعدهـا سيهدمـون البيوت ، سيتشـرد الآلاف ، ستنتهي القضية ! » « أي قضية هي التي ستنتهي ؟ » قال بتحفُّز ، فأوضح جبر « قضية الوادي ! » عندها تناول بطاقة صغيرة من جيبه ، وكتب عـلى ظهرها « أرجو مساعدة حامله في قضيته قدر الامكان » وناوله البطاقة قائلاً « اذهب اليه ، انه مسؤول مهم ، حدثه عن قضيتك وسيساعدك ، أنا متأكد من أنه سيساعدك ! »

* * *

(١)

تمكن كل من نزار وسلمان ومعروف من الالتقاء عند نقطة توفيقية أثناء جلستهم الطويلة في بيت معروف !

كان الطرفان مثل لاعبي شطرنج على رقعة خالية إلّا من محاولاتهما تحقيق اكبر قدر من الكسب ! أما الحجارة ، فلم يكن لها وجود على الرغم من تحريكهم لها على مدار تلك الجلسة القياسيّة .

في ذلك المساء توصل معروف ، بعد استدعائه لكل ما وهبته الطبيعة من ذكاء ، وكل ما أفرزته تجربة أعوامه الستين من خبرات ، وكل ما جمعه من معلومات عن الوادي وسكانه ، توصل بمرارة الى ان سلمان ونزار يدركان بدقة أبعاد لعبة التهديد بهدم الوادي !

ترصل أيضاً الى أنهما يدركان حقيقة ما يريده ، وبأنه لا يريد الأرض إنما ثمنها ، وبأن السعر الذي طلبه ثمناً لكل متر إنما هو سعر تفاوضي قابل للتخفيض ، على الأقل بما يتناسب ومنطق الأسعار المتداولة !

لكن ما خلخل تماسك حجته ، أن نزار أوحى له ، بمعرفته الكاملة بالخسائر التي ستلحق به اذا لم يدفع السكان ! وبيّن له بأن كسبه الحقيقي لقضية الوادي لا يكمن في قرار المحكمة الذي ترك للسكان خياري الرحيل او الدفع ، وانما في تسلّمه ثمن أرضه الذي سيزيد عن المليون دينار !

وعلى الرغم من تجاهله المكشوف لإيحاءات نزار ، ومن ابدائه لقدرته على

استلال حقّه « من عيون السكان » إلا أنـه قال لهـما أخيراً « طيب ، وهـل تستطيعان اقناع السكان بدفع الثمن الذي أريده ؟ »

هنا التمعت عيناهما ببريق الظفر ، وقال سلمان مؤكداً تأثيره ونزار على كل سكان الوادي « نحن نضمن لك أن تتم الأمور حسبما تريد ، اذا قلنا للسكان ادفعوا ، فسيدفعون ، واذا قلنا لهم لا تدفعوا ، فلن يدفعوا » !

وعلى الفور تذكر معروف الزيارة التي قام بها سلمان برفقة أبيه الى بيته ، وقال محاولاً خلخلة ثقة سلمان بنفسه « أنت واثق من نفسك كثيراً كوالدك رحمة الله عليه ! » « عشت يا سيد معروف ، لكنني قلت لك الحقيقة » ثم أردف ممعناً في تأكيده تأثيره « وسترى بنفسك ! » فابتسم معروف لـه وقال متنهـداً « المهم الآن ، ماذا تريدان بالمقابل » « ما تراه مناسباً ، لكن ، ولكي لا نختلف في المستقبل لا سمح الله ، فإن علينا ان نحدد هذا المناسب ! » قالهـا سلمان فأحس بأنه وضع اصبعه على النقطة الهامة في صفحة ذلك اللقاء « لكنني لا أدفع لكما الا بعد ان يدفع السكان لي » فانبرى له نزار مستعيداً نتائج تفكيره بتلك الصفقة « هذه المشكلة محلولة يا سيد معروف ! » « كيف ؟ » كلما دفع لك واحد من السكان ، تعطينا عمولتنا ، وهكذا تكـون ضمنت حقك ، وضَمَنّا عمولتنا » !

(٢)

في تلك الجلسة حقق كل من الطرفين مزيداً من النقاط لصالحه ، إذ على الرغم من موافقة معروف على اعطائهما معاً نسبة ثلاثة بالمئة من المبالغ التي ستُدفع له ، إلا أنه لم يوافق على تلك النسبة إلّا بعد تيقّنه من قدرتهما على التأثير على السكان ، وقلب وجهات نظرهم ، والضغط عليهم ، وفي النهاية تحقيق ما يريده هو ! أمّا هما فوجدا بأن تلك النسبة تزيد عن الحد الأدنى الذي اتفقا على قبوله فيما بينهما ، واعتبرا موافقته على تلك النسبة فوزاً لهما ، ومكسباً يزيد

عن تقديراتهما ، غير أن معروف المعروف الذي بدا لهما ليِّناً في تلك الجلسة ، كان أذكى بكثير مما توقعا ، ذلك أنه أرغمهما بالمقابل ، على تبنّي السعر الذي حدده ، وهو عشرون ديناراً لكل متر ، بعد أن كان مستعـداً ـ في دخيلته ـ للقبول بأقل من خمسة عشر ديناراً ! وكان هذا مبعث فرح خفي أحسه معروف دون أن يصرح به أمامهما ، ذلك أن النسبة التي سيعطيها لهما لا تساوي شيئاً بالمقارنة مع السعر الذي حدده هو !

(٢)

في ذلك اللقاء اتفقوا على كل التفاصيل ، تحدثوا في الخطوات ، واقترح سلمان ونزار أفكارهما التي ستساعد في الضغط على السكان ، كقطع الميـاه والكهرباء عن الوادي من أجل الإيحاء بجدية النية في هدم البيوت اذ « أليس من حقك أن تفعل هذا طالمـا أنك تملك قـرار الهدم يـا سيد معـروف ؟ » « بالتأكيد ! » قال ثم أردف « رأسمالها أن أوعز للمحامي بتزويد الجهـات المعنية بنسخة من قرار المحكمة » . لقد أوجد اتفاق الرجـال الثلاثـة تآلفـاً بينهم ، وتحدثوا في كثير من أمور الوادي ، وقال معروف لسلمان معاتباً ، لكن بشيء من الانفعال « أتدري ما الذي أغضبني حينما قرأت بالأمس تحقيقات الصحف عن الوادي ؟ الذي أغضبني أنني علمت بأنّ لأخيك دوراً في احضار الصحفيين الى الوادي ، كيف تسمح لأخيك بهـذا ؟ » وردّ سلمان بليـونة « هذا جهل يا سيد معروف ، جهل ! » « على كل حال أنا أعـرف من هو الشخص الذي أرسل الصحفيين الى الوادي ، أما أخوك فليس سوى الوسيلة التي استخدمها ذلك الوغد من أجل الاختباء وراءها ! » وابتلع ريقه ، بينما تَصَعَّدَ انفعاله « أنا أعرف كل شيء ، لكنني ألومك أنت ! لأنـك سمحت لأخيك بأن يكون مطية لواحد من هؤلاء الدجالين ! » ورد سلمان ببراءة رجل خالي الذهن « وما أدراني يا سيد معروف بهذا الكلام ، أنا مثل يا غافلاً لك الله ! »

لم يتمكن معروف في تلك الليلة من كتم غيظه ، لاسيما أنه تذكّر المكالمات التي تلقاها ، والزيارات التي قام بها غير واحد الى بيته من أجل التوسط في قضية الوادي ، وازداد غيظاً فور تذكره الكلمات التي أسمعوه اياها حينما ناشدوه الرأفة بالسكان ، ومراعاتهم ، منطلقين بذلك ، من دالّات أسمائهم المدوِّية ، ووقع تاريخهم وماضيهم ، وقال في تلك الليلة بمزيد من الحقد والغضب « أعرفهم ، أولئك الشياطين ، مدّعي القيم والمبادىء ، المصلحين ، الغيورين ، الذين لا هم لهم سوى الحفر وراء الآخرين » ! وبلّل سبابته بلعاب لسانه كمن يريد قلب صفحة ، بينما ظل نزار وسلمان صامتين مغتبطين بالحميميّة التي خصَّهما بها ، ببثّه مكنوناته تلك على مسامعهما « سبحان الله ! لا يتركون فرصة إلّا ويستفيدون منها » وبلل سبابته بذات الطريقة « انهم أسوأ الخلق ! فلو كانوا مكاني ، لما تخلوا عن قرش واحد من حقوقهم ، ولوجدوا لأنفسهم كل المبررات ، أعرفهم . . »

وبلل سبابته من جديد « يريدون الظهور بمظهر المدافعين عن الناس ؟ ليكن ، لكن ليس على حسابي ، وعمن يدافعون ؟ عن . . . » وقطع عبارته التي كان سيكملها قائلاً « عن اللصوص الذين سرقوا أرضي ! » ذلك أنه تذكر بأن الرجلين الجالسين أمامه ، المصغيين لكلماته ، انما هما من أولئك السكان على الرغم من كل ما دار بينهم !

(٤)

كان معروف ، في تلك الليلة ، ينتفض غيظاً لسبب آخر ، هو ما ورد على لسانه من أقوال تَضَمَّنَها التحقيق الصحفي الثاني ، المنشور في واحدة من صحف اليوم الرابع ! فقد هاتفه الصحفيون بإلحاح في صبيحة اليوم الثالث من أجل اللقاء به ، وتوجيه الأسئلة اليه حول رأيه وردّه على ما تضمَّنه تحقيق صحف اليوم الثالث « من يظنون أنفسهم حتى التقي بهم ؟ » قال حال انهائه

الفظّ للمكالمة السادسة التي تلقاها من أحد الصحفيين اللّحوحين : « يا سيدي سمعتُ وجهات نظر سكان الوادي ، أريد ، اذا تكرمت ، ان التقي بك لكي أنقل وجهة نظرك أنت ! هل تناسبك الساعة السادسة ؟ » « كلا » « السابعة ؟ » « كلا » « الثامنة ، التاسعة ، غداً . . متى يناسبك يا سيدي ؟ » « إذهب الى المحامي وهو سيقول لك كل شيء » « ذهبت ، لكنه رفض التجاوب معي ، ثم انك أنت القادر على وضعنا في الصورة الصحيحة » « أنا لا وقت عندي » « أريد فقط ربع ساعة من وقتك الثمين ، قد تكون محقاً ، وقد يكون السكان مخطئين ! » « وهل هذا يحتاج إلى ذكاء ؟ » « قد يكون لديك تصوّر حول الأسعار التي تريدها ، نريد عرض هذا في الصحف ! » « طلبت خمسة وعشرين ديناراً للمتر الواحد ، واذا لم يدفعوا فسأطلب ثلاثين » « السكان قالوا في التحقيق الصحفي بأنهم لا يملكون خبز يومهم . . . » « ليتسولوا ، ليسرقوا ! فقد سرقوا أرضي من قبل » « اذن هنالك أشياء كثيرة يمكنك قولها يا سيدي لو وافقت على لقائي بك » « ليس لدي ما أضيفه على قرار المحكمة » « لكن للسكان وجهة نظر أخرى يدافعون عنها ، وسيكون من المفيد لك أن تدافع عن نفسك في الصحف ازاء ما قاله السكان . . . » « وهل انا متّهم يا قليل الأدب ! » ثم أقفل السماعة بعصبية من ضاق بملابسه !

غير أنه لم يخطر بباله ، كما لم يتوقع ، بأن ذلك الصحفي اللّحوح ، بلغ من الفطنة حد تسجيل مكالمته الهاتفية معه على شريط كاسيت ، ثم تفريغها مع المقدمات اللازمة ، في تحقيقه الصحفي الثاني المنشور في صحيفة اليوم الرابع !

لقد أصيب معروف بنوبة من الغضب الراجف حال قراءته كلماته التي نطق بها عبر سماعة الهاتف ! وهاتف بحنق ، رئيس تحرير الجريدة التي سمحت لذلك الصحفي بنشر أسرار مكالمته ، وتنصَّلَ من الكثير مما ورد على لسانه متهماً ذلك الصحفي بالتزوير « هذا الصحفي ، حقير ! » « معك حق يا سيد

معروف ، انه حقير ! » رد رئيس التحرير محاولاً امتصاص سيول انفعاله « وحيوان ! » « حيوان أيضاً يا سيد معروف ، ولن نبقيه في الجريدة إلاّ إذا غفرت له » « أنا لا أغفر لمزوِّر ، هذا مزوِّر ! » وهدَّد برفع دعوى في المحكمة ضد الصحيفة بسبب تزويرها أقواله ، وهنا رد رئيس التحرير مدافعاً عن جريدته « لكنك يا سيد معروف ، قلت كل ما ورد في التحقيق ! » « أبداً ! هذا كذب ! » « ووصفتَ الصحفي بقلة الأدب ، وقد سمعتُ الشريط المسجل للمكاملة الهاتفية التي . . . » وفوجيء رئيس التحرير حينما أقفلت السماعة من الطرف الآخر قبل أن يكمل عبارته تلك !

(٥)

في مساء الخامس من الانذار ، عاد جبر الى الوادي فوجده مقلوباً ، ورأى سلمان يتحدث الى جمع كبير من الرجال بصوته الصلب الرنان ، بينما لا يكف العرق عن الانحدار من جبهته الى خديه فرقبته السمراء الثخينة ، وكانت شبابيك البيوت تعج برجال آخرين ، وبنسوة وصبية يتفرجون جميعاً على ذلك الجمع من السكان الملتمين امام بيت سلمان « إسمعوا يا جماعة ، القرار قطعي ، لا تحاولوا تجاهل الخطر ، دبروا اموركم قبل فوات الاوان » قال ثم أشار الى نزار الذي كان واقفاً الى جانبه « أنا ما قصرت معكم ، الليلة الماضية ، رحت أنا ونزار الى بيت معروف المعروف ، وحاولنا معه ، يعلم الله كما حاولنا معه ، وقلنا له ان اهل الواد مساكين ، وما معهم ثمن طعامهم ، قلنا له كل شيء ، وطلبنا منه تمديد فترة الانذار ، لكن ، اسألوا نزار ، أنا في حياتي ما رأيت انساناً أعند من هذا المخلوق ! والله ان الصخر ألينَ منه ! كلمته كلمة ، لا يتزحزح ولا يتلحلح ، الله وكيل ، وقال لنا بأن محاميه حصل على اذن بقطع الماء عن البيوت ، وقال انه سيقطع الماء قبل الظهر ، وقلت لكم هذا الكلام صباح اليوم ، وبالفعل قطع الماء قبل الظهر مثلما قال ، عنيد

يا ناس ، عنيد ! ولعلمكم . . . » وصمت لحظة ليستجمع انتباه الرجال من جديد « لعلمكم ، بعد يوم أو يومين سيقطع الكهرباء عن الواد ، بالعربي الفصيح الرجل يريد أرضه ، ومعه قرار رسمي من المحكمة ! » ثم صفق غمض يده اليمنى بكفه اليسرى في حركة أشبه بختم ورقة « قرار مختوم من المحكمة ، يعني القضية ما فيها مسخرة . . . » وعلت الهمهمات بين الواقفين ، تقوّلوا فيما بينهم حول ما قاله عن نية صاحب الأرض بقطع الكهرباء عن الوادي ، وازداد احساسهم بالخطر ، لكن شيئاً ما ، كان يدعوهم الى العناد والتمسك بموقفهم ! ذلك العناد الذي لم يكن بسبب عدم اقتدارهم على الدفع فحسب ، انما لسبب آخر مبهم كان يدعوهم الى عدم تصديق ما يشاع من أن بيوتهم ستُهدم اذا لم يدفعوا ! كانوا يحسون بأن هنالك الكثير من الروادع التي ستحول دون تنفيذ ذلك التهديد ! روادع لم يتمكنوا من تحديدها أو الامساك بها ، انما أحسوها « يا اخوان ! » قال نزار مبتدئاً حديثه الى ذلك الجمع ، مكملاً ما بدأه سلمان ، وربما مستدركاً ما نسيه ، فتوجهت الأنظار الى وجهه الحرذوني وسنّه الرمادية الشاغية « يا اخوان ، فكّروا بعقولكم ! اتركوا كلام الجرائد ، لأنه . . . كلام جرائد ! كلام الجرائد يا اخوان لا يطعمنا الخبز ! القرار واضح ، ادفعوا أو ارحلوا ، وأظن بأن الأخ سلمان كفى ووفى ، وحكى لكم عن معروف وعن عناده ، وبالمناسبة ، أحب أن أبشركم بأننا ، وبعدما نشف ريقنا ودمنا ، اتفقنا مع معروف على تخفيض السعر الذي طلبه . . » وهنا توقدت العيون ، انتصبت الآذان « تكلم يا نزار ، تكلم . . » « احكِ لنا ، كم يريد ؟! » « يا اخوان ، الأرض غالية هذه الأيام ، ومع ذلك قدرنا على تخفيض السعر ! سلمان من جهة ، وأنا من جهة ، وبالموت قدرنا على تليين معروف ، ووافق لنا على تخفيض السعر الى عشرين ديناراً لكل متر ! » واذ تعالت الأصوات رفضاً لذلك السعر ، قال بصوته الجهوري « يا اخوان ، يا اخوان ! » وصمتوا ! « الإنسان يعمل بأصله ، وهذا سلمان ـ أشار اليه بيده ـ انسان

أصيل ! والله انه دافع عنكم بالباع والذراع ، وأنا في حياتي ما رأيت انساناً مخلصاً لأهل حيه مثل سلمان! » وطأطأ سلمان رأسه متظاهراً الخجل ، وزحزح حذاءه بحركة عفوية ، ثم شبك يديه خلف ظهره « هذا آخر ما قدرنا عليه ، ومثلما قلت لكم ، فكروا بعقولكم ، ودبروا احوالكم ، وما ظل من مدة الانذار غير عشرة أيام ، والأيام مثل لمح البصر . . » « لكن هذا السعر غالي يا عمي ! » قال احدهم فتصدى له سلمان « يا عمي تفضل ، فاوِض معروف ، وخفّض السعر ، أنا زعلان ؟ أي أنا لو كان بيدي ، ما دفعت ولا قرش ! » « طيب ، والذي لا يقدر على الدفع ؟ » « يستدين ! » « ومن اين نستدين ؟ » « من اولاد الحلال ، الدنيا فيها الخير ! » « والله ما ظل في الدنيا جنس الخير ! » قال الرجل بتبرم ، فتغيرت نبرة صوت سلمان « اسمعوا يا إخوان أنا قلت لكم وكل واحد يبحث عن خلاصه ، وأنا منّي وعليّ سأدفع عشرين ديناراً عن كل متر وأرتاح ، لأنني أعرَفُ منكم بنيّة معروف ! » فقال نزار منفذاً اتفاقهما المسبق « وأنا سأدفع » وانتَظَرَ كلمة « أنا » من شفتي أي من الرجال الواقفين ، لكن صوت كياز الذي ارتفع من بينهم ، قطع عليه توقعاته « والله لو هدموا البيت فوق راسي وراس عيالي ما دفعت ولا رحلت ! » وأدار وجهه « من أين أدفع ؟ » . ويبدو أن كلمات كياز أسهمت في تخفيف ما فعلته خطبتا الرجلين في نفوس الواقفين الذين تضاحكوا وتلفّتوا باحثين في وجوه بعضهم عن آثار ما استمعوا اليه ، واذ تنبهوا الى وقوف جبر خلفهم ، تلفتوا اليه باستغاثة ، اقترب أحدهم منه ، فتبعه آخر وآخر حتى التموا حوله « أسمعت يا استاذ كلام سلمان ونزار ؟ » « سمعت ! » « والرأي ؟ » « انا قلت لكم رأيي ، لا تدفعوا وتمسكوا بكلمتكم » « لكن يا أستاذ ، اليوم قطعوا عنا الماء ، وبعد يوم او يومين الكهرباء ، يعني النية لهدم الواد موجودة ! » « الهدف من قطع الماء هو الضغط عليكم لإرغامكم على الدفع ، يجب أن تصمدوا » « يا أستاذ القضية صارت جد ! » « يا أخي قل لي، هل تملك المبلغ المطلوب ؟ » « لا ! » « هل تستطيع تدبيره ؟ » « لا ! » « اذن ما عليك إلاّ

الرفض ! » وصمت الرجل ، صمت الآخرون ، كأنما أصابهم يقين لم يستطيعوا حياله سوى الارتداد الى حقيقة مستورة تعمدوا اخفاءها « يا أخ جبر » قال نزار أبو خنجر مُداخلاً « والله لو كان عندي ذرّة أمل بمعروف المعروف ، لقلت للناس : لا تدفعوا ! لكن يا عمي انت لا تعرف هذا الانسان ، هذا الانسان يحلب النملة ! لو رحت معنا لقلت نفس الحكي . . » « إسمع يا جبر ! » تدخّل سلمان « انا معك ! معك على طول الخط ! لكن من واجبي تنبيه الناس للصحيح ، والصحيح أن معروف لا يريد أن يوصلها للبر ، ومثلما تفضل الأخ نزار وسبقني ، لو كان عندنا أمل في تليينه لقلنا للناس : لا تدفعوا ، واصمدوا ، لكن الكلام شيء ، والفعل شيء آخر ! مثلاً ، اليوم قطع عنا الماء ، فمن يعيدها لبيوت الناس ؟ من اين يشربون ؟ طيب ، بعد يوم أو يومين يقطع الكهرباء عنا ، فمن يعيدها ؟ بعد أسبوع تهدم الجرافات بيوتنا ، من يوقفها ؟ قلت لك ، الرجل مُصرّ يعني مُصرّ ! » وتلفتت وجوه الرجال الى جبر ، وتنبه عدد منهم الى احمرار وجهه وتورُّد وجنتيه حينما قال « أتدري يا سلمان ، موقفك وموقف نزار هما الثغرة الوحيدة في صفوف السكان ! » « نحن يا جبر ؟ » قال سلمان بينما أفلتت عيناه نظراتهما المتوعدة « نعم ، أنتما تلعبان دوراً هدّاما ! » واغتاظ سلمان ، لكنه كتم انفعاله من أجل الإجهاز على ما تبقى من مواقع شقيقه وقال « طيب اقنعني بعدم الدفع ، ولك مني عهد بأن لا أدفع ! » وأيّده نزار « يدي في حزامك يا جبر ، دلّني على طريقة تجنّبني الدفع ، وأنا معك ، تفضّل ! » وكَتَّفَ ذراعيه ، رفع واحداً من حاجبيه بانتظار ما سيقوله جبر الذي استشعر حينئذ وجود كمين له وللسكان ، فقال « على الأقل ، إذا رفضنا الدفع ، فسيضطر معروف للقبول بسعر أقل ، على الأقل سيقبل بمبدأ التقسيط ، أو . . . » فقاطعه نزار بنبرة رقيقة مستخِفَّة « يا أخ جبر ، أنت انسان طيب ، وابن حلال ، وقصدك الخير ، لكن الطيبة وحدها لا تكفي في هذا الزمان ، ولو كانت الطيبة تفيد ، لكان السكان أسعد الناس ، لأنهم طيبون ! وما دمت

تتحدث عن التقسيط ، فأنا أحب أن اتحدث عن نية معروف المعروف ! »
ونظر الى سلمان بعينين ظافرتين قبل أن يفجِّر الفكرة التي حَضَرَتْهُ حينئذ : « يا اخوان، لكل واحد منكم ملاك على كتفي ، والانسان بين حياة وموت ، وما دام الأخ جبر يقول لكم لا تدفعوا ، فأنا سأبرِّىء ذمّتي ، وأبلغكم بالسر الذي عَرَفْتُهُ ، وأنتم بعدها أحرار ! » وَصَمَتَ ، فساد الحشد صمت امتد حتى شمل الرجال والصبية والنساء في نوافذ البيوت ، وامتد حتى الى سبلو المقرفص الذي ارتطم رأسه حينئذ بقيعانه الوهمية دون أن ينبس بآه واحدة « معروف المعروف يا إخوان لا يريد ثمن الأرض ، وانما يريد الأرض ! نعم ، الارض ! أتعرفون لماذا ؟ لأنه يريد بيعها للحكومة بسعر أعلى ، من أجل إنشاء أوتوستراد جديد ، ومنتزهات وحدائق في هذا المكان ! خذوا مني ، أنا عندي معلومات مؤكّدة عن هذا الموضوع ، لكنني لم أقل لكم هذا الكلام لأنني لا أريد زيادة همومكم . . » ثم نظر الى سلمان الذي تهلل وجهه لتلك الفكرة حتى كاد ينطق « حقاً انك شيطان » وأكمل « فيا أخ جبر ، اذا أردت مصلحة السكان فعلاً ، فعليك ان تنصحهم بالدفع ، لكي يُفَوِّتوا على معروف فرصة بيع الأرض لغيرهم » ! وتدخل سلمان « أتصدق وتؤمن بالله يا أخي ؟ والله وحياة أولادي انك يا معروف نطقتها قدامي وقدام المرحوم والدي يوم زرناك قبلما يموت والدي ، قلت بأنك لا تريد بيع الأرض ! » وقال نزار بتهكم « يا عمي انت في واد والدنيا في واد يا أخي ! » فرد جبر بحنق « ما قصدك يا أبو خنجر ؟ أتريد أن تقول بأنني لا أفهم يا قليل الحياء ؟ » لكن نزار تدارك نفسه ، وتجنب إسفين جبر ، وقال بصوت هادىء مُسالم « أنا ؟ أنا قليل الحياء ؟ على كل حال سامحك الله ! أنت مثل أخي الأصغر ! » فواصل جبر محاولته « لو كان لي أخ مثلك لتبرأت منه ! » « سامحك الله ! » قال نزار بينما انتقلت عيناه المستغيثتان الى سلمان الذي قال لشقيقه « عيب يا جبر ! احترم من هو أكبر منك ! »

لم يكن جبر راغباً في الاشتباك مع نزار ، انما حاول الايقاع بينه وبين سلمان ،

وحينما فشلت محاولته ، قال بغيظ « المصيبة أن الناس ما زالوا يستمعون اليكما » ثم اتجه الى بيته بخطى مسرعة .

* * *

النمل البشري

(١)

كانت هاجار مصرة على امتلاك نفسها ، غير أن هذا لم يقنع نزار الذي اغتاظ منذ اللحظة الأولى لمعرفته بعلاقتها مع جبر أبو بركة ! فاضافة إلى ما أوحته تلك العلاقة من تنكّر للقائه الجسدي بها ، اضافة الى رفضها الاقتراب منه ، منذ أن تركته ممدّداً على سريره جسماً عاجزاً عن اكمال محاولته الخامسة بعد يوم كامل من سابقتها ، اضافة الى هذا وذاك ، أحس بأنه مسؤول عن سلوك هاجار كمستخدمة في محله ، وبأنها جزء من صلاحياته المتعددة « من قال لك يا نزار ؟ » سألته فأجاب عابساً « الناس الذين شاهدوا جبر وهو خارج من بيتك في غياب زوجك ! » « من هم ؟ » « كثيرون ! »

لكن الحقيقة أن أحداً من السكان لم يشعر بوجود تلك العلاقة عدا زوجها ونزار الذي حفظ السر في بئر مصلحته ، اذ من غير اللائق أن يتقوّل الناس في أخلاق مستخدمته ! لقد كظم نزار غيظه حينما حسمت أمر تدخله في حياتها ، إلّا أنه لم يستطع لُأْمَ كبريائه المتصدّع أمام اصرارها على مواصلة شوطها مع جبر ! كان هذا مبعث ضيق خفي لنزار الذي لم يشفَ من جروح كبريائه المكشوفة على سموم الغيرة ، تلك الجروح التي تقرّحت وتقرّحت حتى ظهيرة اليوم السابع من الانذار حين سألها عما اذا كانت تريد الدفع لصاحب الأرض أم لا ! واذ تَلَقّى صفعة رفضها العنيد حاول امتصاص تلك الصفعة قائلاً بحلق جاف « يا هاجار ! مثلك مثل السكان ، وكل السكان سيدفعون ، أنا

أعرف ، لا تصدقي كلامهم ، ونحن الفلاحون عندنا مثل يقول : حط راسك بين الرّوس وقُل يا قَطّاع الرّوس ! » وردت هاجار باستخفاف « وعندكم مثل يقول : لا يقطع الراس غير الذي ركّبه ! » فابتلع ريقه وصمت ! أحس بأنها ستسهم في الافساد عليه ، لاسيما أنه في أثناء جلسته الأخيرة وسلمان ، دوّنَ توقعاته لأولئك الذين سيكونون أول من يدفعون لصاحب الأرض ، واعتَقَدَ أنه سيتمكن من اقناع هاجار بالدفع ، لذا كتب اسمها في قائمته ! أما الآن فإنها تستعصي على الاقتناع ، بل ان نبرات صوتها ، وحركات كتفيها ، وعينيها ، وحتى لون فستانها الأصفر الصاخب ، كل ما فيها يوحي بالتحدي الذي لم يعهده خلال سنوات استخدامه لها ! واذ ازدادت تقرحات كبريائه أطرق مفكّراً بطردها من العمل في النوفوتيه من أجل ارغامها على الدفع ، لكن ذكاءه أسعفه في التوصل الى أن مثل هذا الاجراء سيكشف نواياه أمام السكان ، اضافة الى أنها ستفسد عليه الكثير من ترتيباته ان هو فعلها ، لذا آثر تأجيل طردها ، والاكتفاء بالتلميح الى نواياه تجاهها « طيب ، ستندمين يا هاجار ! » قال لها متنهداً بضراوة ، ففكرت بما أخفته عبارته من معان ، وبما أضمرته ملامحه الحرذونية من نوايا ! حينئذ أدركت هاجار بأن الأيام المتبقية لها في عملها ، ستكون معدودة . .

(٢)

في العصرية السابعة من الانذار ، عاد جبر من عمله ، فوجد الوادي مقلوباً أيضاً ! كانت بقايا المياه نفدت من البيوت ، والرجال والنساء والأطفال يلتمّون حول ثلاثة من صهاريج الماء خضراء اللون ! كانوا يتدافعون بأوعيتهم البلاستيكية وصفائحهم الفارغة حول صنابير الصهاريج ، بينما تشتبك أصوات ارتطامات تلك الأوعية بصياحات المتزاحمين تحت شمس آب « يا ناس تعلموا النظام ! » ويتزاحمون ، وتسيل المياه على الأرض هدراً في غمرة التدافع والتزاحم !

كانت أعداد أخرى من الرجال والنساء يتجمعون في حلقات متوترة غاضبة « حتى النساء يا الله ! » قال رجل ملتح ثم ارتد الى نفسه متمتماً « هذه محنة من الله تعالى » وتوصَّلَ بسرعة الى ضرورة الصمود متخيلاً أيوب وزكريا ، متذكِّراً خواء جيبه وبيته .

كانوا يقولون بأصواتهم المخدوشة المسموعة « لا حول ولا قوّة إلاّ بالله » ويبحثون في نسيج السماء المتكاثف عن مخارج وفتحات للفرج والخلاص « افرجها يا رب » ويتقربون الى الله فيهمسون « أنتَ أدرى بالحال » وجبر أطلق آخر سهم في جعبته قبل ان يتلقى في صبيحة اليوم السابع اعتذار آخر رجل في جوقة الاسماء ذات الوقع الساخن « لا فائدة يا عزيزي ، حاولت لكن . . . » . في ذلك الصباح أحس بأن القضيّة أكبر منه بكثير ، وأنه بتصديه لها انما قطع على السكان فرص التفكير في حلولهم الخاصة ، واذ عاد الى الوادي ، راعه أن يرى بؤس التشبّث بالحياة ، عبر التدافع حول صهاريج المياه ، وتغير لون وجهه حال اصطدامه بمشهد التجمعات المتوترة للسكان ، أوقف سيارته عند بوابة داره ، وقبل أن يغادرها ، لمح عبر زجاجها الأمامي هاجار بفستانها الأصفر الطويل وشعرها المتهدل فوق كتفيها ، كانت تتوسط جمعاً من النسوة ، تتحدث واياهن مستخدمة أصابعها ويديها اللتين كانتا تتحركان ، ربما من أجل تأكيد أقوالها « هذه المرأة عظيمة » قال في نفسه بينما امتدت أصابعه إلى مفتاح سيارته بآلية ، وأطفأت محركها « خسارة أن يتزوجها واحد مثل عرقي » وإذ غادر سيارته سمع صوتها فانبعث في نفسه زخم جديد أعانه على تملُّك نفسه والتحدث الى السكان الذين حاصروه بأسئلتهم واستفساراتهم « ما ظل غير سبعة أيام يا أستاذ ، والعمل ؟ »

لم يستطع جبر اخفاء يأسه وفتور حماسه على الرغم مما بثه مشهد هاجار في نفسه من زخم « صاحب الأرض لم يستجب لكل الوساطات حتى الآن ، لكننا لا زلنا نحاول معه ! » « لكن الوقت يا أستاذ ! » وكلّهم يتحدثون عن الوقت ! « ماذا أفعل للوقت ؟ » حينئذ سمع لأول مرة عبارات اليأس والتذمر التي لم

يتمكن السكان من كتمانها مدة أطول « الليلة سيقطعون الكهرباء عنا » « كيف عرفت ؟ » « سلمان قال لنا » « البارحة الماء واليوم الكهرباء ، وغدا يهدمون البيوت » « بصراحة ، أنا نويت الدفع ! » « اه ، لعنة الله عليك ! كيف تدفع ؟ » « والله يا عمي ما ظل فيها كلام ، أنا الليلة زارني سلمان ونزار ، وفهمت القصة كلّها ، بالعربي الفصيح ، اذا قطعوا الكهرباء ، أنا دافع ! » « ها ، بدأنا ننسحب ؟ » « مِثلي مثل غيري ! » .

(٣)

قبل أن يحل الظلام في الوادي ، اشترى بعض السكان شموعاً ، وبحث آخرون عن قناديلهم العتيقة المركونة في زوايا بيوتهم ، أزالوا عنها غبار السنين ، وملأوها بالكاز تحسّباً لانقطاع التيار الكهربائي .

كانوا يجربون الازرار الكهربائية بين لحظة واخرى من أجل التأكد من بقاء التيار ، غير أن تكرار عبثهم بتلك الازرار تحول الى نوع من الرغبة في بلوغ مصيبة التعتيم والتبشير بها « يا ولد ، جرب اضغط على الزر » وينط أحد الأولاد ، يضغط ، فيضاء المصباح « صبركم حتى يجيء الليل ! » « يمكن يقطعوها في الليل » ويكملون أحاديثهم ، لكن شيئاً ما في نفوسهم ، كان يدعوهم الى توقع سماع خبر انقطاع التيار من أحد الأولاد الذين حصلوا على تصاريح مفتوحة من آبائهم بالعبث في الازرار الكهربائية وتجريبها !

غابت شمس الوادي ، وطقطق نزار أصابعه بعد أن جهّز « اللوكْسْ » والمصابيح التي تعمل بالبطاريات ، سألته هادية عمّا اذا كانوا فعلاً سيقطعون الكهرباء فأجابها بتنصُّل « علمي علمك » ! ونزار لم يخبر زوجته بشيء مما دار بينه وبين سلمان أو معروف ، لأن « الذي يسلم أسراره للنساء ، كالذي يخبىء الحبر في الماء ! » هذه واحدة من مسلّماته ، لذا كان يتحرك بمنأى عن زوجته التي سألته غير مرة عن موقفه من الانذار دون أن تتلقى اجابة واحدة شافية !

غابت الشمس ، وحذّر سلمان زوجته من السماح لاولاده بالخروج من البيت ، ثم طلب من والدته النوم مبكراً ، وحينما استوضحته أبدى توقعه لانقطاع التيار الكهربائي ، لكنه كنزار ، لم يفلت واحداً من أسراره أمامها أو أمام زوجته الصامتة ، سارة !

زحف المساء الى الوادي متردداً وحائراً ، والتيار الكهربائي لم يُقطع ! أضيئت الأعمدة على جانبي الطريق ، أضيئت البيوت ، الباحات ، الشرفات ، وبدأ السكان طقوس ليلهم ، تناولوا طعام العشاء ، رشفوا اكواب الشاي ، أداروا مفاتيح تلفازاتهم ، جلس بعضهم قبالتها ، تزاور آخرون ، تلاقوا في البيوت ، تحت أعمدة الكهرباء ، تحادثوا ، قضى الصبية حاجات أهلهم من الدكاكين بتبرُّم ، انطلقوا في الطريق ، لعبوا ، تصايحوا ، نقر أحدهم على تنكة فارغة ، تجمع عدد منهم حوله ، غنى فغنوا وراءه ، انتهرهم أحد الرجال ، ابتعدوا قليلاً ، ثم عادوا للغناء ، علا صوت المؤذن من السماعتين المعدنيتين ، توجه بعض الرجال الى المسجد لأداء صلاة العشاء ، غادر عرقي بيته متوجهاً الى الفندق دون أن يكلم زوجته ، رمت سمار حذاءها بعصبية وراء قطة وجدتها في المطبخ ، ارتطم الحذاء بالباب محدثاً طرقة مقطوعة ، تسلقت القطة جدار باحة الدار بذعر فخانتها مخالبها ، سقطت على الأرض ، ركضت وقفزت الى جدار آخر ، ثم الى بيت سبلو الذي كان يتفقد حماماته البيضاء في برجها ، أقعت القطة في زاوية الدار ، أغلق سبلو البويب الشبكي على حماماته . .

وفجأة أظلم الوادي . .

تحوّل الى هوّة دامسة معزولة ! ودب الصراخ في البيوت وأصوات قرقعات الأواني المنزلية والشتائم ، تصايح الصغار في الطريق الرئيسي وفي الأزقة والبيوت ، واسْتَلّ المدخنون القداحات وعلب الثقاب من جيوبهم مستشعرين الفائدة العظيمة المتأتّية من حملهم لها !

(٤)

أظلم الوادي فارتعش بدن سبلو ، تحسَّسَ علبة الثقاب ، أشعل السراج ، ثم صعد على غير عادته الى بيت هاجار فوق بيته ! تعثّر بالدرجات المؤدية اليه ، واذ وصل ، تبين شبحها المتكىء على افريز الشرفة ، كانت تنظر بصمت الى ظلام الوادي ، اقترب منها ، تعثر بكرسي خشبي صغير ، تماسك بعد أن كاد يسقط ، وضع السراج على حافة نافذة الغرفة ، ثم وقف بصمت الى جانب هاجار . .

كان الوادي يخفق ظلمة ويصمت في أذنيه المنتصبتين على الرغم من هول الضجيج المرافق لانقطاع الكهرباء ، والماضي تكوّم أمام عيني سبلو فرأى في بيوت الجبل المقابل صخوراً مظلمة في مساحة منزوعة الهواء والضياء ! والمنعطف عاد مثقلاً بأشجار السرو المتكاثفة ، رأى كهوف الأشفار والقاع الممتد في الظلمة وبيت عثمان أبو بركة العتيق ، رأى سلاسل الحجارة حوله ، وقطيع أغنامه المسروق ، وحزن بهاج التي أطلت حينئذ فتبينها بجلاء لم يشهده منذ ليلة ارتحالها الأبدي ، رآها وهي تلوّح له بيدها حين ودعها متوجهاً الى حفل الأعالي ، سمع صياحها المذبوح فتفجر صياح الوادي في أذنيه ، ممزوجاً باستغاثات الرياح في الليالي البعيدة ، أجس جسمه متدحرجاً نحو قيعان حلمية لا وجود لها سوى في رأسه ، تدحرج ثم ارتطم ، تأوه بوهن ، فرمت هاجار رأسها على صدره الناحل « يا أبي » ! قالتها بالغجرية لأول مرة منذ أن شبّت ، فخرجت من فمها ممزوجة بالتعب والوهن ، طوق كتفيها بذراعيه فانسربت دموعها على يده ، كثلوج ذابت في دفء صيف مفاجىء ! تشمم رائحة شعرها « يا ابنتي » ! قالها بالغجرية أيضاً ، فالتصقت به ، مسح بكفه دموعها ، وكانت بيوت الوادي تضاء تباعاً بالشموع والسرج والقناديل العتيقة ، لكن بلا بريق ، كان الضجيج يخفت كلما أضيء بيت جديد ، كأنما الصياح أبداً وليد الظلام . .

والشموع والسرج والقناديل جمعت ما فرقته الكهرباء ، فازداد اقتراب الناس من بعضهم ، لَفّهم احساس عارم بالضعف والبؤس ، حتى أولئك الذين فرّقتهم السنين ، وعملت العداوة بينهم ، تناسوا أحقادهم ، والتفوا حول تلك الأضواء الخافتة، متجاهلين بغضهم لبعضهم !

تماسك رجال ، تحدث آخرون في الظلام ، تحرك سلمان ونزار في ظلمة الوادي ، زارا بضعة بيوت ، اقتتل كياز وزوجته التي أعادت الى ذهنه فكرة التسوّل ، بدأت وصلة عرقي الغنائية في صالة الفندق ، أضيئت سيارة جبر ، تحركت الى حيث التقاطع الشرقي ، بدّدَت ظلمة الطريق لثوان ، وإذ إبتعدت ، لم ير السكان منها سوى أضوائها الخلفية الحمراء الحمراء .

(٥)

تميّزت الصبيحة الثامنة بسخط كونيّ غريب ! فقد غطت السماء طبقة مصفرّة من غيوم مغبرة ، وثارت زوابع ملأى بسموم الأتربة ، واختفت الشمس ، تحولت الى كيان محايد لا معنى له ، فانحدرت الكآبة الى البيوت المقرفصة على الآكام الصخريّة وفي القاع ، وضاق الوادي ، ضاقت عيون السكان وصدورهم ، الى حد أنهم تساءلوا عما اذا كان ثمة علاقة بين مفاجأة الزوابع ، وبين ما يجري في الوادي !

كان الرجال يرودون الطريق الرئيسي كالحيارى ، يدسون أيديهم في جيوبهم ، يتلفّتون الى بيوت الوادي ، أزقته ، دكاكينه ، أطفاله ، وكل ما تراه عيونهم من معالمة المستغيثة ، ويتوقفون كلما اجتاحتهم زوبعة ، يحتمون ببعضهم ريثما تبتعد ، ثم يتابعون سيرهم كأنما نحو غاية مبهمة ! ربما بحثوا عن مخارج وثغرات في أطواق الحصار المريع للحياة من حولهم ، ربما بحث كل واحد منهم عن حلوله الخاصة بمنأى عن الآخرين الذين يشاركونه السير في طريق الوادي ، وربما حملتهم الزوابع الى عوالم اخرى مختلفة .

كانت الزوابع تشتد ، فيتطير السكان « يا لطيف ، اللهم استر ، اللهم تمم هذا النهار على خير » لكن ذلك النهار من عمر الوادي لم يمض مثلما أراد السكان ، بدليل أن الزوابع حملت فيما حملته الى الوادي ، سيارة جيب رمادية توقفت أمام بيت سلمان ، وحينما فُتِحتْ أبوابها تبين أن تلك السيارة على صغرها ، كانت تضم أحد عشر رجلاً تقافزوا منها تباعاً ثم تحلقوا الى جانبها : تحادثوا قليلاً ، أشار أحدهم بسبابته الى بيت سلمان ثم نزار ، فتبعته عيونهم ، واذ سار نحوهما تبعته أرجلهم .

كانوا يتأبطون دفاترهم ذات الأغلفة المقواة ، وبكرات أمتارهم الطويلة ، وأثقالهم المعدنية الصغيرة ، وخيطانهم ، وكل أشيائهم ، وحينما توزعوا بين البيتين تسلقوا سطحيهما بأدواتهم فأثاروا فضول السكان الذين تلملموا مستطلعين ، واذ أدركوا بأن اولئك الرجال هم المَسَّاحون المفوضون بكيل مساحات البيوت انتشر الذعر في نفوسهم ، وأحسوا بأن ذلك الحضور ليس سوى تأكيد لما قاله سلمان ونزار أثناء زياراتهما المتكررة لبيوتهم ، فقد قالا بأن « المسّاحين سيحضرون الى البيوت التي يوافق أصحابها على الدفع » وها هم يحضرون ! قالا بأنهم « سيكيلون مساحات البيوت » وها قد بدأوا يكيلون ! قالا بأن « الكهرباء ستعاد الى البيوت في اليوم الذي يتم فيه الدفع » واليوم سيدفع نزار ، وسلمان ، وكل الرجال من آل « قتال الضبع » ! « ما يقوله نزار وسلمان هو الصحيح اذن ، هو الذي يتم في نهاية الأمر » ! كان المسّاحون يثبتون أطراف أمتارهم عند زوايا السطوح ، ويركعون على ركبهم خشية أن تطيح بهم زوابع الوادي ، ثم يقيسون أطوال الاضلاع ، والفراغات الفاصلة بين البيوت ، والجدران المتعرجة والمنكسرة والاسافين والتواءات الحيطان وسماكتها ، يقيسون كل شيء ، وبطريقة عجيبة يستخرجون المساحات الصافية ، ثم يسجّلون النتائج في دفاترهم ! أما المحاسب المربوع ، ذو النظارتين السميكتين ، والبدلة الزرقاء ، فكان يحمل اضافة الى دفتره البني السميك ، رزمة من الاستمارات المطبوعة تتضمن البنود الخاصة باسم

صاحب البيت ، مهنته ، رقم جواز سفره ، مساحة بيته بالأمتار المربعة ، والمبلغ الاجمالي المطلوب منه !

كان يسجل في دفتره النتائج التي يتوصل المساحون اليها ثم يملأ نسخة من استماراته بخط يده بعد أن يستل من جيبه آلة حاسبة صغيرة تعينه على احتساب المبالغ المطلوبة . لقد التف الرجال والصبية حول بيوت آل قتال الضبع حال انتقال المساحين اليها ، وتتبعوا بعيونهم المحمرة الملأى بأتربة الزوابع ما يفعله أولئك الشبان والرجال أولو الملابس المرتبة ! كانوا ينظرون الى آل قتال الضبع بفضول ممزوج بالحسد وربما الحقد ، ذلك أن موافقتهم على الدفع تعني بداية التفسخ العملي في لحمة التماسك الممتد على مدار الأيام المنقضية من مدة الانذار ! والزوابع عسفت بالوادي وبأوراق المساحين وخصلات شعرهم وملابسهم التي فقدت هيبة اتساقها . كانوا يفركون عيونهم بين الفينة والأخرى ، بينما لا تفارق وجوههم ملامح الامتعاض والتقبُّض ! ولقد قال احدهم للمحاسب المربوع ذي النظارتين بعد كيله لواحد من بيوت آل قتال الضبع ، بأن المساحة الكلية لذلك البيت بلغت اثنين وتسعين متراً وستين سنتمتراً مربعاً ، وعلى الفور وضع المحاسب سيجارته في فمه وسجل الرقم في دفتره ، ثم أجرى بآلته الصغيرة عملية حسابية سريعة ، خرج منها بنتيجة أن المبلغ المطلوب من صاحب ذلك البيت هو ألف وثمانماية واثنان وخمسون ديناراً « أين صاحب البيت ؟ » سأل فاتجهت الأنظار الى رجل رفيع ممطوط القامة ذي يدين ناحلتين متقشرتين ، اقترب الرجل من المحاسب فطلب منه جواز سفره ، وحينما أحضره من بيته ، سجل في دفتره الكثير من المعلومات ، ثم ملأ الاستمارة وسلمه اياها قائلاً « اذهب الآن الى مكتب المحامي ، ادفع المبلغ لكي نعيد الكهرباء والماء الى بيتك » وبين الفرح والحرج ، قال الرجل الممطوط القامة بصوته المتهدج « أهذا كل المطلوب مني ؟ » فرد المحاسب دون أن ينزع سيجارته من فمه « هذا هو المطلوب الآن ، وعند التطويب ستدفع الرسوم الخاصة بالتسجيل والفرز والتنظيم » !

وقرن السكان المحتشدون مساحات بيوتهم بمساحة بيت ذلك الرجل « مساحة داري اقل من مساحة داره بكثير ! » « أنا داري تقريباً مثل داره » « أين داري وأين داره » واشتهر ذلك الرجل بعد أن كان مغموراً ، وصار بيته مقياساً يقارنون به مساحات بيوتهم من أجل تقدير المبالغ المطلوبة منهم .

(٦)

في المساء هدأت الزوابع ، انقشعت الغيوم المصفرة ، فتوالدت نجوم آب في سماء الوادي ، غير أن السكان فوجئوا ببريق انبعث على حين غرة من بيتي سلمان ونزار ، ثم من بيوت آل قتال الضبع كلها ! وتصايحوا ، صفق الأطفال وتراكضوا ، وضع الفتيان أصابعهم في أفواههم وأطلقوا صفيراً حاداً ، وتجمع الكثيرون كالفراشات حول البيوت التي أضيئت ، بينما خُطِفَتْ أبصار الكثيرين من الناس ، وبهرهم مشهد التجمع المضيء لبيوت آل قتال الضبع التي طغت على الأضواء الشاحبة في البيوت المجاورة لها ، وبدت مثل شعلة من الوهج في المساحات المظلمة من الجبل الجنوبي ، أما بيتا سلمان ونزار فأضيئت كل مصابيحهما الكهربائية ، وامتد تأثيرها الى البيوت المجاورة لهما ، لكن تلك الأضواء بدت شاذة متواطئة على الرغم من بريقها !

في تلك الليلة تجشأ الوادي من أحشاء بيوته أحاديث ملأى بالامنيات والاحتجاجات ، تبادل السكان الزيارات والاراء ، استقبل سلمان الكثيرين منهم في بيته ، وأكّد نزار معرفته بالحقائق الأبعد من الانذار ! الحقائق الخفية المدمرة ، والنوايا الخبيثة التي يكنّها معروف للوادي .

بعض الناس آنئذ ، بلغوا حافة الاقتناع بضرورة الدفع ، وكانوا بحاجة الى من يستخرج تلك القناعات الخفية الخجولة من أعماقهم ، ويحيلها الى قرارات معلنة ! لكن الناس أيضاً ذكروا في جلساتهم جبر أبو بركة الذي لم يعد له وجود في الوادي ! قالوا بأنه شاب غِرٌّ تنقصه التجربة في الحياة ! قالوا بأنه

اختفى قهراً لأنه لم يتمكن من مساعدة السكان ، قالوا أشياء كثيرة عن جبر ، وغزا الغم قلب أم سلمان فحثّتْ ابنها الأكبر على البحث عن شقيقه ، لكنه طمأنها « يا امي قلت لك انه في الفندق عند صاحبه سعد راضي ، يأكل ويشرب ويسهر وينام ، وماذا ينقصه ؟ » « صحيح يا سلمان ، لكن متى يرجع ؟ » « أتركيه الآن يستريح ، وعندما تهدأ الأمور أنا الذي سأعيده لك » ! كان سلمان يريد الانتهاء من مهمته بأي شكل ، اما جبر فأحس بخذلان فظيع لم يعهده في حياته ، وشحب وجهه على الرغم من رغد عيشه في الفندق ، بل انه أصيب بكآبة وضيق شديدين ، وأحس بوجود كتلة ثقيلة في صدره ، كتلة لم يستطع التخلص منها على الرغم من كل أصناف الكحول التي مرت من حلقه أثناء مجالساته لصديقه سعد ، كما لم يتمكن عرقي بأغنياته الصاخبة وببريق سهراته ، من التخفيف عن جبر الذي أحس بعداء غريب لهذه الدنيا !

كان يعيش عزلة قاتمة ، ويجلس وحيداً على الرغم مما تعج به الصالة من ساهرين وساهرات ، أما عرقي فلم يكن سوى يدين وشفتين متحركتين صامتتين في مساحات العزلة التي يعيشها جبر !

(٧)

حينما هدأ الليل وأطفئت أضواء البيوت ، عاد الوادي الى ظلمته ، وتثاءب كياز ثم همّ بمغادرة بيت سبلو ، لكن ما سمعه لحظتئذ ، أدى الى جمود وجهه وتحفُّز أطرافه ! فقد تردد في ظلام الوادي زعيق بومة مرعبة ! ودق قلب سبلو ، صمتت هاجار ، صمتوا جميعا ، وأصغوا ! كان الزعيق يزحف نحوهم ، يقترب ، يلجم السنتهم وحواسهم ، فلا يبقي لهم سوى تلك الحاسة التي انشحذت حينئذ : السمع ! والزعيق اقترب ممزوجاً بلغط رجال أفاقوا من نومهم ، رجال كثيرون سلطوا شعاعات مصابيحهم اليدوية بطيش

نحو الأعمدة والسطوح : « من هنا الزعيق » « لا ، على العمود الثاني » « لا ، فوق سطح دار كياز » .

كانت البومة تتنقّل من مكان الى آخر ، كأنما تريد ايقاظ كل السكان ، وكانوا يخرجون من بيوتهم بمصابيحهم اليدوية وعصيهم ، مستذكرين الحكايات المشؤومة التي رواها لهم آباؤهم وأجدادهم عن البوم ، وعلى الرغم من أنهم أصابوا البومة بأضواء مصابيحهم ، إلا أنهم لم يجرؤوا على صعود أي من السطوح التي اعتلتها ! لقد رأوا عينيها الواسعتين ، وأذنيها المنتصبتين ، وسمعوا رفيف جناحيها المرعبين في حلكة الليل ، لكنهم لم يقتربوا منها ! وكانت النسوة بنداءاتهن المتكررة على أزواجهن وأبنائهن ، يسهمن في تضخيم رعبهم ! كنّ يحذّرنهم بأصواتهن المذعورة ، فيوقظن في أعماقهم خرافات الشؤم العتيقة التي عادت تحتلهم من جديد ! لأمر ما أطفأ الرجال مصابيحهم التي مسّت بحزم شعاعاتها تلك البومة ! ولأمر ما أيضاً ، لم يتمكنوا من اقتلاع ذلك الرعب الذي بثه زعيقها في أعماقهم ! والبومة أصيبت كالسكان بالذعر ! فظلّت تتنقّل من سطح لآخر ، ومن عمود الى آخر دون أن تستقر في مكان ، ودون أن تكفّ عن الزعيق ! وحينما سقطت على الأرض منهكة ، تهارب الرجال والنساء ! كانت مثل قذيفة سقطت في قاع الوادي دون أن تنفجر ، لكن احتمالات انفجارها ظلت قائمة ، لذا تحاذروا منها !

سبلو هو الذي اقترب من البومة ! هو الذي أضاء بقنديله الشاحب رقعة سقوط القذيفة المشؤومة ! حينئذ جثت البومة بذعر على الأرض ، فتقدم نحوها بتصميم واصرار ، غير أن الناس لم يكفوا عن مناداته بأصواتهم المتهدجة « أقتلها يا سبلو » « هل تريد عصا يا سبلو ؟ » « بالحجر ، بالحجر أحسن » « دق راسها » وسبلو لم يلتفت اليهم ، بل وضع قنديله على الأرض ، ثم قبض عليها بكلتا يديه !

كانت كبيرة بحجم دجاجة ، وكانت عيناها شاسعتين ، لكنهما مذعورتان ! في تلك اللحظة تقدمت هاجار من والدها بطريقة امرأة تريد القيام بعمل يومي

اعتادته ! ركعت الى جانبه ، وفضّت تحت ضوء القنديل صرة قماشية صغيرة ملأى بمسحوق الكحل ، ثم شرعت تكحّل عيني البومة التي استسلمت لها ! كان ذلك الاستسلام مذهلاً ومرعباً في آن ! والناس قالوا لها « هذا جنون يا هاجار » ! وصاحت احدى عجائز الغجر « كفانا الله شرك يا ابنة بهاج » ! ورددت أخرى « أقتليها وخلصينا منها » وحينما أكملت تكحيل عينيها اتسعتا ، فمسدت رأسها بأصابعها ، ثم نفخت في القنديل فانطفأ ، فاندفع الظلام ، فأطلق سبلو البومة من يده لتطير مبتعدة عن الوادي دونما زعيق !

(٨)

في تلك الليلة أيضاً ، أفاق أصحاب أحد البيوت على رجل تسلل الى بيتهم ، وعبث في خزانتهم ! وحينما دب الصياح في ذلك البيت ، فرّ اللص دون أن يتخلى عن الاسوارة الذهبية التي عثر عليها في تلك الخزانة ، وأفاق الكثيرون من السكان « اللهم تمّم ليلتنا بسلام » وخرجوا بعصيهم بحثاً عن اللص الذي اختفى ! وأطلق سلمان بضع رصاصات في الهواء ارهاباً للّص كما قال ، غير ان تلك الرصاصات أيقظت بقية السكان ، وتوصل كل منهم الى ضرورة القبض على اللص حتى ولو قلبوا الوادي بحثاً عنه ! وقالوا بأنه واحد من أصدقاء أو أقارب صاحب البيت المسروق ، وإلا « كيف عرف بأن الاسوارة موجودة في الخزانة ؟ كيف عرف أين هي بالضبط ؟ »

استطاع اللص الاندماج بين الرجال متظاهراً البحث عن « اللص » ! لكن الاسوارة كانت برزت من تحت قماش جيب بنطاله الضيّق ، فبدت مستديرة فاضحة ، واذ تنبه الى ذلك البروز أصابه الذعر ، فاستدار متلفّتاً حوله ، ثم اخرجها من جيبه ليخبئها تحت قميصه ، وإذ سقطت على يده حزمة من شعاع مصباح قريب ، ارتجفت تلك اليد ، تراجعت دون أن تتمكن من اكمال مهمتها ، فتراجع اللص مستشعراً خطر افتضاح أمره ، ودون أن يفكر استدار

هارباً ، فصاح صاحب المصباح ولحقه ، فلحقه آخر وآخر . . وتصايحوا ، كلهم لحقوا اللص المذعور ، وحينما أمسكوا به ، انهالوا عليه ضرباً بعصيهم ! ضربوه بقسوة وحقد ، كأنما أرادوا بذلك تفريغ سموم غضبهم وضيقهم بما آلت اليه احوالهم ! لم يكن اللص سوى بدن أو كيان وجد الرجال فيه الوسيلة لنضح ما لا يستطيعون نضحه ، وهوت أعقاب عصيهم على رأسه ووجهه وكل جزء من جسمه الناحل الذي هوى على الأرض مضرجاً بدمائه !

وعلى عكس ما توقع الناس ، فقد تبين أن ذلك الرجل ـ اللص ـ لم يكن من اصدقاء أو أقارب صاحب البيت المسروق ، انما كان واحداً من سكان المنعطف ، غير أن ما أثار ذهولهم ، أنه كان معروفا في الوادي بصدقه واستقامته ، بل ان بعضهم أحسوا بالفجيعة حينما اقتادوه الى مخفر الشرطة بدناً ممزقاً ، وروحاً محطمة .

(٩)

في الصبيحة التالية لم يجد السكان فرصة للتحدث في أمر البومة أو اللص ، فقد فوجئوا بمشهد الجرافات التي عسكرت عند مدخل الوادي منذ الفجر !

عشر جرافات صفراء اللون مغبرة عسكرت بجنازيرها الحديدية القاسية عند مدخل الوادي ، فبدت للسكان مثل كائنات وحشية متحفزة : لكل واحدة منها عينان شرستان ، وفم متحرك هائل ، وأنف عريض لاهب ، وقائمتان ساحقتان ! أما سائقوها فعابسو الوجوه ، متحفزون ، متيقظو العيون والحواس .

يعرف السكان الجرافات ، بل ان بعضهم استخدموها لتسوية الأرض تحت بيوتهم حين بنائها ، لكن هذه الجرافات مختلفة ! إنها قاسية ، وملأى بمعاني الوعيد والتهديد ! وحتى أولئك الرجال الذين يعتلونها فإن في عيونهم نظرات

متوثبة متوعدة ، وفي صمتهم سكون الأجسام الغريبة الموقوتة ! هكذا أحس السكان الذين اكتفوا بالاحتشاد أمام الجرافات دون لمسها « ألم أقل لكم بأن معروف أعْنَد من الصخر ؟ ألم أقل بأنه لا يرحم ؟ » كان سلمان يقول لهم ، وكانت الخيبة ترتسم على وجوههم ، فيرددون في نفوسهم « أهكذا ؟ الى هذا الحد ؟ » والوادي عج بالاشاعات في ذلك الصباح ، فقيل بأن معروف لا يريد الانتظار حتى اليوم الخامس عشر ، قيل بأنه يريد الأرض فعلاً ، وبأنه يتمنى أن لا يدفع السكان له ، لكي يتمكن من تنفيذ ما يدور في ذهنه ! هذا ما تناقله السكان الذين تلملموا، وتفرقوا ، وتجمعوا ، بينما عابثت نفوسهم أفكار لم تخطر لهم من قبل ! أفكار أنبتتها بذور رعبهم وعجزهم أمام التطورات السريعة المذهلة التي عصفت بالوادي وبهم ، وانقسموا خلال اليومين التاليين بين مؤيد لفكرة الدفع ، وبين رافض لها !

الذين اقتنعوا بضرورة الدفع لجأوا الى البنوك ، وتقدموا بطلبات للحصول على القروض ، غير أن البنوك لم تستجب للكثيرين منهم بسبب انعدام الضمانات اللازمة للإقراض ، تلك الضمانات التي لا يمكن التنازل عن أي منها !

كانوا يشرحون ظروفهم لموظفي البنوك من وراء الحواجز الرخامية والخشبية ، ويستعطفونهم مستخدمين عبارات كفيلة بتليين أكثر الصخور صلابة ، لكن ردود الموظفين واعتذاراتهم كانت تنطلق بآلية من أشرطة التعليمات المسجلة في أذهانهم وأوراقهم !

أما تلك المحاولات التي أعلنت عنها الصحف حول اتصال مندوبيها بمؤسسات الاقراض من أجل المساعدة في تقسيط اثمان الأرض ، فقد انتهت جميعها بالفشل ! ذلك أن المؤسسات اشترطت أن تكون الأرض مفروزة منظمة ، وأن يتم تقديم مخططات مواقع ورسومات هندسية ثم ضمانات وكفلاء . . .

لجأ بعض السكان الى أقاربهم وأصدقائهم ، وكانوا يغادرون بيوتهم منذ

الصباح خفية ، ترافقهم أدعية زوجاتهم وامهاتهم ، كانوا يذهبون الى أقاربهم وأصدقائهم في الأحياء الأخرى من المدينة وفي المدن الأخرى ، ينشدون عونهم بعد ان يشرحوا لهم ما حلّ بهم مستشهدين بما كتبته الصحف حول قضيتهم « الحياة صعبة » يقولون ، ويتألمون « الله عالم بحالنا » لكنهم كانوا يتلقون الكثير من عبارات التأنيب والتشفّي « ألم نقل لكم بأن أصحاب الأرض لا بد ان يطالبوا بأرضهم ؟ » فيردون « صحيح ، صحيح » « ألم نحذركم ؟ » « صحيح » « لو كان عندكم ذرة تفكير لما اقمتم في ذلك الوادي ! » وحينما تزداد تأنيبات الأقارب يردون « يا عمي لا ترشوا على الموت سكّراً ، وهل كنا نملك المال لنشتري ارضاً في ذلك الوقت ؟ »

بعضهم عادوا الى بيوتهم ظافرين مفتخرين بأقاربهم الذين أقرضوهم فأنقذوهم ، وحمدوا الله الذي وهبهم أولئك الأقارب المحبين الذين هم « العزوة الحقيقية في هذا الزمان الصعب ! » كانوا يطلقون في غمرة تحمسهم الكثير من العبارات التي لا يقولونها إلا في مثل تلك المناسبات ، فإذا استدانوا من أقاربهم لآبائهم قالوا بأن « الدم لا يصير ماءً » ! وهنا يتعزّز نفوذ الآباء بين أبنائهم وزوجاتهم ، واذا استدانوا من أخوالهم ، ازداد نفوذ الأمهات اللائي يقلن بأن « الأخوال أحنّ من الأعمام » ! وأن « ثلثي الولد لخاله لا لعمه » ! أما اذا استدانوا من أصدقائهم فإن « الصديق هو الذي ينفع في وقت الضيق » ويصير الصديق خير ألف مرة من القريب الذي خذلهم « ورب أخ لك لم تلده أمك » !

(١٠)

الذين أصابهم العناد أبوا على أنفسهم اللجوء الى أقاربهم أو معارفهم من أجل استدانة أثمان الأرض منهم ، وقالوا بأنهم لن يدفعوا ولن يغادروا بيوتهم ! ولوّحوا « سنرى ان كان باستطاعته اخراجنا من بيوتنا » !

وانضم الى أصحاب هذا الرأي ، أولئك الذين تستّروا وراء العناد بعد أن لجأوا سراً الى أقاربهم وأصدقائهم طالبين عونهم ، وحينما خذلوهم ، كظموا آلامهم وتظاهروا بالعناد قائلين بأن « القضية ليست قضية نقـود ، انما هي قضية ابتزاز مرفوضة ! » لذا « لن ندفع وليفعل صاحب الأرض ما يريد » ! تبعهم أيضاً ، السكان الذين أفلتوا من كوابح اسرارهم الاجتماعية واعلنوا صراحة بأنهم طرقوا ـ دون جدوى ـ كل الأبواب من أجل الحصول على النقود لهذا فإنهم ايضاً ، لن يدفعوا « والذي يكتبه الله هو الذي سيصير في النهاية » .

لقد تقارب كل أولئك الذين اتفقوا على عدم الدفع ، وشكلوا معاً كتلة واحدة متماسكة ، وصاروا يدورون على البيوت من اجل اقناع اصحابها بالانضمام اليهم ، غير أنهم فوجئوا بقناعات جديدة تولدت عند اولئك السكان ، كما تلقـوا بمزيـد من المرارة والأسى ، ردودهم التي لم تكن سـوى نقل حـرفي لعبارات سلمان ونزار !

عبثاً كانوا يحاولون تغيير الآراء التي تكونت بفعل زيارات ذينك الرجلين الى بيوتهم ، وبفعل مشهد الجرافات التي ظلت تعسكر عند مدخل الوادي مثل هواجس لا تني تهدد استقرارهم وتلح عليهم بضرورة الدفع وإلا . . !

وازدادت انقسامات السكـان وتعمّقت ، وصار بعضهم يتجنب الاحتكـاك بالبعض الآخر ، وتحوّل رأي كل واحد منهم في قضية الدفع ، الى موقف ثابت لا يجوز التنازل عنه ! وصار لكل موقف مبرراته وركائزه ، بل ان الرافضين من السكان صاروا يرددون في أقوالهم عبارة « القضية هي قضية مبدأ » في حين أن الموافقين رددوا باستمرار عبارة « الكف لا تلاطم المخرز » . الغجر الذين قرروا الدفع ، باعوا لسلمان مسجلاتهم وتلفازاتهم والكثير مما يمكن بيعه ، لكنهم تمنوا بعدها ، لو انهم أبقوا تلك الأجهزة في بيوتهم ، ذلك أن سلمان ابتاعها منهم بأبخس الأثمان ، وحينما وجدوا بأن ما تقاضوه منه لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع المبالغ المطلوبة منهم ، اطلقوا نساءهم وأبناءهم في شوارع المدينة التي أفاقت في الصبيحة الثانية عشرة على جحافل من النمل البشري

الذي غزا شوارعها المكتظة ! هكذا أفاقت المدينة من سبات ليلها ، هكذا تنفست ، هكذا أصبحت : أفقاً كالحاً ممتداً ، شمساً تكهر بشراسة فوق البيوت والتلال الشرقية ، سيارات تتحاذى بلا انتظام ، أبواق لا تكف عن التزمير ، شوارع تئن تحت وقع أقدام لأناس مسرعين ، ولموظفين لا يرون أثناء سيرهم سوى اشباح مدرائهم ورؤسائهم ، وأرصفة تُشمّر عن سيقان فتيات جميلات عاريات إلا من ستور مواطن البلاء الانساني !

هكذا أفاقت المدينة : نمل بشري لا يكف عن احتلال المفترقات والأرصفة وابواب الدكاكين والمتاجر ، نمل يسير على قدمين وعينين ، يتسرب من شقوق المدينة ، يلاحق المارة أنّى ذهبوا ، يبيع الصحف ، وأوراق اليانصيب ، والعلكة ، والتبغ ، ويمسح السيارات المتوقفة ، ويمد يده متسولاً ، فيثير الضيق في صدور المارة ، حتى ان احد كتاب الصحف أثار في صحيفة اليوم التالي ، ظاهرة الانفجار المفاجيء للمتسولين وفتيان التقاطعات ، وطالب الجهات المختصة بالتدخل من اجل منعهم من تلطيخ وجه المدينة المشرق !

بعض الغجر حزموا امتعتهم استعداداً للخروج من الوادي « حياة الارتحال أفضل بمليون مرة من حياة الاستقرار » قالوا وفوجيء كياز الغجري باختفاء زوجته سمار في تلك الصبيحة ، وبحث عنها في بيت هاجار ، وبيت سبلو ، بحث في كل بيوت الغجر ، وحين لم يجدها أيقن بأنها خرجت للتسول ! والهدير دبّ في رأسه وصدره ، وغادر الوادي باحثاً عنها ، بحث مثل مجنون في الشوارع والأرصفة ومواقف السيارات ، لم يُبقِ مكاناً الا بحث فيه ، وحينما عاد الى بيته عند الغروب ، وجدها ممددة على فراشها ! كانت تئن تعباً ، وكان وجهها شاحباً مغبراً ، وعيناها حاسرتين ، غير ان هذا لم يخفف من غضب كياز وغيظه ، وبدلاً من ان يهون عليها قسوة يومها ، صاح بها مستعيداً لحظات قوته الجارفة « أهكذا يا خالعة ؟ » عندها تسلّلت يدها تحت وسادتها ، تناولت صرة الدنانير التي جمعتها ، ثم مدت يدها لتناوله اياها فصفعها ، واتجه الى باحة داره ، أمسك بخشبة مركونة في احدى الزوايا ، عاد الى سمار ،

حاولت بناته الامساك به ، ابعدهن بقسوة ، ثم هوى بالخشبة على رأسها !
حينئذ ، أحس بأن كل آلام شوطه مع الحياة هوت دفعة واحدة ، لكن أنفاس سمار سكنت لحظتئذ أيضاً ! لم تصرخ ، لم تستغث ، بل ظلت ممدة على فراشها بعينين مفتوحتين ، مذعورتين أو مندهشتين ، وتصايحت بناتها ، تجرأن على دفعه بعيداً عنها ، التصقن بها ، هززنها ، لكن هيهات ! فسمار كانت تخلّت عن حياتها تلك ، الى الابد ! وكياز ألقى بخشبته مقترباً من جثة زوجته ، حاول التأكد من صحة الاحتمال الصاعق الذي راوده آنئذ ، فدق قلبه بعنف ، اصفر وجهه ، انفتحت عيناه عن آخرهما ، ثم تفجر صياحه وعويله ، وبلّلت دموعه خديه وشعر ذقنه البارز الأشيب ، والرجال التموا حوله ، أمسكوا بذراعيه فاستسلم لهم ، اقتادوه الى خارج البيت ، فأدار وجهه نحو جثة سمار ، نظر اليها بعينين مبلولتين حمراوين ، فبدا وجهه كوجه مجنون !
في ذلك المساء ، سجن كياز الغجري . . .

(١١)

كان ضوء الكهرباء لا يحمل سوى معنى واحد : الدفع ! والسكان تناسلوا واحداً واحداً ، تسربوا كالنمل ، دفعوا غير عابئين باحساسهم غير المؤقت بالتواطؤ ! كلما أضيء بيت جديد ، اشتعل اصحاب البيوت المطفأة غيظاً وغضباً « اذا لم تستح فافعل ما تشاء » كانوا يقولون ، ويواسون بعضهم بالكثير من العبارات التي توالدت في جلساتهم ، فكرّروها مراراً ، بل انهم فلسفوا موقفهم بشكل ما ، وقالوا بأن الحياة كلها لا تستحق كل هذا العناء والتفكير ! قالوا أشياء كثيرة ، وتضاحكوا ، وقلبوا أيديهم بحركات توحي باللامبالاة ، لكنهم أيضاً تساءلوا كل في ذاته : الى متى ؟
كان معروف يدفع لسلمان ونزار عمولتهما كلما استجاب له واحد من السكان

« ثلاثة بالمئة حسبما اتفقنا » يقول فيردان « كثّر الله من أمثالك يا سيد معروف ، هكذا يكون التعامل الصادق » كان يدفع لهما بنفس راضية ، فقد تلمّس الدور الكبير الذي قاما به من اجل تحقيق انتصاره المزعوم ، ذلك الانتصار الذي هلّل له أمام أصدقائه وأعدائه ، وأمام نفسه التي ضاقت بتدخلات الآخرين ، وباحتمالات الفشل « يجب أن يعرفوا من أنا » ! كان يردد في ذاته المزهوة بانجاز نجاحه في ارغام السكان على الدفع ، بل لقد بلغ به الأمر ان هاتف واحداً من أولئك الذين حاولوا ثنيه عن مطالبته بأراضي الوادي ، وقال له « أرأيت ؟ ها هم يدفعون ! » وكانوا يدفعون !

كان الرجال يتفقون فيما بينهم على الدفع ، يخلقون الكثير من المبررات ، ويرددون الحكم والأمثال التي تساعدهم على التغلب على احساسهم بالتواطؤ والانصياع « الكف لا تلاطم المخرز » « آل الخلق كلهم دفعوا » « وآل خيط الذبان ، واللزق ، وجبيلان » « اليوم راح الرجال من عائلة الفقع ليدفعوا ، واخذوا معهم اثنين من آل الطش » « السمكري قال بأنه سيدفع ، وحسان الغجري ، والنجار ، واللحام ، وناصي الكناس » .

كان الآخرون يتلقفون الأخبار الجديدة ، ثم يشيعونها بينهم ، لكن تلك الأخبار أربكتهم ، ودعتهم الى اعادة تجميع انفسهم بعد ان انثنى الكثيرون منهم ووافقوا على الدفع « يا لهم من جبناء » ! قالوا وتلملموا من جديد ، لكنهم فوجئوا بقلة عددهم ، وتملكتهم أحاسيس العزلة والوحدة « لم يبق غيرنا ؟ ! » كانوا يتحسرون ، ويشتمون أولئك المكابرين الذين « أشبعونا كلاماً وعند الجد انسحبوا ودفعوا » !

كان احساس الناس بالاستقرار يطغى على كل ما عداه ، بما في ذلك تلك المكابرات والتهديدات التي بدرت عنهم في بدايات ظهور التبليغ ، وتحولت الكهرباء من جديد الى مقياس لليسر او للعَوَزْ ! فالبيوت المضاءة هي التي تخص القادرين على الدفع ، لا يهم كيف تم الدفع ؟ أو من أين ؟ المهم أنهم تدبروا أمورهم ! المهم أن الكهرباء أعيدت الى بيوتهم والمياه ! أما تلك البيوت

المطفأة فهي لأناس « فقراء ، مساكين ، صغار العقول على الرغم من زعمهم بأن المسألة هي مسألة مبدأ ! أيّ مبدأ هذا الذي يتحدثون عنه ؟ كيف يتحدثون عن المبادىء والجرافات تقف عند أول الوادي ؟ يا لهم من أغبياء ! ألم يفهموا بعد أن الكف لا تلاطم المخرز ؟ ! »

(١٢)

بعد ان تفسخت الصفوف ، فكر نزار في كيفية الإجهاز على تلك القلة من الرجال المتمسكين برفضهم ، فأشاع بين السكان معلومة مفادها أنه لن يتم تسجيل الأرض بأسمائهم طالما أن هنالك أناساً لَمْ يدفعوا بعد ، لأن الوادي قطعة واحدة لا يجوز تسجيلها إلا دفعة واحدة ، هذه بديهية تحكمها اعتبارات عديدة أهمها ذلك التداخل بين البيوت ، وانعدام التنظيم والفرز من الأساس ! تسجيل الأرض بأسماء السكان مرهون بدفع ثمنها كاملاً ، هكذا يقول معروف المعروف ، وهكذا يقول المنطق ! ثم ما مبررات الموقف الأناني الطائش لأولئك الذين لا يريدون الدفع ؟ ألا يعلمون أنهم تسبّبوا بطيشهم في تأخير اجراءات التسجيل ؟ « طيب والعمل يا نزار ؟ » سألوه فأجابهم بخبث « اقنعوهم ، دبّروهم » !

لم يبق من مدة الانذار سوى ثلاثة أيام ، والرجال توافدوا الى بيوت أولئك الذين لم يدفعوا ، حاولوا اقناعهم بكل ما أوتوا من وسائل الرجاء والالتفاف والترهيب ! كانوا يقولون لهم « يا جماعة لا تعطّلونا ، ما الذي تريدونه بالضبط ؟ وهل تظنون أنكم أحسن منا ؟ » وحينما أصروا على كلمتهم ازداد غيظ السكان ونفورهم منهم ، بل اخذوا يتحرشون بهم ، ويسمعونهم عبارات الزجر والتحقير ، كما نشب قتال بين عائلتي اللزق والبس نتيجة تلك التحرشات ، وانضم آل جبيلان الى آل اللزق في ذلك القتال ، وانهالوا بعصيهم على الرجال والنساء والأطفال من آل البس « طالما أنهم يرفضون

الدفع ، فعليهم أن يتحملوا » « يجب ان يكونوا عبرة لأولئك المتصلبين ! » وسالت الدماء ، وتراجع آل البس امام جحافل الرجال الذين اقتحموا بيوتهم ، تراجعوا واستجاروا بسلمان ! اندفعوا عبر بوابة داره ، فهب لحمايتهم بمسدسه « هيا اذهبوا ، كل آل البس في حمايتي » ! قال للرجال الذين التموا حول بيته مطالبين بأولئك الذين اجارهم ، حينئذ تفرق الجمع من حول بيته ، انسحبوا بهدوء شف عن وجود اتفاق مسبق فيما بينهم ! هذا ما أحس به السكان الذين احتشدوا أيضاً من أجل مشاهدة ما كان سيحدث ! لكن الرجال من آل البس ، في الصبيحة التالية ، خرجوا من بيت سلمان معلنين موافقتهم على الدفع و« مئة مرة : جبان ولا : الله يرحمه » !

(١٣)

لم يكن الوادي هادئاً على الرغم من عباءات السكون التي حطت على بيوته ، فقد ارتدّت هواجس النهار الى الوراء ، تراجعت ، وتحولت الى رؤى وأحلام ليلية صاخبة ومؤرقة .

كان مشهد الجرافات يثير في نفوس السكان قلقاً لم يتمكنوا من اقتلاعه ، حتى بعد دفعهم المبالغ المطلوبة منهم ، وكانت الكوابيس تغزوهم كلما فكروا بتلك المعدات المترصّدة ، فكل شيء قابل للفهم إلّا تلك !

في نهايات الليلة الثالثة عشرة ، أفاق السكان على حريق شب في احدى الجرافات ! ورأوا من بعيد ألسنة النيران وشآبيبها المتطاولة التي أنارت الوادي بضوء محمر متموج ذي ظلال متحركة ، وتراكضوا نحو مدخل الوادي ، احتشدوا بلا انتظام حول تلك الجرافة تاركين للنيران أمر التهامها حتى البرغي الأخير « وما دخلنا نحن ؟ » كانوا يقولون كلما علت من بينهم أصوات تطالب باطفاء النيران ، لكن سلمان « مالكم واقفين ؟ تحركوا ! » صاح بهم حال

وصوله حشدهم « ومالنا ومالها يا سلمان ؟ » قال بعضهم ، لكن آخرين استجابوا له على الفور ، فتقدموا واخذوا يعفرون الرمال على النيران محاولين اطفاءها ، فتبعهم آخرون ، وآخرون . . .

كانت الجرافة أشبه بعقرب ضخمة أغرقت بالكاز ثم أضرمت فيها النيران ! كانت تطقطق وتتقشر تماماً كجسم عقرب عاجزة محصورة ! والرجال حذروا بعضهم من الاقتراب منها ، بل ان احساساً نفاذاً خرق نفوسهم حينئذ ، فانتقل الى اجسامهم التي ارتجفت بفعل ذلك الاحساس الممزوج بالقلق والفرح المذعور ! وحتى حينما تمكنت سيارات الاطفاء ـ التي وصلت متأخرة ـ من اخماد النيران ، فقد بدت الجرافة للسكان مثل عقرب متفحمة مثيرة للنفور ! غير أن همود النيران أيقظ الحشد من هول المفاجأة ، فصاروا يتحدثون باتزان وحذر ، قالوا بأن الحريق لم يحدث مصادفة ، انما هو من فعل فاعل ، إذ « أيمكن أن تحترق الجرافة من تلقاء نفسها ؟ لا بد أن أحداً أحرقها ! لكن كيف أشعل الحديد ؟ ربما استخدم الكاز ! ربما السولار ! » وقال آخرون « والله انه جريء ! » وسخر آخرون « جريء ؟ ها ، سترون ما الذي ستجلبه لنا هذه المصيبة الجديدة » .

لقد أثار الحريق في نفوس السكان ذعراً لم يستطيعوا حياله سوى دفع التهمة عن أنفسهم ، والصاقها بثلاثة من رجال الفلاحين : « هم الذين كانوا يتهددون ويتوعدون ! » « كل الناس دفعوا إلاّ هم ! » « هم السبب في تأخير تطويب الأرض بأسمائنا » وأخيراً « هم الذين فعلوها » !

لكن هذا لم يؤكد الاتهام الموجه الى الرجال الثلاثة ، اذ « صحيح أننا لم ندفع ، صحيح أننا لا نملك النقود ، لكننا لم نحرق الجرافة ! » « من الذي أحرقها اذن ؟ » « الله أعلم يا سيدي » .

* * *

اخر الليلات

٢٨٣

في الليلة الرابعة عشرة ، اشتعلت النيران في جرافة ثانية على الرغم من كل الاحتياطات المتخذة ، ومن جديد حضرت سيارات الاطفاء ، وتفرق الناس ، لكنهم هذه المرة تحدثوا عن هاجار الغجرية وعن والدها سبلو ! قالوا بأنها هي التي أحرقت الجرافة ! اذ « طالما أن الرجال الثلاثة لم يعودوا الى بيوتهم بعد ، فمن سيكون الفاعل ؟ » « ولكن كيف لم يخطر هذا ببالنا من قبل ؟ » « كيف لم نفطن الى أنها ووالدها لم يدفعا حتى الآن ؟ » « ولماذا لا يكون سبلو هو الفاعل ؟ » « هذا غير ممكن » « أنا أقول سبلو هو الذي فعلها » « لا شيء يرتجي من سبلو ! إنه سكير ومجنون ، واحراق الجرافة فعل مدبّر يحتاج الى الخفة والجرأة وسرعة الحركة » !

كان سبلو وابنته يستندان بأكواعهما الى الافريز الحديدي في بيتها ، والكهرباء تنير كل البيوت الا بيتيهما ، وبيت كياز ، وثلاثة من بيوت الفلاحين . كان لغط الرجال يتعالى ، فيميزان الأصوات والكلمات ، وصوت نزار آنئذ ، كان أعلى الأصوات : هي التي فعلتها ، اسألوني أنا ، أنا أعرف الناس بعنادها ، هي سبب البلاء ، هي . .

- أنا أقول بأن الذي فعلها هو سبلو . .
- أنا أقول هاجار وسبلو . . .
- أنا أقول الفلاحون الثلاثة . . .

- أقول هاجار . .
- سبلو . .
- الفلاحون . . .
- هو . . .
- هي . . .
- هم . .

اقتربت الأصوات من بيت سبلو وهاجار ، ثم تلاحقت الطرقات العنيفة الغاضبة على البوابة الخشبية السفلى، حينئذ لم يرتطم رأس سبلو بقيعانه الحلمية ، انما بحديد الافريز الصلب . . .

اخر الصباحات

كان جبر أبو بركة يجلس وراء طاولة مستطيلة في صالة الفندق السفلى .
في الركن الآخر جلس عرقي الغجري ، والصالة هادئة وخالية .
كانا يرتشفان قهوة الصباح في آن ، ويقرآن في آن ، الخبر الذي نشرته الصحف في الصبيحة الأخيرة من الانذار :

تم حل مشكلة وادي الغجر بالتراضي ، حيث اتفق كل من صاحب الأرض وأهالي الوادي على سعر نهائي للمتر الواحد قدره عشرون ديناراً ، وقد قام الأهالي خلال الأيام القليلة الماضية بدفع المبالغ المطلوبة منهم الى صاحب الأرض في جو من المودة والرضا .

ستار

صدر للمؤلف

- **الطريق الى بلحارث**: رواية ، منشورات رابطة الكتّاب الأردنيين طبعتان ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ .
- **وقت** : رواية ، منشورات دار ابن رشد / عمان ١٩٨٤ .

كان أبو سلمان حريصا على غرس تقاليد رهبته في نفس ابنه الأكبر، سلمان!

كان يصحبه في زياراته ولقاءاته بالآخرين، ويعلمه الكثير من أساليب المنعة والحجة والحيلة، وذات ليلة صامتة، تمكن أبو سلمان من التسلّل إلى العقل الآخر لابنه هذا، حيث قال له في غفلة من انتباهه الذي انصرف لحظتئذ إلى عينيه اللامعتين: اسمع يا سلمان، حينما تلتقي برجل افتح عينيك وانظر بتصميم في عينيه، إياك أن ترمش، إياك أن تحرك عينيك، وَدَعْ صوتك يخرج من حنجرتك زخماً مستقيماً لا ينثني..

قال له أيضاً:

هالة الرجل تظل قائمة ما احتفظ بغموضه، أما إذا سنحت فرصة كشفه، فإن عنقود هالته سينفرط، لأنه سيتفاعل، ويضحك، وهنا تنشأ الألفة، والألفة نقيض الرهبة، لذا لا تسمح لجرثومة الألفة بالتسلل إلى نفسك، لأنها مفتاح أسرارك، ومقتل هيبتك..

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير -
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت - ص. ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY - ٤٠٠٦٧.

شركة الفارس
الشميساني - بقرا سنتر - هاتف ٦٠٠٤٣٢ -
عمان / الأردن - ص.ب: 9298 تلكس:
UEG JO 23174 فاكس: (6) 682582